دكتور

عادل صادق

سيناريـــو الحـــياة

مؤسسة حورس الدولية

سيناريو الحياة

الناشـــــــر :

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ـ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

٢٠٠٥/٢٠٠٦

اسم المؤلف : د/ عادل صادق.

اسم الكتاب : " سيناريو الحياة "

مراجعة لغوية : عبد الرحمن الجبالي.

إخراج فني : سعيد شحاتة.

رسوم الغلاف : محمد أمين.

كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين.

مدير النشر: : مصطفى غنيم.

رقم الإيداع : ١٠٩٢٥/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 977-368-091-6

ثلاثي العظمة :

القلـــب القـــادر علـــى الحـــب..

والعقـــل القـــادر علـــى الحكـــم..

والضمير القادر على ضبط الأهواء

د. عادل صادق

محتويات الكتاب

الفهرس

الموضوع	الصفحة

(١)

يا ليتك يا حبيبي كائن موجود

نهضت من نومى ذات ليل وحمل ثقيل يجثم فوق صدري، هذا هو الحزن يزورنى مرة ثانية، هكذا فجأة تعاودنا الأحزان فلا تترك لنا فرصة الهروب، هرعت إلى النافذة لعلى أرى نوراً فيبرق الأمل ويزحزح الحزن، كان سطحا السماء والأرض وما بينهما ملتفاً بعتامة ملساء أضاعت الحدود والفواصل وتاهت المعالم فانعدم الأمل تماماً فزاد الضغط على صدري، وتدفقت لفحة هواء باردة فأنعشتنى للحظات فتيقنت من أن الاكتئاب لم يتمكن منى بعد. فقررت أن أمضى إلى الطريق لعل عينى تصطدمان بأى نور.

النور وحده هو الذى يهزم أحزاني، كنا قبل الفجر بساعة فمشيت بلا هدف، وأخذت أسترجع هزائمى ونواقصى وتضاءلت ذاتى وانعدم التيه وتبعثر الزهو، ولكننى استرجعت نفسى وتلمست مصادر أخرى تعيننى على أن أظل منتصب القامة مرفوع الرأس، كان جزء من نفسى يريد أن يهزمني، وجزء آخر يناضل ألا أنكسر، وأدركت كم أنا ضعيف وكم أنا قوى فى آن واحد، شجاعة وخوف، أمل ويأس، سيطرة واستسلام، إقدام وتراجع، تحليق واندثار.

وانتابتنى الحيرة، من أنا ومن أكون، ما حقيقتي، وخشيت على عقلى من الانقسام والتشتت، وناديت من يلملم لى ذاتي، من يحمينى من

التصـــدع، وفقـــدت الإحساس إلا من لسعات الهواء وتدفقه بتلاحق داخل شعاب صدري.

وبينما أمضى حزيناً حيراناً سمعت مؤذناً ينادى للصلاة، الله أكبر، الله أكـــبر، خلت الصوت قادماً من السماء، وخلته ينادينى أنا وحدي، خلته نـــداءً خاصـــاً، السماء تشعر بأحزانى وتريد أن تبعث فى نفسى الطمأنينة، وبحثت عن شعاع خالص من نور فلم أجد إلا أن الظلمة بدت وكأنها تتفسخ ففرحـــت لهزيمتها وساورنى الأمل فى أن انقشاع الظلام سيصاحبه زوال أحزانـــي، توضـــأت فشـــعرت بأنـــنى خفيف إلا أننى لم أكن قادراً على الطـــيران، صليت فحلقت حتى آخر سماء فغشينى النور الحق، مسحت يد الرحمة على صدرى فغسلتنى من الاكتئاب.

عدت أمشى وفى قلبى فرحة وقد توالت دفعات النور حتى استحكمت ســـيطرتها التامة فبان كل شئ، ورأيت أول ما رأيت نفسى فوجدتنى أمشى واثق الخطى ثابت القلب هادئ النفس صافى العقل.

ووجدتنى وحيداً على جانب النهر تعلونى شجرة اتخذتها العصافير مـــرفأً ترسل منها تسابيحها بتناغم بديع وإصرار مبعثه الإيمان، جمال فى جمال، وجمال يعلوه جمال، وجمال يحيط بجمال.

وبيـــنما أنا مشدوه لاح وجه أنثوى يفوق كل ما حولنا من جمال، يا ســـبحان الله، أبشـــر هـــذا أم ملاك؟ وسرعان ما اختفى الوجه فحاولت أن أستعيده من الذاكرة ففشلت ولكن أثره ظل راسخاً فى نفسى ووجدتنى أهتف أحـــبك، أحبك، وعجبت من نفسى من هى تلك التى أحبها؟ أين هي؟ أحلم هذا أم هلاوس؟ فصرخت أن لا، بل واقع، حقيقة، إنها حبيبتي، إنها المرأة الـــتى أحـــبها، لـــم أفقد عقلى بعد، وحواسى مازالت سليمة، وما أراه فهو

حقـيقة، ومشاعرى أيضاً حقيقية وصادقة، هذه هى المرأة التى أحبها، هى حلمـي، هـى ألفتى وسلامى وأمني، هى مستقبلى وفرحتي، هى طموحى ومجدى.

حاولـت أن أستعيد وجهها مرة ثانية، فلم أفلح، واكتفيت بأن تصبح معنى مجرداً، إن تجريدها هو ارتفاع بها إلى مصاف الحقائق المطلقة، إن كينونتها سابقة على وجودها المادى.

ورغـم ذلـك فأنا وهى قادران على التواصل وعلى الحوار وعلى التلامس، وقادران أيضاً على التحليق إلى قمم اللذة الروحية والجسدية.

مـن أنـت يا رائعة الحسن، يا خبرة الأيام وعصير السنين وروح التاريخ، يا حكمة الخلق وأصل الوجود وفلسفة الحياة؟

من أنت يا ذات الوجه الصبوح؟ أنت ذخيرة الماضي، أنت الحاضر بوقائعه وأنت المستقبل بإشراقاته، أنت الفكرة والمضمون واللحن المسحور والشدو الذى يهز القلوب.

مـن أنـت يا رائحة الجنة؟ أنت مزيج من حياء الشروق وأشجان الغـروب، أنـت مـزيج من الطين البشرى والنور الملائكي، أنت الخير الأخضر الذى ينمو على شاطئ النهر.

أى عطر ذلك يفوح منك يا نقية السريرة؟ أهى رائحة الورد الذائب فى ندى الفجر وقد حمم جسدك البض!!

وأظل أسير فى الحياة، وأنت معى خاطراً وحلماً وليس وهماً، يستبد بـى الشوق أحياناً وأتوق للقياك، وأهدأ فى أحيان أخرى وأكتفى بك معنى ورمـزاً، أجدك فى أبيات الشعر وثنايا الألحان ونبرات أصوات الشادين، أراك فـى كـل معـنى بليغ تضمنه سطر فى كتاب، أراك فى الأساطير

والحكايـــات، أدركـــك مع القمر ووقت طلوع الشمس ومع نسمات الهواء وعمق البحر واتساعه ولونه الأزرق وزبده الأبيض، أراك في كل مواقف الخير وفي وجوه الناس الطيبين وحنان الأب ووجل قلب الأم، أراك في كل الأفـــراح الـــتي تجمــــع بين حبيبين، أراك في صحبة الأرواح التي تغادر الأجســـاد تحزنين مثلى لفراق الأحباء، أجدك حيث يرتوى عطشان ويشبع جوعان، أراك في نشوة النصر وبهجة النجاح .

ولشـــد مـــا أحـــتاجك في لحظات اليأس والألم، وألمى عظيم لفقد الأحـــباب وجفوة القلوب ونذالة النفوس، أحتاجك بشدة لأرى دائماً أن الدنيا بخير .

ويعظم احتياجى لك أوقات الاكتئاب حين تجثم أثقال الدنيا كلها فوق صـــدري، أهـــرع إلـــى كل لحن وكل قصيدة وكل كتاب وكل لوحة لعلى أجدك، أو حتى أصادف ملمحك، أو حتى أجد معنى يشير إلى أنك موجودة وكائنة.

مجـــرد وجودك يكفيني حتى ولو كنت في أقصى الأرض، وأنا في أدناهـــا، لا أريـــدك ملكـــاً خالصاً لي، يكفيني أنني أحبك، الله خلقك هدية للحياة، كالشمس لكل الناس، كالقمر لكل الناس، في هذه الدنيا شمس واحدة وقمر واحد وأنت .

وذات يـــوم رأيـــتك رؤيا العين، أمعنت النظر نحوك، وحانت منك التفاتة ناحيتي، تلاقت عينانا، أرسلت لك رسالة أنت أجمل أنثى في الكون، وصـــلتك الرسالة فابتسمت، ظللت أتتهم جمالك، وقلت يا سبحان الله، شكراً يا ربى لإبداعاتك، خلقتنا نحب الجمال، وصغت لنا الجمال في كل شئ من حولنا، وجعلته درجات حتى نتطلع ونترقب ونشب ونسعى ونندهش ونفرح

وسعد وبها وبصرخ ونقول الله، الله، ومضى الوقت سريعاً، ولم أستطع أن ألحق بك، اختفيت، وضاعت الفرصة ولكن ظل الأمل فى أننا سنلتقى مرة ثانية، ومرة ثالثة، وكان الليل قد انتصف، فهرعت إلى البحر، إنه الوحيد الذى يستطيع فى ذلك الوقت أن يستوعب زفراتى وأن يبتلع آهاتي، عاودنى الحزن ولكنه كان رقيقاً رقة الهواء المشبع بالرذاذ، وتناهت إلى أسماعى أغنية قديمة عمقت من أحزانى وجعلتنى أشعر بكم السنين التى مضت من العمر فشعرت بالوحدة، وتساءلت كم بقى من الوقت وتسدل الستارة

وعدت أسأل لماذا جئنا وإلى أين نمضى وما جدوى الحياة؟ وخطر لى أن أخلع ملابسى وأستحم فى البحر لعل النيران التى اجتاحتنى تنطفئ، واستسخفت الفكرة، إلا أن ذلك لم يمنعنى من الاقتراب من الشاطئ أكثر وأكثر، وفجأة برز وجه حبيبتى من قلب الماء فارشاً دائرة من الضوء حوله، ابتسمت بحنان وكأنما جاءت تؤنس وحدتي، حاولت أن أكلمها فرفعت إصبعاً ليتعامد مع شفتيها أن أصمت، فاحترمت رغبتها، وظلت هنيهة، ثم انصرفت وعدت إلى وحدتي، شعرت بالتعب فجلست، وجاء رجل عجوز ممسكاً بسنارة أسقطها فى الماء، ظل واقفاً ساعتين أو أكثر حتى طلع الصباح بنوره، عرضت عليه شراء ما اصطاد، فأخبرنى بأنه هاو يعشق ارتعاشة السمكة حين تقع فى قبضة سنارته، يرتعش الإنسان برداً وعشقاً، وارتعاشة العشق تدفع بالدماء حارة فتكسب الوجه حمرة والأعضاء قدرة.

ما أروع أن يعشق الإنسان شيئاً أو شخصاً، لا إبداع إلا من ثنايا العشق، والعشق هو النفاذ إلى صميم جوهر المعشوق، إنه الانكشاف

الباعث على الانبهار، فيستبين الجمال الحق فى أكمل صورة، فالجمال هو سر العشق وأصل العشق ومبعث العشق.

وأنت يا حبيبتى لم أر أجمل منك فى الكون، ضاهيتك بالفجر والنهر والـــورد والنغم والشعر فكنت كل ذلك جميعه، لقد استخلصت لذاتك العلية كل معانى الجمال ورموزه فى الحياة وتداخلت مع روحك ونسيجك فصرت أســـطورة، وصـــرت رمزاً، وصرت معنى متجرداً من أى تجسيد مادي، ولذلك أنت أبدى وخالد ومطلق، أنت بلا حدود ولا منتهى، أنت تسعين كل شئ فأنت كل القيم، وكل الفضائل وكل الخير وأنت أصل الحب الذى يضم ذرات الكون بعضها إلى بعض فتتماسك فى كل قوى متين ولذا فأنت فرحة الـــنفوس وأمانهـــا وعـــزتها ومناعتها وأنت النور الهادى والظل الوارف والدواء الشافي، تطعمنا وتسقينا تؤنسنا وتشجينا، تميتنا وتحيينا، أنت، أنت، أنت كل شئ .

أنـــا أحبك، أحبك، أحبك، ليتك كنت كائناً موجوداً حتى أستطيع أن أقبلك.

(٢)
هذا الرجل مختلف عن كل رجال العالم

كان يملك من قوة الإرادة ما يمكنه من رفع جبل عن موضعه، كان يستطيع كظم غيظه أمام أى إنسان مهما عظمت قدرته على الاستفزاز مثلما كان يستطيع السيطرة على غضبه فى أشد المواقف اشتعالاً، وأيضاً كان يستطيع أن يكبح جماح غرائزه أمام أكثر الموجودات إغراء إلا فيما ندر حينما تميل نفسه ويجذبه هواه نحو امرأة شديدة الجمال إلا أنه سرعان ما كان يسيطر ويتحكم انطلاقاً من قاعدة أخلاقية متينة تربى عليها وإحساس بالمسئولية نابع من شعوره الصادق نحو زوجة فاضلة، وأخيراً لحساسية وظيفته ومركزه الاجتماعي، ولهذا ظلت صفحته بيضاء لا يشوبها ما يشوب عادة من هم فى مثل قوته المادية والوظيفية .

وكثيراً ما حاول حاسدون نثر بعض الأتربة السوداء على الثوب الأبيض إلا أنه بحلمه وحكمته كان قادراً على نفضها وكان قادراً على احتواء المشاعر السلبية الموجهة ضده من بعض زملاء المهنة .

كان متديناً فى اعتدال، سمح الطباع، سخياً فى عطائه مبدعاً فى عمله، حازماً فى إدارته، مرحاً فى الحدود التى تحفظ له وقاره وهيبته، ابتسامته تأسر القلوب وعمق فكره يدفع المحيطين للاستنارة برأيه .

ومـــثلما كـــان بارعاً فى عمله، كان له اهتمام بالفن والأدب وأتقن العزف على البيانو إلا أن طبيعة عمله كانت تقف حائلاً أمام الإفصاح عن موهبته الموسيقية.

كانت هذه هى الصورة الصادقة التى رسمتها عنه من خلال حديثها معي، ومن خلال عدة لقاءات به.

أمـــا هى فسبحان الخلاق المبدع للجمال فى الوجود، ومهما أسهبنا فى وصف جمال الوجه، ودقة تصميم الجسد إلا أن جمالها الحقيقى كان لا يـــدرك بالعين وإنما تستطيع أن تدركه بكل حواسك الأخرى بما فيها حاسة الشـــم حيـــث تستقبل من حولها أريجاً يملأ صدرك بالابتهاج ولا تدرى إذا كـــان هـــذا الابـــتهاج مصدره الأريج أم مصدره إحساس بالفرحة لمجرد وجودهـــا بالقـــرب منك حتى وإن لم ترها، الهواء من حولها يتشبع عطراً وفـــناً وفكـــراً ومـــرحاً ورحمة فيسيطر وجودها أو تواجدها عليك من كل جانب.

دخلـــت هذه المرأة حياته من خلال عمله، وإذا استمعنا إلى تفاصيل عبورها أمامه واصطدامها به لتصورنا أن جهة ما وضعتها فى طريقه عن عمد إما لتوقع به أو لتختبر صلابته فى السيطرة على غريزة حب الجمال المتأصلة فى كل إنسان، وإذا دققنا فى التفاصيل لتصورنا أنها مؤامرة لأن موقعهـــا فـــى العمـــل جاء ملاصقاً له، أى تعامل يومى ومباشر ولساعات يســـمح بتخلـــيق ألفـــة تزداد تدريجياً فى ظل التداخل فى تفاصيل العمل، والـــتفاهم المتـــنامى مع كل موقف، ثم الأخطر الاعتماد عليها فى الإنجاز والـــذى بـــرزت فيه بحكم ذكائها وخبرتها، واكتسبت هذه الألفة بعداً أعمق حين اكتشف فيها حبها للفن والأدب .

واستطاع هو بخبرته وحنكته وحذره وصلابة أخلاقه أن يضع الحدود منذ البداية وكفاه هذه الألفة المفروضة عليه بحكم طبيعة العمل.

واستطاعت هي بخبراتها المتراكمة من تهافت الرجال عليها أن تفهم هذا الرجل بالذات لأنه كان يختلف عن كل الرجال الذين اعترضوها عبر حياتها العملية.

واستراحت للتعامل معه لأنها آمنت بأنه لن يحاول معها، هكذا دلتها خبرتها بكل الرجال السابقين، كان الرجال عندها ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يستطيع أن يخفى ولهه ولا يستطيع أن يرجئ شبقه فيندفع فى إغرائها مستخدماً كل أسلحته بما فيها الابتزاز والتهديد إذا كان موقعه يسمح بذلك، أما القسم الثانى من الرجال فهو الذى كان يؤمن بأن أشهى الأطعمة هو ما كان ينضج على نار هادئة فكان يقترب منها ببطء وهدوء ينمان عن مكر ومقدرة على الخديعة للنيل منها والظفر بها فى النهاية.

هذا الرجل مختلف هكذا حدثت نفسها وهى تخلد إلى النوم بعد يوم عمل شاق خارج البيت وداخله، وقبل أن يداهمها النوم تماماً، وبوعى قليل متبق ساورها قلق خفى مجهول المصدر سرعان ما تلاشى حين فقدت الوعى بنومها التام، وفى يقظتها لم يكن هذا القلق الغريب يساورها على الإطلاق، إنما فقط كان يزورها كشبح تحس بوجوده ولا تراه فى أثناء تلك المنطقة الوسطى بين النوم واليقظة حين تأوى إلى فراشها.

وحمدت الله أن استقرت فى عمل يتيح لها أن تخرج ما لديها من إبداع مع رئيس محترم يظللها بتشجيعه وخلقه، مما أتاح لها أن توفر الحياة الطيبة لأسرتها التى كانت تتكون من زوج حنون وطفلين جميلين ذكر وأنثى.

والبطل الثالث فى هذه القصة الحقيقية هو الزوج والذى اكتملت فيه كـل صـفات الـرجل الذى تسعد به امرأة ناضجة كزوج، منصباً وذكاءً وحـناناً، وإمكانــات ماديـــة وقدرات جسدية، بمعنى أن تحقق لهذه السيدة الجميلة كل الإشباع الذى تحتاجه المرأة .

بـل تحقـق لها فوق الإشباع نشوى الروح والتى لا يحظى بها إلا المحبون والعشاق والعارفون بالله .

إلا أن قلقـا ما قبل السيطرة التامة للنوم ظل يزورها كل ليلة ومنذ أن بدأت العمل مع هذا الرجل .

وشـئ مـن هذا القلق أصابه هو أيضاً ولكن كان يزوره فى أثناء يقظته وكان أكثر تحديداً، وهو يعرف هذا النوع من القلق حين تبدأ دفاعاته تئـن تحت وطأة ضغط إغراء يحاصره، ومع تصاعد هذا القلق تتحفز كل أسلحته للزود عنه وحمايته من الخطر المحدق، إلا أنه هذه المرة شعر بأن الضغط الواقع عليه يفوق مجموع قواه الخارقة التى كان يزهو بها .

فكـان يـرق صوته رغماً عنه حين يتحدث إليها، ويفترش وجهه بابتسـامة صـافية، وتتثبـت عيناه فوق عينيها لثوان أطول مما يدعو إليه الموقـف، وربمـا كانت أنفاسه تسمع فى أثناء تحاوره معها فى شأن من شـئون العمل، إلا أنه فى اليوم التالى مباشرة كان يتعمد وبقسوة شديدة مع النفس أن يخفى هذه المظاهر خشية أن تتلقى هى رسالة منه لا يقصدها .

إلا أن مـا كـان يتعمده قد أتى بنتيجة عكسية، فالرسالة الثانية قد دعمـت الرسـالة الأولـى، وفهمـت هى أن الرسالة الأولى هى الرسالة الصـادقة الـنابعة تلقائياً من ذاته، أما الرسالة الثانية فهى الرسالة الزائفة والتى تعنى عكس مشاعره .

وتدريجياً أصبح القلق يزورها نهاراً ولم تعد هناك حاجة إلى قلق ما قبل النوم المبهم، وكلما أمعن هو فى رسائله المصطنعة المزيفة زاد إعجابها به، وتظل تردد: هذا الرجل مختلف عن كل رجال العالم .

وظلا على هذا النحو شهوراً إلى أن بدأ الألم فى الظهور فى كل أنحاء جسدها، ونحتار فى آلامنا، إلى من نشكو!! وعند من نجد العلاج!! وتزداد حيرتنا حينما لا نتعرف على سبب لهذا الألم .

وحتى هذه اللحظة لم يصارح نفسه بمشاعره نحوها، وهى أيضاً لم تصارح نفسها بمشاعرها نحوه .

إلا أنها زارت طبيباً متخصصاً فى الألم العضوى ملتمسة علاجاً لهذا الآلام المبهمة غير المحددة مجهولة المصدر .

ولم تزعجها كثيراً نصيحة الطبيب العضوى لها بأن تزور طبيباً نفسياً فهى امرأة مثقفة على درجة عالية من الشعور المرهف والإحساس العميق والإدراك المبهر .

واستطاع الطبيب النفسى أن يرى الخيوط النحيلة جداً التى تربط بين الألم ومصدره، ونصح بإجازة طويلة من العمل، واستجابت فوراً للنصيحة الطبية .

أما هو فقد قلق من أجل صحتها، واتصل بالطبيب وتحقق أكثر من لقاء بينهما، أحدهما للاستفسار عن صحة المريضة والثانى والثالث بالمصادفة المرسومة .

وبالرغم من أن الطبيب النفسى لم يفصح له عن شئ، ليس فقط حرصاً على أسرار مريضته بل أيضاً لأن المريضة لم تحك له عن شئ،

بـــل هـــى مشـــاعره الخاصـــة المدربة التى استطاع بها أن ينفذ إلى عقل مريضـــته لـــيرى ما يخفيه حتى عنها، وبالتالى لا يكون لديه الحق فى أن يقرر واقعاً مبنياً على قراءة خاصة جداً للمشاعر . ونعود فنقول إنه بالرغم من أن الطبيب لم يفصح له عن شئ إلا أنه فهم.

واستطاع هو أيضاً أن يرى تلك الخيوط النحيلة التى تربط بين الألم الـــذى تعانـــيه ومصادره، استطاع هذه الرؤيا بشعوره المرهف وإحساسه العميق وإدراكه المبهر .

ولأن قاعدتـــه الأخلاقـــية كانـــت هى أقوى ما لديه من أسلحة فلقد بـــرزت أمـــام عينـــيه كلمات تحمل أمراً رفيعاً وعظيماً فيه ضمان لسلام المجـــتمع وأمن الأسرة وانتشار الفضيلة، ذلك الأمر الإلهى الذى امتثل إليه فوراً حين دعاه ألا ينظر إلى ما متعنا به أزواجاً غيرك .

بكلمـــات واضحة رددها ضميره النقى وسمعها بكل كيانه الطاهر: هذه امرأة متزوجة ليست من حقى وإنما هى من حق زوجها وطفليها .

وحيـــن وصلها الأمر الإدارى بترقيعها إلى مكانة أعلى (بعيداً عنه) احتفلـــت مـــع زوجها وطفليها بسعادة حقيقية، أما هو فقد نام فى هذه الليلة بفرحة واطمئنان لأول مرة منذ أشهر .

(٣)
ذكريـــــات

تــتراكم الســـنوات من عمر الإنسان مثل جبل من رمل يتسلى به طفــل، وكلمـــا عـــلا ازداد هشاشة حتى يهوى من "نفخة" هواء .. وتبقى الذكــريات هـــى الدعامة الحقيقية التى تبقيه متماسكاً بل هى المبرر لبقائه قائماً فإذا اضمحلت تفكك وانهار .

وكلمـــا استطال الجبل وهنت الذكريات فى محاولة لإيجاد رباط بين ســـنوات العمـــر فـــلا ينفصل الأمس عن اليوم .. وكلما مضى العمر يئن الـــرباط مـــن الأحمـــال كحبل يتعلق به الإنسان فإذا انقطع هوى فى بئر النسيان .

ويـــتم ذلـــك تدريجياً، تفقد الصورة ملامحها وتبهت وتتشتت أجزاء الحـــدث وتتـــناثر تفاصـــيله ولا يصلح كقصة تُحكى، وفى محاولة يائسة للاحتفاظ بالملامح والتفاصيل يخترع الإنسان ما انمحى وتبعثر منه لتكتمل صورة تصبح غير حقيقية ويتركب حدث يصبح كاذباً وبذلك يعيش الإنسان فـــى الوهم حتى يمتنع عليه الوهم ذاته ويضيع منه كل شئ وينتفى المبرر لوجـــوده فـــلا وجـــود للإنسان بدون ذكريات .. وذكريات القلب هى أدوم الذكـــريات وذكريات العواطف أقوى من ذكريات الفكر ولذا يظل الإنسان محتفظاً لوقت طويل بقدرته على الحنين والدموع .

اللقاء الأول:

لـــم يصـــدق عينـــيه وهو يراها جالسة على الأريكة الخشبية أمام حـــوض زهور فى حديقة اشتهرت بكثافة أشجارها حتى التعانق من أعلى وعُرفـــت بأنها حديقة العشاق المفلسين أو الذين يريدون الابتعاد عن عيون الناس بالقدر الذى يسمح بتشابك الأيدى .

كـــان يلجـــأ إلـــى الحديقة من وقت إلى آخر هرباً من عتامة البيت وليحتك بالشمس والنور تحريكاً للأيام الراكدة ويتسلى بمشاهدة الناس رمز الحياة وليتوقف فى أثناء تجواله عند أماكن معينة شهدت لقاءاته معها .

وكلمـــا اقترب من مجلسها تأكد من أنها هى بعينها . نفس جلستها كملكـــة على العرش، نفس الألوان التى أحبها، نفس ميل رقبتها إلى اليسار ورجوعهـــا قليلاً إلى الوراء .. إنها هى .. هى بدون شك .. لم تغير منها الأعوام الستون شيئاً منذ أن رآها آخر مرة . حين حدد اتجاهه إليها ومشى نحوها بإصرار كمن يخطو نحو إنسان على موعد معه التفتت إليه باندهاش وحيرة .. اقترب أكثر .. ابتسم واضطرب . أسرع شهيقه وزفيره .

اقترب أكثر .. فالتفتت كلية ناحيته، لاح عليها الاضطراب دون أن تبتســـم .. لم تتصور أنه يسعى إلى الجلوس على أريكتها فالأرائك الخالية كثيرة، فظننت أنه يريد السؤال عن شئ .. وحين واجهها تماماً واقفاً قبالتها ذكر لها اسمه بنبرة التذكير فاضطربت أكثر وبان عليها أنها تحاول بسرعة أن تســـترجع شريطاً وتقف عند مرحلة معينة، فابتسمت بما يعكس حيرتها ويكشـــف عـــن أنها لم تستطع اقتناص شئ من الشريط وذكرت له اسمها بنبرة من يحاول أن يدفع إنساناً إلى تصحيح موقفه أو على الأقل للتأكد .. فتهلل وجهه أكثر كمن خلص إلى حقيقة لا زيف فيها .

جلـــس بجوارهـــا دون أن تدعوه وإن أبدت عدم ممانعة سرعان ما نمت إلى ترحيب . ولم يمهلها حتى تهدأ وتلملم نفسها وبادرها:

هل تتذكرين؟

أتذكر ماذا؟

علاقتنا حين كنا صغاراً؟

ساعدنى على أن أتذكر .

جلوسك على نفس الأريكة يعنى أنك تستعيدين ذكرياتنا؟

فعلاً . أنا لى ذكريات جميلة فى هذا المكان .

وهل كان هناك آخرون؟

كلها كانت مع شخص واحد أحببته .

إنه أنا .

فعلاً هو يشبهك ويحمل نفس اسمك .

إنه أنا .

ربما؟

بل هو أنا .

أظنك هو ..

سأساعدك على التذكر .. هيا بنا نتمشى ..

وقـــف قبلها ومد يده ليساعدها على الوقوف فترددت ثم مدت يدها فأمسكها.. وحين انتصبت سحبت يدها برفق .. مرا بشجرة عتيقة حاول أن يجد على ساقها الضخمة رسماً لقلب واسميهما فلم يجد فتعلل بفعل الأيام.

وأمـــام شـــجرة أخرى أكثر ضخامة وذات فروع كثيفة تقترب من الأرض قـــال لهـــا كـــنا نستظل هنا ونبتعد لنسترق لمسة يد .. أرادت أن تســـتريح تحت الشجرة فدعاها إلى مزيد من المشى والتذكر .. وكانت قد هدأت تماماً وبان عليها الرضا بل السرور أيضاً وحاولت أن تساعده على أن تتذكر فكانت تهز رأسها موافقة على أشياء يحكيها، وكانت تساعده فى أحـــيان أخرى بمزيد من التفاصيل .. ثم بدأت تعاتبه على أنه نسى أحداثاً معيـــنة مثل يوم أن حاول تقبيلها فتركته غاضبة . ولكنه عاد وذكرها بأنه نجح فى تقبيلها بعد ذلك وكانت راضية.

فأطرقـــت فى خجل فعرف أنها تذكرت ما هو أخطر وأهم يوم أن احتضنها وهما فى مأمن كامل من أى عيون.

قالت: كان يوماً عصيباً أصبت فيه بالدوار وكدت أفقد وعيى.

قال بجرأة: ولكنك كنت سعيدة.

قالـــت وقد زال خجلها تماماً: حقاً كنت سعيدة ولم أمنعك من تكرار المحاولة.

انتهز الفرصة للإفضاء بعتاب قديم وقال: ولكنك كنت تقاومينني فى كل مرة.

قالـــت ضـــاحكة: كانـــت مقاومة ظاهرية يسعدنى بعدها تصميمك وانتصارك.

أراد أن يداعبها فسألها: بماذا كنت تشعرين وأنا أضمك.

قالـــت بنـــبرة صوت حالمة قادمة من أعماق دافئة: كنت أتلاشى وأتحول إلى ذرات طائرة.. ثم تعيدنى أنت إلى كل متكامل وكيان متماسك . كنت تصنعنى من عدم.

تحركــت مشــاعره بشدة فأمسك يدها بقوة حتى لا تسحبها، ولكنها استســلمت وضــغطت مــن جانبها فشعر بلذة تسرى فى كل أنحاء جسمه فتبعثر ثم تماسك وشعر بأن جسدها يرتعش فترك يدها وأحاط بيده خصرها حــتى عاد إلى أريكتهما فجلسا متلاصقين .. واستمرا فى حديث الذكريات فــى محاولــة للإحاطة بكل تفاصيل الأيام السعيدة .. يوماً بيوم .. ولحظة بلحظــة .. مواقــف وأحداثــاً ومشاعر .. كتباً وأغانى وأماكن .. التاريخ الشخصى وتاريخ الوطن وتاريخ العالم .. ربطا الزمان بالحدث والمكان ثم بالأشخاص الذين صنعوا الحدث ثم الوقع الشخصى للحدث عليهما .. كيف شعرا .. كيف استجابا .

عــبرا مــناطق فــى الذاكرة تفيض هياماً وحناناً .. وعبرا مناطق أخرى زاخرة باللذة الجسدية . وعبرا مناطق ثالثة تنضح بالألم والمرارة .. غيرة وخصاماً وهجراً .

ظــلا يتسامران ساعة تلو ساعة .. يضحكان ويبكيان .. يتهامسان ويصرخان .. يحتدان ويتصالحان .

وبيــنما هما يتصافحان ويتواعدان على اللقاء فى اليوم التالي، قال لهــا بشــبه مرارة متبقية منذ زمن بعيد: لن أنسى يوم أن أخبرتنى بقبولك لخطبة ابن عمك لك .

ردت علــيه بــنفس المــرارة: ولــن أنسى يوم أن واعدتنى لتجئ لتخطبنى من أسرتى وأخلفت موعدك .

وتكهــرب الموقف . وخشى أن تخلف موعدها فى الغد فيفقدها مرة أخــرى وقد ينتظر ستين سنة ليراها مرة أخرى .. وخشيت هى أيضاً أن يخلف موعده فى الغد بعد أن حرك كل مشاعرها الأنثوية .. فقال لها وهو

يضـــحك: أنـــا لـــم أتزوج حتى اليوم .. فردت بضحكة عالية أثارت من حولهما: وأنا أيضاً رفضت ابن عمى ولم أتزوج حتى اليوم .. وافترقا على موعد .

قبل الوعــد.

لم ينم ليلته ولم تنم ليلتها.

دب النشـــاط فى كل جسده بينما نسيت هى تناول حبوب الروماتيزم حيــث لـــم تعاودهـــا الآلام فى هذه الليلة .. بحث هو فى كل أدراجه عن صوره تذكر أنها تجمعهما وظل محتفظاً بها.. ونجح فى أن يجمع أكبر قدر مـــن صور له فى شبابه .. أما هى فأرادت أن تفاجئه بتسجيل لكل أغانى عصرها التى أحباها .. كما لم تنس ألبوم صورها على مدى حياتها .

ذهـــب إلى الحلاق .. وكوى بدلته .. واشترى قميصاً وحذاءً .. أما هـــى فأتت بأحلى حليها وفساتينها، وبحثت عن عطر قديم كان معروفاً فى زمانها الأول اعتادت أن تنثره على ملابسها وهى تلقاه .

بـــدا فى الأربعين رغم أعوامه الثمانين، وبدت كطفلة رغم أعوامها التى ربما تزيد قليلاً على أعوام عمره .

اللقاء الثاني:

ذهـــب قـــبل موعـــده بساعة فوجدها تنتظره .. كانا متلهفين على الـــتلامس .. فظـــل ممســـكاً بيدها، اقترح عليها أن ينتقلا إلى منزله حيث الهدوء وحيث يعيش وحيداً ففهمت مقصده واعتذرت بوهن متعللة بأن ذلك ســـوف يغضب شقيقها الأكبر وقالت لنفسها: إن هذا الرجل لم يتغير .. لقد حاول معى نفس المحاولة وهو فى العشرين .

أخرجـت من حقيبتها بعض الطعام وسكبت الشاى فى كوبين فشعر بحنيـن طـاغ إلـى أن يكون أسرة .. لم يتردد فى طلب الزواج، فأبدت موافقتها على أن يتم ذلك على مراحل .

أدارت جهـاز التسـجيل فقال لنفسه هذه المرأة لا تنسى أى شئ . وجاءهمـا صوت مطربة زمان تحكى عن لقاء الحبيب فى الغد ثم أتبعتها بأغنية من نفس المطربة تحكى عن حالها وهى تتهيأ للقاء حبيبها ثم انتهت إلـى أغنية تحكى عن الذكريات .. ومضى الوقت وكأنهما فى حلم ونسيا الدنيا وما فيها .. وأطلعها على صورتهما معاً فأبدت دهشة وصرخت هذه ليست صورتي.. فاعترض وقد بدأ الخوف يتسرب إليه: بل هى صورتك .

، داهمهـا الجـزع وقالت له: أرنى صورك وأنت شاب .. فانهارت وقالت: لست أنت .

فقال بأسى: بل أنا .

وران علـيهما الصـمت .. ووجـه كل منهما رأسه إلى ناحية فى محاولة لاستعادة التماسك. وومـض فـى رأسها أمل .. سيكون هو إذا تـأكدت من أن الإصبع الأكبر للقدم اليمنى غير موجود حيث كان قد فقده فـى حـادث . طلبـت منه أن يخلع حذاء قدمه اليمنى وأن يكشف عنها: اسـتغرب لطلبها ولكنها ألحت .. فهم أنها تريد التأكد من علامة معينة .. استجاب لطلبها وكانت أصابع قدمه كاملة .

اللقاء الثالث

وفـى الـيوم التالى مباشرة جاء كل منهما فى الموعد الذى لم يتفقا عليه .. ومضيا ويداهما متشابكين فى إصرار على ألا يستيقظا من الحلم .



(٤)
الحب الأول والعفاريت

النــبض دلـــيل حياة، ومازالت ذكراها نابضة فى عقله دافعة بدماء حـــارة إلـــى عروقه كلما عبر بأثر ارتبط بها: لحن أو شارع أو عطر أو أبـــيات شعر. وحين تخطر بالبال يفور الوجدان كأنما يتلظى بنار، وما هى بـــنار إنما هى شوق بارح. يا للعجب فقد مرت سنوات وسنوات وانقطعت الصلة وتجمد رصيد الذكريات وتراكمت أطنان من المشاعر أقبلت من كل اتجاه، ولعب الدهر لعبته المعروفة بتتابع الأفراح والأتراح .

وتقـــدم العمـــر وتباعدت المسافة بين الزمن الذى عرفها فيه وبين زمانـــه الذى يعيشه اليوم ولكن مازال كل شئ يرتبط بها ينبض، حتى هى حين تزور خاطره تبدو وهى تفيض بالحياة والنضارة وكأن السنين لم تأخذ مـــنها شـــيئاً وإنما منحتها مزيداً من الحيوية، ترفل فى رداء من نور ولا يزال خطوها مرحاً، وعطرها يثير وصوتها يشجى وعيناها تفيضان عشقاً .. وكل ذلك ذكرى .. ولكنها نابضة .

وفى ليلة أيقظه ألم فى بطنه من شدته تصور أنه سيموت، ولم يشأ أن يوقـــظ زوجـــته المتعبة ما بين عملها وخدمته هو والأبناء . فضل أن يمـــوت دون أن يـــزعج أحـــداً . وعبرت فى رأسه صورة مقبرة الأسرة وصورة أمه وأبيه اللذين يرقدان داخلها .. ثم طاف بالحى القديم حيث ولد

وحيـث عاش طفولته وحيث التقى بها وأحبها وهام بها وعشقها وصاحبها وقـبلها وعاهدها على الزواج، ثم ألمت بأسرته النوائب فاضطروا لمغادرة الحى واندمجوا فى حياة جديدة أنستهم كل صلة بالماضى .

ولكـنه أبـداً لم يحب شيئاً بعد فتاته الأولى وحبه الأول ومدرسته الأولى.. ورغم أن الحياة ابتسمت من جوانب متعددة إلا أن ذكريات الحى القديم كانت هى المصدر الحقيقى للسعادة. طوفت كل هذه الصور والمعانى رأسـه وهـو ممسك ببطنه كاتماً صوته حابساً أنفاسه حتى استبان النهار فهـرع إلى المستشفى وحيداً واندفع به الأطباء إلى حجرة العمليات لإنقاذ حياته من انسداد حاد فى الأمعاء مجهول السبب ولحقته زوجته فى الإفاقة فسـمعته وهـو يردد اسم فتاته الأولى. بحثت الزوجة فى دفاترها الخاصة فعـثرت على هذا الاسم ضمن قصة حكاها زوجها عن مراهقته فى إطار اعترافات شاملة فى بدء الزواج .

الاحـتفاظ باسـم فتاة داخل الجمجمة وفى ثنايا المخ لهذه السنوات الطويلـة التى تجاوزت الثلاثين ثم ترديده دون وعى وبلا إرادة تحت تأثير المخدر وفى اللحظات الحرجة للحياة أمر له دلالته الخطيرة .. هكذا عاتبته الزوجة بغضب طالبة تفسيراً عجز عن أن يقدمه .

وعجـب هـو ذاتـه من نفسه .. يتذكرها حين يريد أن يبث شحنة نشـوى فى وجدانه، ويتذكرها حين يتألم جسده، ويتذكرها وهو بين الحياة والمـوت فـاقد الوعـي، مـن هى الآن بالنسبة له وكم تحتل من خريطة عواطفه وأين زوجته من كل هذا !

وقـرر أن يزور الحى القديم، رحلة فيها مخاطرة نفسية وإثارة ما بعدهـا إثارة لوجدانه، ونبش فى أطلال غطاها الدهر بظلال تفقدها بعض

الهوية وتجعل من الصعب التعرف عليها أو العثور على شئ من حولها . وماذا يحدث لو عرفت زوجته بأمر هذه الزيارة الغريبة المريبة !

ترك سيارته فى الميدان الفسيح وترجل مخترقاً الشارع الضيق من أوله فداهمته رائحة المكان التى ما برحت ذاكرته منذ أن تركه. رائحة خاصة وقوية ومنعشة ومثيرة لكل الخيال المتعلق بالماضى القريب والماضى البعيد الضارب فى القدم لآلاف السنين .. رائحة هى مزيج من التراب والبخور والعنبر والخضراوات والفواكه على العربات ورائحة الأطعمة المنبعثة من المحلات .. مزيج غريب ينم عن قدم الحى وأصالته.. وطالع بحب الدكاكين بيافطاتها التى لم تتغير، وتذكر بعض الأسماء ولكنه لم ير وجهاً واحداً كان يعرفه، إلا أن بعض الوجوه كانت طاعنة فى السن ولكن ليس إلى الحد الذى يمكن معه تصور أن من كانوا يحتلون هذه الدكاكين منذ ثلاثين عاماً مازالوا أحياء . وعند مقاطع معينة من الشارع كان قلبه يدق بعنف .. هنا وقفنا معاً .. هنا تكلمنا . هنا لامست يدها خلسه. هنا ناولتها خطاباً، من هذا الدكان اشتريت لها عطراً .. ظل يمشى وهو يلتهم بكل حواسه كل شئ فى الطريق . حتى انتصف به الشارع فانعطفت فى شارع ضيق تزداد بيوته على الجانبين قدماً ويخلو من أى دكاكين ويزداد ضيقه تدريجياً حتى ينتهى إلى شبه زاوية مثلث يحتلها بيت عتيق .. وكاد قلبه يقفز إلى عنقه حاجزاً الهواء عن رئتيه .. توقف تنفسه لزمن يكفى ليفقد وعيه .. وتشوشت حواسه وشعر وكأنه يترنح ورأى وكأنما رءوس أطلت من كل نافذة تبحلق فيه وتنتظر ماذا سيفعل .

وفى ظل هذه الفوضى النفسية والفسيولوجية التى يمر بها فى هذه اللحظات استطاع أن يدفع الباب الخارجى للبيت العتيق ويدلف إلى ساحته

الداخلــية .. وإلى شماله كانت الشقة الأولى التى تحتل المدخل فوجد بابها نصــف مــنفرج، وتذكر أن معظم سكان هذه الشقق كانوا يتركون أبوابهم نهاراً نصف مغلقة لإتاحة مزيد من الهواء والضوء . فلم يمعن النظر حياءً وصعد السلم الضيق المتهاوى سريعاً إلى الدور الأول حيث كانت تقطن .. وكان الباب مغلقاً ولبث لحظات كأنها دهر لكى يتشجع أخيراً ويطرق الباب فانفــرج الــباب تحــت تأثير طرقاته الرقيقة وكأنه يرحب به ويدعوه أن يدخل.. ثم طرق بشدة أكثر ليلفت انتباه أهل البيت ثم قرر أن ينادى ولكن بــأى اســم يــنادى وأسعفته ذاكرته العاشقة باسم شقيقها فنادى عليه .. لم يســتجب أحــد وفى هذه اللحظات سمع أصوات أقدام تهرول من أعلى .. وفجــأة سقط على الأرض بفعل دفعة قوية لم يتبين مصدرها .. وبينما هو يحــاول أن يــنهض لمح طفلاً قدر عمره بالعاشرة وشاباً لا يقل بحال عن العشرين يندفعان إلى أسفل وكأنما يهربان من شئ أو كأنما روعا بمقدمه . وهدأت الجلبة بمغادرتهما البيت .

نهــض وتشــجع ودفع الباب أكثر حتى استجاب تماماً وانفتح عن آخــره .. وتقدم خطوة إلى الداخل مستغلاً الشجاعة التى تملكته وهاله أن يكتشــف بعد لحظة واحدة أن البيت مهجور .. واستجمع الأحداث كلها منذ أن اجــتاز الباب الخارجى صعوداً إلى شقة معشوقته فأدرك أن البيت كله مهجور .

عــاد أدراجــه بتــثاقل .. وشاهد فى البيت المجاور سيدة غليظة الملامح تطل من نافذة الدور الأول سألها بحزن عن سكان البيت المهجور، أجابته بجرأة: إنه مسكون فقط بالعفاريت منذ عشرين عاماً حين وطأت هذا الشارع.

عاد سريعاً إلى الميدان الفسيح ثم إلى بيته وعانى الاكتئاب أسبوعاً.

وبـذل جهـوداً مخلصة لاسترضاء زوجته ولكنها أيضاً، كانت قد ذبلت بفعل الاكتئاب. ولم يكن هناك مفر من زيارة الطبيب .

وكـان علـى الطبيب النفسى أن يشرح لها كيف احتفظ زوجها فى ذاكـرته باسـم هـذه الفتاة لسنوات طويلة .. وكان على الطبيب أيضاً أن يشرح له كيف احتفظ بهذه الفتاة فى داخله كل هذه السنوات .

قال الطبيب:

ذكـرى الحب الأول لا تنسى .. وهى ذكرى لا ترتبط بشيء واحد أو شـئ محـدد . ولكـنه حـب لكل شئ: للفتاة والطريق والبيت والمعلم والزعيم والطعام والعطر واللحن .. إنها الارتباطات العاطفية الأولى التى تشـكل مـنها الفكر والوجدان .. والحب الأول لأى شئ جارف وخالص، حب نقى برئ .. وهو حب يملأنا بالفرحة ويفيض علينا بالسعادة .

وتمضـى بـنا الأيام. وتزداد الهموم والمشاكل والمسئوليات ونرى الجانـب الـرمادى مـن الحياة . ونرى أنياب بعض البشر . فنهرع إلى الماضـى حيـث الـنقاء والبراءة .. يصبح الماضى هو الواحة والراحة والملجأ والمظلة وعين سلسبيل .

لا تقلقى يا سيدتى فهو يحبك أنت .. أنت الحاضر وأنت المستقبل، وأنت جزء من ماضيه .. أما فتاته الأولى فهى ذكرى حب وليست الحب . وذكـرى الحـب هى حب انتهى ولكن يبقى منه الطعم الجميل للحياة ذاتها ولـيس للفـتاة . الفتاة تحولت إلى معنى والطريق تحول إلى معنى واللحن تحـول إلـى معـنى . ولكـنها معان إيجابية تثير أحاسيس السعادة حين استعادتها ونحن نحتاج لاستعادتها من وقت لآخر .

أمـــا أنـــت يا سيدى فزيارتك للحى القديم حيث كانت فتاتك الأولى كانـــت محاولـــة منك لتثبت أنها غير موجودة، إنك الآن لا تحب شخصها لأنهـــا لـــم تعد موجودة لا فى بيتها ولا فى عقلك ووجدانك، لقد أردت أن تتأكد بنفسك ولهذا فإن عقلك الباطن قد أمر قدميك بالذهاب إلى هناك لترى العنكبوت بعين رأسك وقد افترش المكان دالاً على أنه مكان مهجور رحل كل من فيه منذ سنوات. بل المكان أصبح محتلاً بالعفاريت والعفاريت هى الوهم .

أنت يا سيدى تحبك زوجتك، أما حبيبتك الأولى فهى عفريت الحب.

(٥)
رائحة الحب

١- رائحة الرجال:

للشـــتاء صــوت ينشأ عن اصطدام الرياح بالأبواب والشبابيك التى يصـــعب إحكام غلقها لقدمها . ومهما كان تعود الإنسان على هذا الصوت ووثوقــه مــن مصدره فإنه يظل يخافه لأنه يعنى إقفار الطرق مما يغرى الأشرار بالخروج من جحورهم.

إلا هى فكل الأصوات الشتائية تثير لديها أحاسيس النشوة، وكل ما هــو شــتاء يحــرك أنوثتها دافعاً بالدماء الحارة إلى الأجزاء العطشة من جسده.

إلا أنهــا كانت قادرة على دفع هذه الفورات الليلية عنها بالاستعاذة والاستغفار والإكثار من الصلاة . ونجاحها فى إطفاء سعير مشاعرها يشهد لهــا بقــوة إرادتها . وعظم صبرها، وكإنسانة فإنها كانت تهزم أحياناً فلا تملــك إلا البكاء الصامت والذي تشعر بعده بآلام شديدة تجتاح أحشاءها .. وكان ذلك أكثر ما يحدث فى الشتاء حيث ذكريات الدفء والحب.

ورغــم اتساع البيت وتعدد حجراته فإنها كانت تنام مع طفلتيها فى نفــس الحجــرة ولكن على فراش منفصل يتيح لها أن تسهر ما تشاء دون إزعاجهما.

فـــى هـــذه الليلة بالذات اشتد نحيبها الداخلي حيث صادفت ذكرى رحـــيله الخامسة.. يا الله.. خمس سنوات مرت على وفاة الزوج الحبيب.. كأنها خمسون عاماً.. وكأنها فى أحيان أخرى خمس دقائق.. ياه.. إلى هذا الحـــد اختل الإحساس بالزمن؟ هى خمسون عاماً لبطء الأيام من بعده وما صــــاحبها من ألم.. وهى خمس دقائق لأن رائحته مازالت عالقة بالفراش.. وللـــرجل رائحــــة تلتصـــق بوجدان المرأة العاشقة ولا تخطئها وتظل هى المحرك الأساسي لمشاعرها الأنثوية حتى وإن رحل الرجل.

لم تنم حتى قامت لصلاة الفجر، وحين عادت إلى فراشها استكملت استعادة شريط الذكريات حيث يتم استرجاعه دفعة واحدة فى مثل هذه الليلة من كل عام.

ذهبت إلى عملها فى الصباح بادية الإعياء تابعتها العيون وهى تتجه إلـــى مكتـــبها المتواضع، لم يشأ أحد أن يسألها ما بها فهم جميعاً يعرفون المناســـبة، زميلها الدءوب ظل مسلطاً نظراته عليها.. تجاهلته مثلما فعلت مـــئات المرات، ومثلما فعلت مع غيره من الذين أبدوا رغبتهم فى الزواج منها.

فـــى نهاية اليوم رافقتها الزميلة المقربة فى طريق العودة .. سألتها وإلى متى؟ واستطردت: البنتان كبرتا .. والوجه مازال مليحاً والجسد بضا وسن الثلاثين مناسبة لبداية حياة جديدة.

وأجابت بنفس حسم كل المرات السابقة: لن يعيش رجل غريب مع ابنتى.

مضت الزميلة إلى طريقها .. وعادت هى إلى بيتها وحيدة وسألت نفســـها سؤالاً تكرر مئات المرات لتسمع من نفسها أيضاً الإجابة الحقيقية:

لمـــاذا لا أتزوج؟ ومن أعماق أعماقها تردد صدى صوت ضميرها: المرأة خلقت لرجل واحد.

واســـتطردت فى حديثها الداخلي: لن يلمسنى رجل آخر - ولن أشم رائحة رجل آخر.

٢- رائحة النساء:

تذوب المرأة فى حضن الرجل مثلما تذوب قطعة السكر فى الماء.. نوع من التلاشي، أو هو نوع من الامتزاج الكامل حيث تتوحد ذات المرأة مع ذات الرجل.

,ولـــيس شرطاً أن تكون هناك ممارسة حب فى هذه اللحظات ولكن يكفى أن يكون هناك حب .

وفـــى علاقة السكر بالماء لا تدرى أيهما يتلهف على الآخر، الكيان المنسحق أم الكيان السائد . أما فى علاقة المرأة بالرجل فإن التلاشى يكون من نصيبهما معاً لتعود صياغتهما فى شكل جديد .

دارت فـــى ذهنه هذه المعانى وهو يطالع وجهه فى المرآة مطمئناً إلـــى أنـــه لا يحمل بعد صفة الرجل العجوز وأن هذا هو الوقت المناسب للزواج ثانية بعد أن غادرت زوجته الحياة منذ عشر سنوات امتنع فيها عن الـــزواج حتى يصلب عودا ولديه فلا ينكسران نفسياً حين تحل زوجة الأب محل أمهما .

. كانت العروس الجديدة صغيرة وجميلة وفرحة بمنصبه الكبير وماله الوفـــير عوضـــاً عـــن فرق السن بينهما فضلاً عن أنها كانت لا تميل إلى صغار السن من الشباب.

وفـــى لقاء التعارف الثانى كانت العروس أكثر سعادة منه .. وفى اللقـــاء الثالـــث امتـــنع تماماً عن الاحساس بأى شئ ناحيتها . تصخر قلبه وتجمدت مشاعره واستحالت إلى جبال من ثلج تخفى فى طياتها رفضاً لهذه المرأة بل لكل امرأة .

وحيـــن أيقـــن أنه لا يصلح للزواج انسحب .. وعجز عن أن يقدم تحليلاً لصديقه الواسطة وواجه نفس العجز أمام النفس .. وكاد عقله يتبعثر مـــن كثرة ما تردد فى داخله هذا السؤال: لماذا لا أستطيع أن أتزوج إذ لم تكن هذه هى المرة الأولى التى حاول فيها أن يقترب من امرأة ليتزوجها . لقـــد حاول ربما ثلاث أو أربع مرات وفى كل مرة ينسحب بهروله تكشف عن ذعره من فكرة الزواج ذاتها .

وفى المساء اجتمع مع الصبيين على العشاء . كان الكبير يشبه أمه أما الصغير فكان يشبه أمه هو، وفى هذه الليلة بالذات شعر بوجودها معهم على مائدة الطعام وكأنما بعثت من قبرها وعادت إليهم، كان وجهها متهللا، واشتم عطرها .. أو قل فى الحقيقة اشتم رائحتها .. إنه يستطيع أن يفصل بين عطرها وبين تلك الرائحة الخاصة جداً التى تنبعث من جسدها .. وأن يشتم رائحتها فى هذه اللحظة فهذا دليل على وجودها الحى معهم، وهم بأن يسأل ابنيه عن حقيقة ما يرى وما يشم إلا أنه آثر أن يتركهما منغمسين فى تـــناول طعامهما بتلذذ غريب ونهم فائق تقديراً منهما للطعام الذى أعده هو بنفسه .

نهض الصبيان إلى حجرتيهما، بينما سحب هو زوجته من يدها إلى فراشـــهما، أطفـــأ الأنوار وأغمض عينيه ودس أنفه فى شعرها وأخذا فى التلاشى .

(٦)
كيمياء الحب

للقلـــب بوابـــات تنفتح وتنغلق دون إرادة منا، بل كل حركة القلب خارجـــة عـــن نطاق التحكم الإرادي، فالقلب يدير شئونه بنفسه منذ لحظة خلقـــه وحتى لحظة الممات . بداية التعرف على أن المضغة تشكلت إنساناً هى أن يكون لها قلب يدق وأحد مؤشرات موت إنسان أن يتوقف هذا القلب عن الحركة، وما بين اللحظتين يظل القلب يعمل بدون كلل . وهو المصدر الأساســـى للحـــياة، فـــبدونه لا يذهب الدم المشبع بالغذاء والأكسجين إلى الخلايـــا، وبدونه أيضاً لا يعود الدم إلى الرئتين، ليعاد تزويده بالأكسجين، جمـــيع أجهـــزة الجسم تستريح بعض الوقت، أى تأخذ اجازة، إلا القلب . ولهـــذا احتل القلب مكانة سامية فى القرآن الكريم . واستخدمت كلمة القلب فى اللغة العربية كدلالة على الجوهر .

والاكتـــئاب نشـــعر بـــه حين يعتصر القلب . والفرح ندركه حين يزغـــرد القلب ويرقص، والطمأنينة ندركها حين يهدأ القلب . وكل ذلك يتم بشكل تلقائى .

تقـــابل إنساناً فتفتح بوابات السرور، وتقابل إنساناً آخر فتنغلق هذه الـــبوابات وينفـــتح بدلاً منها بوابات الرفض والنفور . إنسان ينجح فى أن

يغزو قلبك رغماً عن إرادتك، وإنسان آخر يلفظه قلبك حتى وإن حاول أن يتودد ويستظرف.

مـن علـم القلـب؟ من هداه إلى هذه المعرفة؟ كيف يتعرف على الـناس، ويفـرق بيـنهم، وينتقى لنفسه من يهواه ويبغيه صاحباً وصديقاً ورفـيقاً؟ ومـا علاقـة هذه المعرفة القلبية بنوع آخر من المعرفة نسميه "المعرفة العقلية"؟ وما الفرق بين اختيارات القلب واختيارات العقل؟

مـا أسـعد إنساناً وأنجحه إذا انفتحت له قلوب الناس . وما أتعس إنساناً وأفشله إذا انغلقت أمامه قلوب الناس .

وهـذا هـو السر الأعظم .. سعادة الإنسان فى الحياة تتوقف على مـدى حـب الناس له، أنت بدون حب الناس وقبولهم وترحيبهم لا شئ .. صفر .. عدم .. كأن لم تكن .

أمـا إذا انفتحـت بوابـات القلوب لك، فأنت الملك المتوج، ملكت فحكمت وتحكمت ودانت لك الدنيا، أنت السعيد المحظوظ تأمر فتطاع، وما الأمر إلا أمر الحب والمودة والكياسة والرقة والعذوبة دون أن تضطر إلى صراع أو صراخ أو قتال، أو تخطيط وتدبير ومكر .

وهذا هو ذكاء القلب أو فطنة الوجدان، أو الذكاء العاطفي، وهذا هو سر النجاح، النجاح فى البيت، وفى العمل، وفى الشارع، وفى النادى . أى النجاح فى كل مكان توجد فيه مع إنسان آخر .

تعال نغوص معاً فى أعماق النفس ودهاليزها، لنتعرف على السر، سر النجاح، سر القدرة على غزو القلوب وأسرها.

هـو: إذا قابلـته لأول مـرة تسـتطيع أن تستخلص معظم سمات شخصـيته الظاهـرة، وإذا عرفـته أكـثر ومع مضى الوقت تستطيع أن

تســتخلص صــفاته الباطنة، الانطباع الأول هو أنه إنسان يثق فى نفسه، يمشــى علــى الأرض بخطى ثابتة، يعرف إلى أين يتجه، حركات أجزاء جســده منسجمة مع بعضها البعض، ومنسجمه مع نبرة صوته، وحركات عينــيه، ومحــتوى أفكاره، تشعر بأنك أمام كل متكامل منسجم مع نفسه . وأنــه هو هو نفسه، أى أنه يعبر عن نفسه الحقيقية، لا قناع ولا تمثيل ولا ادعــاء . ولهذا تشعر أول ما تشعر معه بأنه بسيط وصادق. وأكثر شيئين تســتخلص مــنهما هاتين السمتين هما نبرات صوته ونظرات عينيه، وإذا ابتســم ونادراً ما لا يبتسم، فسوف تصدق ابتسامته. أى أنه يعنيها، أى أنها تعــبر عما فى داخله. ابتسامة حنون صافية، إنها ابتسامة بريئة، كابتسامة الطفــل، فهــى ابتسامة توحى بالطمأنينة تجعلك تشعر بالثقة فى صاحبها والثقة بأن كل شئ سيكون على ما يرام .

وإذا تكلــم فبصوت واضح هادئ، لكنه قوى وكلماته دقيقة معبرة، فــإذا أنصت إلى أفكاره، فهى سلسة، سهلة، منطقية، تلمع بالذكاء وتتوهج بالمودة وتزدان بالصدق والأمانة . وإجمالاً فهى أفكار ثرية بناءة .

أمــا إذا اقتربــت منه أكثر، فإنك ستكون فى موقع تستطيع منه أن ترى نوره الداخلي، الذى ينبعث من نفسه الصافية، سترى الخير والرحمة والــبر، سترى التواضع الحق المبنى على التقدير الحقيقى المتوازن للذات مــع الحــرص علــى مشاعر الآخرين واحترامهم، وتقديرهم والاستجابة لاحتياجاتهم، وبذل الجهد الحقيقى المخلص لمساعدتهم إن استطاع إلى ذلك ســبيلاً . وإجمالاً فهو يحمل فى قلبه حباً حقيقياً لكل البشر وللإنسانية، وإذا اقتربــت أكــثر وأكــثر، واســتطعت أن ترى جانباً أو بعضاً من روحه، فســتجدها عامــرة بحب الله، وبإيمان عميق بوحدانيته، واستلهام لكل القيم

الفاضـــلة الـــتى هبطـــت مـــن السماء إلى الأرض، وأختص بها عباد الله المخلصـــون . فى النهاية ستجد نفسك تحب هذا الرجل، وتجد نفسك على استعداد للتعاون معه، وتلبية مطالبه والاستجابة لأفكاره، وستجد أنك لست وحـــدك الـــذى ستفعل ذلك، لكن كل الذين يعرفونه، ولهذا فهو رجل ناجح بتقدير امتياز، بأعلى درجات الحب والشرف .

هـــي: الهواء يحيط بها، كأنما ينبعث من بستان ورد . وهالة النور الـــتى تحـــتويها كأنمـــا تسربت خيوطها من طاقة رحمة سماوية . وجمال قســـماتها كأنما هو توءم لوجه أجمل زهرة أبدعها الله . وليس هو الجمال الـــذى يحـــرك غريـــزة، وإنمـــا هو جمال النفس الصافية والروح الطيبة والمشاعر الودود والسلوك المتوازن .

وهـــى معـــتزة بأنوثـــتها فـــى إطار دور المرأة فى الحياة كشريك مـــتعاون، ولـــيس كمـــناوئ متحد ينتقص من دور الشريك المقابل، وهو الـــرجل، بل الرجل هو محور حياتها، تتكامل معه، لتكوين منظومة الحياة التى حدد الله شكلها وإطارها وفحواها فى كتبه السماوية .

بسيطة غير متعالية ينسجم مظهرها مع ما حدده المجتمع من شكل ومظهـــر للمرأة، وتتزين بقيم فاضلة تستقر بها العلاقات الإنسانية الخاصة والعامـــة. ومهارتهـــا تتـــبدى فى قدرتها على حفظ التوازن الصعب بين واجباتها الأسرية وإسهامها فى عمل منتج أو مبدع خارج البيت.

امرأة بهذه السمات تحظى بحب الناس وثقتهم واحترامهم.

وتلك هى "كيمياء الحب" لها مكونات أربعة:

المهارة والاقتدار وحب الناس وثقتهم واحترامهم.

(٧)
وجهات نظر فى "الخُلع"

مدخل العمارة:

نـــادى علـــيها ففهمـــت . أرجأته إلى ما بعد نهاية الفيلم العربى .. فرشت اللحاف البالى فوق أولادها الثلاثة الذين احتلوا ثلاثة أرباع السرير القـــائم فـــى أحد أركان الحجرة التى لا تزيد مساحتها على ضعف مساحة الســـرير . لحقت به فوق الكنبة وناولته كوباً من الشاى بينما انصرفت هى إلـــى مـــتابعة الفـــيلم بتركيز شديد وكأنما تراه لأول مرة .. وفجأة توقف عـــرض الفـــيلم وأذيع مارش عسكرى ثم أعلن المذيع عن برنامج مهم .. وظهـــرت مذيعة البرنامج وحولها رجلان وامرأتان بينما يجلس أمامها فى صفوف متتالية رجال كثيرون ونساء .. تضايقت لانقطاع الفيلم بينما اهتم هو بالبرنامج المفاجئ الذى يوحى بخطورة الموقف.

قـــيل كـــلام كثير لم يفهم منه شئ وإنما علقت بذهنه كلمة ترددت كثيراً ربما هى الخلع أو ما يشبه ذلك وبالكاد فهم أنها ربما تعنى الطلاق . ســـأم الحديـــث والشـــجار فى البرنامج بينما زوجته كانت قد نامت فحاول إيقاظها ولكنها تظاهرت بعمق النوم فشعر بغيظ ثم حل محله إشفاق لتعبها وأراح رأسها على مخدة وترك الكنبة إلى الأرض وأخلد إلى نوم عميق .

صـــحا على دفعات يدها .. وخرج إلى صلاة الفجر ثم عاد فوجدها قــد أعدت له كثيراً من الفول وقطعة جبنة صغيرة وبيضة مسلوقة .. قال لها وهو يحتسى الشاى : الأولاد مازالوا نائمين .. فهمت مقصده . وأجابت أن الـــبرد شـــديد .. فقـــال وهو يضغط عليها اليوم جمعة ولن يحتاج أحد سيارته مبكراً . ولم تجد فائدة فى مراوغته فاستسلمت ونام بعدها بعمق فلم تشأ أن توقظه وأخذت على عاتقها تنظيف سيارات سكان العمارة ووزعت عليهم الجرائد وقضت بعض حاجياتهم .. نهض مذعوراً قبل صلاة الجمعة بنصف ساعة .. أخذ حماماً على عجل وخرج للصلاة .

الدور الأول:

قضـــى النصف الأول من اليوم فى المدرسة وانطلق بعدها من بيت إلـــى بيت حسب جدول الدروس الخصوصية .. وفى أثناء الحصة الأخيرة وكانـــت الســـاعة تقترب من الثامنة مساء شعر بالجوع لكل شئ .. رؤية أولاده واحتضـــان زوجـــته .. والخضار الساخن مع الأرز ومشاهدة الفيلم العربى القديم .. أسرع فى شرح الدرس وطار متلهفاً لبيته .

حمد الله أن الأولاد لم يناموا بعد .. صلى العشاء وجلس إلى مائدة الطعام فى انتظار العشاء . وطال انتظاره فنادى عليها ولكنها أمهلته لحين جمـــع الملابـــس المنشـــورة على الحبال لأن الجو ينبئ بمطر . واستغرق الأمـــر نصف ساعة تقطعت فيها أحشاؤه فنهض مغاضباً معلناً إياها أنه لن يتـــناول طعامـــاً مـــن يديها .. بعد اليوم .. أقبلت ضاحكة وقالت أفزعتنى ســـأنتحر إذا نفـــذت تهديدك .. عادت بالعشاء خضار ولحم وأرز وفاكهة طمأنته على مذاكرة الأولاد .. إلا أن الابن الكبير كانت درجاته ضعيفة فى الرياضيات وهذا يعنى فعلاً أن باب النجار مخلع لأنه هو نفسه كان مدرساً

للرياضـــيات، هددتـــه إن هو لم يوفر وقتاً لابنه ستستقدم له مدرساً خاصاً ويصـــبح الأمر شبه فضيحة . لم يرد عليها واستمر فى التهام الطعام بلذة فائقة .. لم تتوقف عن الكلام منذ أن بدأ طعامه حتى أنهاه مارة بالجيران ثم بأهلهـــا ثم بأهله وانتهاء إلى ما يكتب فى الصحف باستفاضة عن موضوع الخلـــع .. ولم يكن هو يتابع الموضوع باهتمام .. وسألها عن سر اهتمامها بهـــذا الموضوع فقالت ضاحكة: ربما أستفيد منه .. فرمقها بغيظ ليستبين مدى جديتها وليتعرف على حجم الحقيقة فى قولها .. جلسا قبالة التليفزيون على مقعدين مريحين ومتلاصقين بما يسمح ليده أن تطالها بسهولة فى أى وقت يريد .

تابعـــا الفيلم باهتمام وكأنما يشاهدانه لأول مرة .. ومن حين لآخر يمد يده ناحيتها فتدفعها بحزم حتى لا يفسد عليها المشاهدة .. وفجأة توقف إذاعة الفيلم وأعلن المذيع باهتمام وحماسة عن برنامج لمناقشة قضية الخلع وكأنـــه يذيـــع إعلان الحرب وبضيق شديد نقلت المشاهدة إلى قناة أخرى كانـــت تذيـــع فـــيلماً أجنبياً فاقترح عليها أن يذهبا للفراش ليناما .. ففهمت مـــراده .. وإمعانـــاً فـــى إغاظته أصرت على الاستمرار فى متابعة الفيلم الأجنـــبى .. فأغلق التليفزيون عنوة .. وشدها من يدها ودفعها إلى الفراش .. وبيـــنما هى فى قمة سرورها سمعها تردد كلمات مضغومة فاستوضحها ما تقول .. كنت أقول: خلع إيه اللى بيقولوا عليه .

الدور الثانى:

عاد إلى وطنه للاستقرار النهائى بعد غيبة عشر سنوات لم تقطعها إلا الإجازة السنوية لمدة شهر كل عام، وفى بعض الأعوام كان يقضى أيام العيد معهم .. ومعهم هذه تعنى أسرته: زوجته وابنتيه وولده .. ومن عرق

السنوات العشر استطاع أن يؤسس شقة مكدسة بالأثاث والأجهزة وأن يمتلك مثلها على أحد الشواطئ وأن يشترى لنفسه ولزوجته سيارتين وتبقى مبلغ لا بأس به وضعه فى أحد البنوك ليهزم به غول الزمن إذا حاول الاقتراب منه.

كانت عودته النهائية اضطرارية للاستغناء عنه .. وكان من الصعب أن يجد عملاً ملائماً فى وطنه وقد تقدم به العمر أما الزوجة التى تعمل فقد ضاقت ببقائه المستمر فى البيت . وأما الأبناء فقد ضاقوا بتدخله المستمر فى شئونهم الخاصة واستمرت النار مشتعلة فى البيت يتلظى الجميع بها وتحول الضيق والتبرم إلى مواجهات حادة .. وحاول أن يسافر للعمل بالخارج مرة أخرى هرباً ولكنه لم يوفق واستسلم .. ولم يجد بداً من تقديم التنازلات وكانت التنازلات كثيرة ومجحفة وأهمها أنه ليس من حقه أن يسأل متى سيذهبون ومتى سيعودون وأين سيكونون .. وفى محاولة لاسترضائهم كان يغدق عليهم .. وعرفوا كيف يستدرجونه حتى استولوا على كل ما عنده .. وكانت المعاملة الطيبة مقرونة بقدر ما يعطى .. فلما نفد ما عنده أعلنوا عصيانهم التام وقبل هو رضوخه التام .

وبلا مقدمات تشى بمنطق طلبت زوجته الطلاق .. أو بالأصح طلبت منه أن يغادر البيت لأن الحياة معه أصبحت مستحيلة .. ولما استزادها إيضاحاً قالت له إنها كرهته واستغاث بالأبناء . وقف الابن موقفاً سلبياً .. أما الابنتان فأيدتا أمهما استناداً إلى أن هذا من حقها إذ كيف تعيش زوجة مع رجل لا تحبه .. ونصحه أصدقاؤه بالصبر والمقاومة وتلكأ فى تنفيذ طلبها .. حتى عاد يوماً إلى البيت فرأى الفرحة بادية على وجوه الجميع فسر خاطره واطمأن إلى أن الحال قد تنصلح .. إلا أنه عرف بعد

ذلـــك سر الفرحة التى ملأت بيته وهو أن الخلاص منه أصبح وشيكاً عن طريق الخلع .

الدور الأخير .. فيلا أعلى العمارة :

فى نهاية السهرة وانصراف الضيوف أظهر لها امتنانه لنجاح أكثر مـــن صفقة تمت أثناء العشاء ولتأكيد أكثر من صداقة ستدر عليهم فيما بعد خـــيراً كثـــيراً، قـــبلها، واتجهت هى إلى غرفتها بينما جلس هو فى البهو يسترجع انتصارات الليلة مستكملاً شرابه الذى بدأه فى أول السهرة .

اســـتيقظت هـــى بعد ظهر اليوم التالى بينما سافر هو إلى الخارج بضعة أيام لإنهاء عمل.

وبقلـــب بـــارد، وبدافع حب الاستطلاع لا أكثر اتصلت بسكرتيرته وتـــأكدت من عدم وجودها وهذا يعنى أنها رافقته فى رحلة عمله.. شعرت بســـخونة فـــى منتصف رأسها سرعان مازالت واستعادت هدوءها ونسيت الأمر تماماً واستعدت لسهرة وعدها بها صديقها بمجرد أن يسافر زوجها.. عادت من سهرتها سعيدة .. قابلتها ابنتها الكبرى ذات العشرين عاماً وهى تدلـــف إلى داخل الفيلا .. وكانت قد سبقتها فى العودة بوقت قليل .. تبادلتا تحية المساء أو بالأصح تحية الصباح وذهبت كل منهما إلى غرفتها .. فى ظهـــر الـــيوم التالى سألها ابنها أين كانت بالأمس فلم ترد عليه فسبها فى شرفها.

عاد الزوج بهدايا كثيرة لزوجته .. شكرته من قلبها .. شكت ابنهما له فنهره وأمره بألا يتدخل فى شئون أمه فترك البيت مغاضباً واختفى لمدة أسبوع.

وفــى لــيلة استثنائية نادرة قررا البقاء فى المنزل .. ولم يجدا إلا التليفزيون لقتل الوقت الممل .. وجاء برنامج عن الخلع .. فانتقلت إلى قناة أخرى .. فسألها لماذا لا تتابع هذا البرنامج المهم .. فقالت له فى دلال: أنا لا أريد أن أنخلع منك يا حبيبى.

(٨)
علاقة زوجية فاشلة

غـادر الفـراش مكسـور الخاطر بعد أن طلبت منه أن يكف عن محاولاتـه الفاشـلة التى تكررت أكثر من مرة على مدى شهر، اتجه إلى حجـرة الصـالون وارتمى على كرسى وثير غاص فيه إلى أعماق سحيقة تحـت الأرض وكأن الله قد استجاب إلى دعوته بأن تنشق الأرض وتبتلعه فـى كل مرة يفشل فيها، واستمر فى جلسته أربع ساعات حتى ملأ ضوء الـنهار جنبات الحجرة، وفى خلال هذه الساعات استعاد شريط الخيبة منذ أن بدأت لشهر مضى لعله يجد سبباً لما أصابه .

كـان قـد قرأ أن هذا الفشل يصيب كثيراً من الرجال على مرات مـتفرقة متباعدة بدون سبب واضح وسرعان ما يعودون بعدها إلى سابق عهدهم أما حين يطول الأمر وتتعاقب المرات فإن علة ما تكون وراء هذه المصيبة .

حـاول أن يـتذكر تفاصيل أول ليلة من ليالى الفشل حين عاد من عملـه المسائى قبل منتصف الليل بساعة متجاوزاً موعده المعتاد بساعتين، رمقته بنظرة مشبعة بالشك جعلته يشعر بالإثم رغم أنه برئ من كل سلوك شـائن، أعد لنفسه العشاء بينما كانت هى منشغلة بكتاب سرعان ما تركته

وذهبــت إلـــى الفراش، أنهى عشاءه بسرعة ولحقها فوجدها نصف نائمة، أراد أن يكفـــر عن خطأ لم يرتكبه فأخذ يداعبها مستحثاً إياها على اليقظة والتهــيؤ لممارسة الحب، أبعدته بدفعة من يدها لا تخلو من عنف وأدارت ظهـــرها موليـــة وجهها صوب الحائط الملاصق للفراش من أحد جوانبه، ولكن نظراً لأن هذا كان أسلوبها المعتاد فى مثل هذه اللحظات فإنه استمر فى مداعباته رغم دفعات يدها المتكررة، وأخيراً أعلنت أنها موافقة بشرط أن يراعى أن الوقت قد تأخر وأن لديها عملاً فى الصباح عليها أن تنهض مـــن أجله مبكرة، وفجأة انسحبت منه حيويته، وحاول أن يستردها بمعاودة المداعبة ولكن أبداً لم يستجب جسده وتجمدت أطرافه وقد سبقتها أحاسيسه بالـــتجمد، شعر بجسدها وكأنه تمثال فى متحف الشمع، تعطل كل وجدانه الـــذى عـــوده أن يكـــون مشتعلاً فى مثل هذه اللحظات وناحية هذه المرأة بالذات رغم الإزعاج الذى تسببه له فى حياته، واستعان بأخيله من مواقف معهـــا كانـــت إيجابية ناجحة ولكن الخيال كان يتطاير من عقله مثل تطاير الكحول غير ممكن إياه من تكوين صورة مثيرة تنفعه فى شد أزره.

تصـــبب مـــنه العـــرق، وارتج كل جسده من الداخل، ورغم ظلام الحجرة فإنه أحس بنظرتها الساخرة ولم تنطق وعاودت نومها .

ورغـــم ســـخونة أحـــداث اليوم التالى فإنه لم ينس للحظة ما حدث بالـــبارحة، فكر فى أن يستشير صديقاً أو حتى طبيباً ولكن حياءه منعه من ذلك .

عـــاد فـــى المســـاء مبكراً عن موعده فوجدها منشغلة بحديث عبر التلـــيفون مـــع صديقة لها استمر نصف ساعة بالرغم من نظراته لها بأن تنتهـــي، دعاهـــا للعشاء معه فأعلمته أنها لا ترغب، وبمجرد أن دخلا إلى

الفراش، وثب عليها كما يثب الأسد على فريسته، ورغم أنها عادة لا تحفل ولا ترحب بمثل هذه اللحظات إلا أنها فى هذه الليلة أتاحت له أن يقدم دون أن تــبدى تمــنعاً وكأنها- هكذا شعر- تريد أن تمتحنه هذه المرة بعد فشل الأمس، وتكرر فشله . هكذا أعاد التاريخ نفسه بسرعة غير متوقعة، ولكن فــى هــذه الليلة تكلمت، نصحته ساخرة بأن يعالج حتى لا يكرر إزعاجها دون فائدة .

وبصدقه المعتاد وعدها بذلك، وذهب فعلاً إلى الطبيب المختص فى الــيوم الــتالى مباشــرة وعــاد إلــى البيت محملاً بمجموعة من العقاقير الموصــوفة من الطبيب الذى نصحه بالتردد عليه يومياً لعشرة أيام متتالية لتدلــيك البروســتاتا، أطاع رغم شكه فى دقة تشخيص الطبيب فعلى مدى علمه المحدود فمشاكل البروستاتا لا تبدأ إلا بعد الخمسين وهو لم يكمل بعد الأربعيــن مــن عمره. ولم يسفر العلاج عن شئ، وهاهو يفشل هذه الليلة أيضــاً رغــم تأكــيد الطبيب له بأنه سيكون كالسبع، ونقل لها هذا التأكيد فأعطته الفرصة ليحاول.

صخب طفليه وهما يستعدان للمدرسة أيقظته من غفوة قصيرة رأى فــيها ثعباناً يلتف حول عنقه، نزع نفسه من الكرسى الوثير الذى غاص به فى ظلمات اليأس، قرر أن يزور نفس الطبيب ليعلمه بفشله، ضحك الطبيب وطمأنه أن هذا معناه خلوه من المرض العضوى وأن الحالة نفسية ونصحه بــزيارة الطبيب النفسى . أطاع من فرط يأسه رغم عدم اقتناعه بأن أسباباً نفسية ممكن أن تكون وراء الفشل الجنسى وخاصة فى مثل حالته فهو كما أوضــح للطبيــب النفسى فى أول لقاء لا يعانى أية حالة نفسية، مؤكداً أنه يتمتع بكامل قواه العقلية .

واستطاع الطبيب النفسى بسهولة أن يتبين أنه لا يعانى أى مرض نفسى أو عقلي، ولكن هناك مرضاً آخر هو المسئول عن المشكلة الجنسية، هذا المرض هو العلاقة بين الزوج والزوجة .

وأصر الطبيب على أن يلتقى مع الزوجة أيضاً، فجاءت على مضض، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليكتشف أن المشكلة تبدأ من عندها، أى من عند الزوجة . وكان لابد من المواجهة والمصارحة، ولكن بكياسة ودون إلقاء اللوم على أحد من الطرفين حتى لا يشعر بالغضب وينسحب من العلاج .

قال لهما الطبيب: أى فشل زوجى هو مسئولية اثنين، أى أنتما معاً، أنتما فشلتما معاً فى بث الدفء فى علاقتكما، الزواج ليس هو الفراش، الزواج حياة كاملة، علاقة الفراش تشكل دقائق معدودة فى هذه الحياة، وهى – أى العلاقة الجنسية – تتويج لمشاعر إيجابية بين الزوجين .

أنت يا سيدتى تهملين زوجك، وأنت ياسيدى تتصور أن العلاقة الجنسية هى خير ترضية للزوجة .

سيدتى:

الزوج يريد أن يشعر بأنه أهم إنسان فى العالم لدى زوجته، بأنه محور حياتها، تنتظره بشوق، تشاركه طعامه، إذا دعاها للحب تتلقف دعوته بالفرح وتظهر قبولها بسعادة، إن تلامس الأرواح يجب أن يسبق تلامس الأجساد .

أنت يا سيدتى وضعت الزوج على هامش حياتك، يبدو أن هناك أشياء كثيرة فى حياتك تأتى فى المقدمة، وتدريجياً زحفت البرودة إلى مشاعرك وانتقلت إلى مشاعره، تجمدت أحاسيسه فتجمدت حواسه، فلم يعد

قـــادراً على الإحساس بك كامرأة، مثلما مات من قبل إحساسه بك كزوجة، أصبحت بالنسبة له صفراً مثلما أصبح بالنسبة لك صفراً .

وهـــذا التلاشـــى للمشـــاعر ســـببه الغفلة، الإهمال،الكسل، الملل، الروتين، وهذا نوع من أنواع الغباء العاطفى .

الإنســـان الذكى عاطفياً هو الذى يعرف كيف يحافظ على مشاعره متقدة ويعرف كيف يبث الحماسة والدفء فى مشاعر شريك حياته .

الإنســـان الذكـــى عاطفـــياً هو الذى يرعى شجرة الحب بالاهتمام فـــيرويها بالكلمـــات الطيبة، والبسمات الحنون، والأفكار المتجددة التى لا تخلو أيضاً من روح المرح .

العلاقـــة الزوجية تحتاج إلى جهد إيجابى لا أن نتركها تمضى بقوة الدفع الذاتى.

إذا نعمت الأرواح بالانجذاب العاطفى نعمت الأجساد بالحيوية .

بـــدا على الزوجة اقتناع بأن جفوتها قد تكون أحد أسباب المشكلة، وبدا على الزوج الاقتناع بأن غباءه العاطفى هو أحد أسباب المشكلة .

وبـــدون أن يســـتمرا طويلاً فى الجلسات النفسية عادت الروح إلى علاقتهما، فنعما فى البداية بإشباع عاطفى تبعه بزمن قليل الإشباع الجسدى.

وتصبح المعادلة كالتالى:

زوجة جافة + زوج غبى عاطفياً = علاقة فاشلة .



(٩)
هذا الزمان

١ -الشقيق:

طبعــت الشــمس قبلــتها الأخيرة على الأرض ورحلت وأفسحت المجــال للظلمـــة الزاحفة حتى تعذرت الرؤية، ومن حين إلى آخر يضئ مصـــباح داخل بيت من البيوت المتواضعة المتراصة عشوائياً على جنبات القرية المتشحة بالسواد، والمنتفخة بالأسرار.

وكلمـــا أضاء مصباح أزاح قدراً يسيراً من الظلام فتصبح الحركة داخـــل القرية ممكنة ويصبح من الممكن أيضاً رصد هذه الحركة، وحركة اللـــيل غـــير حركة النهار، الليل ستار والنهار فضاح، والمضطرون لستر أفعـــالهم وحـــركاتهم يتحاشون الليالى المقمرة سواء إذا سلكوا الدروب أم قفـــزوا الأســـوار التى تفصل البيوت المتلاصقة من أسفلها والمنفتحة على بعضها من أعلاها.

فـــى هذه الليلة بالذات تنافست البيوت فى إضاءة مصابيحها وأصر القمر على عدم حماية من يريد أن ينجو من فضيحة، ولكن الرجل استبدت بـــه الرغبة مثلما استبدت بصاحبته فتواعدا على اللقاء رغم كل عوامل اللا أمان، انتقل ككلب مدرب على القفز من سطح بيته إلى سطح بيتها، وهبط

إلـــى صحن الدار مهتدياً بخبرته السابقة وعرج من باب نصف مغلق حيث ترقد حيوانات صاحب الدار آمنة وادعة .

قـــبع ينتظر غير قلق حيث تعيش المرأة وحيدة مع أطفالها بعد أن سافر الزوج إلى بلاد بعيدة لجمع المال، جاءته المرأة بعد وقت طال بفعل البرد والظلام والترقب واللهفة، فاشتعل المكان بفعل حرارة الرغبة، تركها وعـــاد من حيث أتى، ونام، وعند الفجر أيقظته أمه فاستحم وتوضأ وذهب إلـــى الجامع، وحين عودته كانت الشمس قد احتضنت الأرض متمكنة من كل أطرافها وأصبح من الممكن أن يأتى الناس البيوت من أبوابها .

طرق الباب ففتح له ابن شقيقه الغائب، جاءت ربة الدار فتبادل معها نظـــرات الامتـــنان والرضا والوعد بأوقات هناء أخرى متاحة لحين عودة شـــقيقه مـــن الغـــربة، لحقت بهم الأم العجوز واجتمعوا حول إفطار بسيط اشـــتمل أساساً على الجبن القديم واللبن الرائب والخبز المقدد ضم الزوجة الآثمـــة والشـــقيق الآثـــم وأبناء الشقيق الغائب وبمباركة الأم العجوز، ثم انسحب الرجل جاراً البهائم خلفه إلى الحقل حيث يرعى مصالحه ومصالح شقيقه .

٢-الصديق:

حـــول بيـــت الله التقى به، منذ ثلاثين عاماً جمع بينهما الحى القديم والمدرســـة، زمالة لم ترق إلى صداقة ولكن الملامح ظلت عالقة بالذاكرة ســـاعدت علـــى ســـرعة التعارف رغم فرقة سنين طويلة، وساعدت على سرعة التواصل الغربة والوحدة والهموم المشتركة التى تتركز أساساً حول الاشـــتياق للوطن والزوجة والأولاد والرغبة فى العودة والاستقرار النهائى والذى لا يمكن الوصول إليه إلا بعد تحقيق الحلم .

آه الحلـم، مـتى يتحقق، ليس قريباً وليس بعيداً، أربع سنوات فى الغربة لم يزر فيها الوطن إلا مرتين توفيراً للنفقات لاختصار زمن تحقيق الحلـم، والحلـم بسيط ولكنه كبير كبير، بناء بيت واستكمال مهر الابنتين وقليل من مال يدخر ليتحقق منه ربح حلال .

وتحولـت زمالـة الغربة إلى صداقة، والصداقة توجب الفضفضة، والأشواق تجعل الحديث يدور حول الأحباء، الزوجة والبنتين وأيضاً الحلم، والـثقة تعمقت لأن صديقه الجديد شديد التدين، ذقنه يكاد يلامس الأرض، وجبهـته تلونـت من شدة احتكاكها بالأرض، وتعددت فيها البروزات التى تكشـف عـن ورعه وتقواه، ولذا لم يقلق حين أعطاه بعض المال والهدايا ليحملها إلى بيته أثناء زيارته للقاهرة فى اجازة .

أمـا صاحبنا الذى نحكى عنه فإنه فضل أن يبقى بالأراضى الطيبة توفيراً للمال وإسراعاً لإنجاز الحلم .

ومـثلما استراح هو لهذا الرجل استراحت له الزوجة أيضاً، رجل يخشى الله فكيف تخشاه .

وكـثرت زياراتـه للبيت الذى حرم من صاحبه لأكثر من عامين، وازداد ارتـياح الـزوجة فهـو أخ فى الله، وأحبته الطفلتان لما تحمله يداه وجـيوبه بما تحبانه، وعند سفره تقطعت القلوب، ولكنها – أى الزوجة – أقصـد زوجـة صـاحبنا لم تنس أن تحمل الصديق الخطابات والسلامات لزوجها .

وتعـددت زيـارات الصديق للقاهرة وبالطبع تعددت زياراته لبيت صديقه– أى أخيه فى الله – ومضى عامان وربما أكثر، واكتمل بناء البيت، وتحقـق قـدر كبير من الحلم يسمح لصاحبنا بأن يعود إلى وطنه، وهى لم

تكن عودة اختيارية بالكامل حيث إن الأحوال تغيرت ولم يعد هناك ترحيب كامل بوجوده.

ولـم تـزعجه العـودة شبه الاضطرارية وغير المصحوبة بمودة العـرفان بالجميل لإخلاصه فى العمل، ولم يكن نادماً فهو عائد إلى حيث مودة الزوجة الحبيبة.

وكـان الاسـتقبال جافـاً وحاسماً منذ اللحظة الأولى، وقرأ السؤال واضـحاً فى عينى زوجته: لماذا عدت؟ ثم قرأ فى نفس العينين شبه أمر: عد من حيث جئت.

ولمـا استفسر بجزع، ثم بحدة ثم بغضب أعلنته بأنها تريد الطلاق، ونصحه صديقه بأن يذعن، فلا رجولة فى إبقاء زوجة كارهة.

وحين الاتفاق وفك الاشتباك وتنسيق الحسابات طلبت منه أن يغادر هـو البيت، وحين سخر من قولها متحدياً أن البيت بيته، من ماله الخاص والشاهد على ذلك صديقه الذى يتقى الله ويخشاه أعلنته بالمفاجأة الكبرى أن البيت مسجل باسمها.

وبعـد ثلاثـة أشهر بالتمام والكمال عقد قران السيدة المطلقة على صديق زوجها السابق.

أما الزوج السابق فلم يجد باباً مفتوحاً إلا باب العيادة النفسية لتثبيت ما تبقى من عقله.

(١٠)
الطعم المر

إذا كتم الإنسان اندهاشه ولم يفصح عنه لأحد فهذا معناه أنه يقف أمام ظاهرة غريبة أو بعبارة أدق ظاهرة يصعب تصديقها أى خارج نطاق الخبرة الإنسانية العامة، أو أنها ظاهرة خارقة للقوانين، فالكون تحكمه قوانين ثابتة اكتشفنا بعضها لكن مازال الكثير منها مطوياً فى عالم الأسرار وذلك تأكيداً للقول الكريم: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" فى هذه الحالة نقبل الظاهرة ولا نسأل عن تفسيرها . وهى لا تصبح ظاهرة إلا إذا اجتمع الناس على وجودها.

ولهذا فمصطلح الظاهرة لا يصلح للخبرات الذاتية جداً والتى يتردد الإنسان فى الإفصاح عنها خشية أن يتهم بالشذوذ ولذلك يظل يكابد الحيرة والوحدة، والوحدة ليست معناها أنك تجلس وحيداً، لكن هى الانغلاق على الخبرة الذاتية وعدم الاطلاع على خبرات الآخرين . إنها فقد التواصل فى الأمور الفريدة والخاصة جداً . قد تكون حياتك مليئة بالناس ولا تكف عن اللقاء بهم والتحاور معهم ليل نهار ورغم ذلك تشعر بالوحدة وذلك لأنك حين تلتقى بهم لا تتحدث معهم إلا حول كل ما هو مألوف وشائع وعام . أى تتحدث بصوت مرتفع . أن تحرم من أن تهمس . ففى الهمس خصوصية وسرية . ففى الهمس تنتقل من المألوف إلى النادر ومن

المعــروف إلــى المجهول ومن المعتاد إلى الغريب ومن العام إلى الخاص ومــن المتداول إلى السري. حين الهمس تزول المسافات وتمتزج الأنفاس وتــتقارب الأبدان حتى تكاد تتلامس – وفى الهمس تسمع كلمة "أنا" تتردد كثيراً وأيضاً تسمع العجب الذى يدعو للاندهاش فنسمع عبارة "وهل هذا معقول!!" أو عبارة "هذا أمر لا يصدق!!" أو تسمع كلمة "ياه" أو تخرج من الصـــدر عبر الحنجرة شهقة أو تسمع عبارة تتردد بعد كل مقطع "سبحان الله" أو "يخلــق ما لا تعلمون". هكذا يتلاشى الشعور بالوحدة إذا كنت قادراً على الاقتراب إلى هذا الحد من الآخرين حتى ولو كنت تلتقى بإنسان واحد ولــو لساعة واحدة بعيداً عن زحام البشر .. الزحام لا يقضى على الشعور بالوحدة لكنه الالتقاء حتى بإنسان واحد بشرط أن تتهامسا .

وإذا أردت أن تضــــع تعــريفاً للحــب أو حتى الصداقة فهى تبادل الخصوصيات خاصة ما غمض منها . هى أن تكون قادراً على أن تفصح عما بنفسك دون تردد أو خجل . هى القدرة على التشارك فى الاندهاش مع آخــر . هى الكشف الذاتى دون مواربة أو تغطية . أما كشف العورة (ولا أدرى لمــاذا ســميناها عورة) لا يكون إلا مع أقرب الأقربين وهو أو هى شــريك الحــياة .. مع هذا الشريك تسقط كل الستائر والحجب وتنهار كل الحواجــز وتــنعدم المسافات وتلتصق الشفاه بالأذن وحتى دون أن تلتقى الشــفاه بــالأذن فإن الحوار دائم حتى فى ظل الصمت وما أعمق وأشمل الحــوارات غير اللفظية حين يتعلم الإنسان فن قراءة الوجه .. وجه واحد فقط .. وجه صديقك أو حبيبك أو زوجك .. وبالأخص زوجك .. إذا انعدم مثل هذا النوع من القراءة فى الحياة الزوجية فأنت تعيش وحيداً فى القطب الجليدى .

وصـــاحبتنا منذ صغرها كانت تعانى حالة غريبة ظنت أنها الوحيدة الـتى تكابدها وهى أن كل شئ كان له طعم . طعم خاص تشعر به داخل تجويفهـا الفمى مشتملاً على لسانها وما يحويه من أعصاب حسية للتذوق وذلـك دون أن يلامس فمها شئ . وقد تتصور أن ذلك كان مقصوراً فقط علــى الأطعمـــة أو الأشياء التى قد تلامس اللسان لأى سبب، وبذلك يكون تذوقها عن بعد هو ضرب من ضروب التخيل . ولكن الأمر كان أبعد من ذلك . إن الأشياء المعنوية أو غير المادية كان لها طعم أيضاً .. أى كانت تـتذوقها وكأنها كانت تلامس شعيرات حاسة التذوق المنتشرة على اللسان وفى التجويف الفمى .. وهذا معناه ببساطة أن المعنويات قادرة على إثارة نشـاط فسيولوجى من نوع خاص . هذا معناه أن الحواس من الممكن أن تستثار إلى حد الإدراك العقلى دون وجود مؤثر مادى . فالعين ترى أشياء غير موجودة والأذن تسمع كلمات غير منطوقة وكذلك الأنف تشم واللسان يـتذوق والجلد يحس وذلك دون مثير خارجى . أو فلنكن أكثر دقة فنقول دون مثير مادى خارجى . وإنما المثير قد يكون معنوياً .

ولنقـترب أكـثر من صاحبة المشكلة لنعرف أكثر لأن الأمر كما وصـفناه قد يجعلك تشك فى أننا أمام ظاهرة مرضية تعرف باسم الهلاوس .. وفـى هذه الحالة المرضية يستقبل الإنسان أشياء بحواسه دون أن يكون لها أى وجود مادى فى نطاق الحواس .

صاحبتنا ليست مريضة . لكنها مستبصرة وتدرك أنها تعانى حالة غريـبة ولذا تكتمتها فى صدرها ولم تدل عليها أحد حتى أقرب الأقربين . فمثلاً هى تتذوق الأشخاص فلكل شخص مذاق خاص . طعم مميز . وكذا المواقـف والأحـداث تثـير لديها أحاسيس تستشعرها بحاسة التذوق . بل

الأفكـــار والألحـــان أيضاً لها طعم . وباختصار فإن كل حدث وكل معنى وكل شخص له مذاق .

وأى مـــذاق فإنـــه يقـــود إلـــى إحساس ما إما بالتقبل أو النفور .. الاستحسان أو التقزز .. الاستمتاع أو الغثيان .. بل إن بعض الأشخاص أو المواقف أو الكلمات أو النغمات تبعث على التلذذ التذوقى الحقيقى أو تبعث على القيء .. نعم القيء .. فهى كانت تتقيأ أحياناً حين ترى شخصاً معيناً أو تشـــاهد منظراً معيناً أو تسمع كلمات معينة . فتندفع لتختفى فى مكان لا يراها أحد وتخرج منديلها لتتلقى فيه محتويات معدتها التى تتلوى بالألم .

كانت هذه هى حال صاحبتنا . ولذا فإننا نستطيع أن نقول من قبيل المـــزاح أنهـــا كانـــت تصادق بلسانها وتحب بلسانها وأنها أيضاً تزوجت بلســـانها حين استساغت الشخص الذى تقدم للزواج منها بالطريقة التقليدية وكان مهندساً متوسط الحال .

ومتوســـطية الحـــال معناها محدودية الدخل وبالتالى عدم الحصول على كل ما يتمناه المرء من أشياء إلا انها كانت متعودة على هذا المستوى المتوســـط، لأن حال أبيها كانت أقل من المتوسط إلا أنه كان لحياتها مذاق جمـــيل تعودت عليه .. بل إن محدودية الدخل جعلت لكل شئ طعم جميل نظـــراً لحالة الاشتياق والتمنى .. وشئ ما جعل حياتها مع أسرتها – وقبل زواجهـــا – حلـــوة الطعم . كان لها طعم السكر وخالية من أى مرارة .. وحين نضجت واستوعبت الدين فى عقلها مثلما استوعبته فى كيانها أدركت ســـر الطعم الرائع لحياتها مع أبيها وأمها .. السر كان يكمن فى أن المال الذى كان يأتى به الأب إلى البيت كان حلالاً صافياً . حقاً إن للمال الحلال مذاقـــاً خاصاً يبعث على السرور . أصبحت تردد هذه العبارة كثيراً خاصة

بعـد أن كسـت المـرارة كـل لسانها وتجويفها الفمى ممتداً إلى بلعومها وواصـلاً إلى معدتها وباعثاً على الألم والغثيان بعدما تشككت فى مصادر ثروة زوجها .

ونعود إلى منتصف القصة لنعرف كيف تبدل مذاقها للحياة .. كنا قد قلنا إنها تزوجت مهندساً متوسط الحال . لكن فجأة وبدون توقعات أو بدون تطـور طبـيعى كثر المال بين أصابعه. وكان كريماً فأغدق عليها وعلى طفلـيهما . وأرجعـت ذلـك إلـى ذكائه واجتهاده . ترك العمل الحكومى واشـتغل بالمقـاولات . وكثر المال إلى حد التخمة، وتم إدراجهم فى فئة الأغنـياء مـع الإرتقاء السريع فى السلم الاجتماعى وأصبحت تحمل لقب زوجـة رجـل أعمال .. وكانت الأموال تتضاعف بشكل سريع يخرق كل القوانيـن الحسـابية مما آثار قلقها وانعكس ذلك على حاسة التذوق عندها فـبدأت تفقد طعم كل شئ ثم استحالت حيادية التذوق إلى مرارة بدأت فى الازدياد التدريجى خاصة كلما رأت زوجها، وتصل إلى قمتها كلما عاشرته جنسياً .. اندهش لذلك التحول .. وحاولت أن تربط بين هذه المرارة وبين أى متغيرات فى حياتها فلاحظت أن درجة مرارتها تزيد كلما أطلعها على التضخم فى ثروتهما وكذلك كلما أتى لها بشيء ثمين . شئ ما كان يتسرب إلـى صـدرها مبـتدئاً مـن عـند لسانها . حالة من القلق الخفى وربما اللاشعورى غير المدرك مباشرة حول سلامة هذه الأموال .. مجرد شكوك .. ولذا فالمرارة لم تبعث بعد على الغثيان والقيء .

لم تجاهر نفسها بالسؤال بل لم يظهر السؤال واضحاً ومباشراً على شاشـة العقـل الواعي. بل كان مخفياً فى ثنايا ودهاليز العقل الباطن . من أيـن يَجِـئ زوجـى بهذه الأموال؟ أنأكل من حلال أم من حرام؟ غير أن

الأسـئلة المـثارة على مستوى العقل الباطن لا يمكن تجاهلها فهى تحدث أثرها فى الإنسان لكن دون أن يدرك مصدر هذا الأثر .

ورغـم أن عقلهـا الواعى لم يشارك فى الأمر إلا أن المرارة التى علقـت بلسانها دفعتها للبحث والتنقيب والاستقصاء حتى جاء اليوم الأسود وعرفـت أن مصادر ثروة زوجها ليست نظيفة . والمصادر غير النظيفة مـتعددة كـالغش والنصب والاستغلال والابتزاز والاتجار فى المخدرات والقوادة والسرقة . وحاولت أن تدقق أكثر فعرفت أنه يغش فى بضاعته .

وكأى حدث مفجع يأخذ حجم المصيبة فإن الإنسان يصاب بالصدمة.. والصدمة معناها التوقف عن التفكير والإحساس والحركة . يصبح الإنسان كالمـنوم مغناطيسـياً يتحرك بصورة آلية.. وتصاحب ذلك حالة من التبلد الوجدانـى . أى لا مشاعر على الإطلاق تجاه أى شئ . وهى أشبه بحالة الذهـول . والذهول هو حالة وسطى بين الوجود وعدم الوجود .. الإدراك وعدم الإدراك .. حالة ما بين اليقظة والنوم . ثم يفيق الإنسان من الصدمة إلى الثورة والغضب فيحطم كل شئ من حوله . ثم يدخل فى مرحلة الحزن وفـيها يتمزق كل داخله ويتلوى من الألم وتنهمر دموعه ويضطرب نومه ويفقـد شـهيته ويهـزل حـتى يكاد يموت . ثم يخرج منها إلى حالة من الاستسلام والتقبل .

إلا أن صاحبتنا لم تمر بهذه المراحل وهذه إحدى عجائبها .

شـئ واحـد فقط حدث . شئ غريب يأخذنا إلى أقصى درجات الدهشـة إلـى حد عدم التصديق . شئ ضد قوانين الأشياء الطبيعية التى تعـارف عليها البشر منذ أن وجد الإنسان على الأرض وتشكل له وجدان وإحساس وإدراك وفهم . لقد حدث لهذه السيدة شئ أشبه بانعكاس الجاذبية

الأرضية فتصبح إلى أعلى فى اتجاه السماء بدلاً من اتجاهها إلى أسفل فى اتجـاه الأرض . هذا تقريباً هو أقرب تشبيه لحالتها أو للتغير الذى أصابها بعـد أن تيقنت أن المال الذى أنفقته على نفسها وعلى طفليها مأكلاً وشراباً وملبسـاً وتعلـيماً كان مالاً حراماً .. أما الشيء الذى حدث لها هو اختفاء مذاق المرارة تماماً . وكأنها شفيت بشكل مفاجئ من مرض عضال . لكن سبق اختفاء المرارة بلحظات قرار مهم .. قرار وصلت إليه فى بضع ثوان أو قل ثانية واحدة أو قل جزء من الثانية .

كان القرار هو طلب الطلاق.

بهدوء شديد ورضا نفسى أشد يبعث على الهدوء والسكينة قالت له طلقنى ..

ضـحك الزوج تصور أنها تمزح . لم يصدق للحظة أنها تعنى ما تقول فهى لم تتفوه بهذه الكلمة على مدى عشرين عاماً هى عمر زواجهما.

أعادت الكلمة: طلقنى .

أراد أن يمازحهـا رداً علـى ما تصوره من أنه مزاح منها فقال: سأقتلك ثم انتحر لكن لن أطلقك .

أدركت أنه لم يستوعب بعد جدية الموقف فقالت بنفس درجة الهدوء: أنا لا أعيش مع غشاش.. ولدى المستندات.

وبيـنما كانـت دموع الزوج تنهمر تجمع فى فم الزوجة كثير من اللعـاب يغسـل آخر ما تبقى من مرارة ثم بصقته فى وجه الزوج قبل أن تغادر المكان.

(١١)
الكبار يسرقوننا

١- رجل عجوز وفتاة صغيرة :

إستوقفته هذه اللوحة بالذات .. شئ ما جعله يعود إليها بعدما فرغ من استعراض كل لوحات المعرض الذى دُعى لافتتاحه . لحق به الفنان الذى أبدعها وبادره دون أن يوجه إليه السؤال: وأنا كذلك أعتبرها أهم لوحاتى. ولم تكن اللوحة أكثر من تداخلات لونية .. ولكنها كانت تنبض، كما أنها تعطيك الفرصة أن تشكل منها فى خيالك ما تفيض به عواطفك أنت الشخصية .. تستطيع أن ترى فى هذه اللوحة امرأة جميلة وبحراً وسماء وزهوراً ..

كما لا يمكن أن تتصور أن يدا متعمدة رسمتها بل هى مجموعة من الألوان سُكبت بلا قصد فتزاحمت على هذه الرقعة المحدودة ونتج عن ذلك تلك الصورة الحية لأى شئ جميل .. ولكن المؤكد أنها نابضة كفتاة فى مقتبل العمر كل ما فيها من ألوان صارخ ومحدد ومبهر يشدك ويأسرك، فهذا شعر أسود فى لون الليل وهاتان عينان زرقاوان فى لون البحر وهذه بشرة بيضاء فى لون الحليب وهذا شفاه حمراء فى لون الورد .

وطلب من الفنان أن يبتاع هذه اللوحة، ووضعها فى مكان بارز فى مـــرمى بصره وهو جالس إلى مكتبه . ولم تعجب زوجته باللوحة وفزعت من المبلغ الذى دفعه لشرائها وعاتبته لإسرافه وانحطاط ذوقه فهذه لوحة لا تساوى شيئاً وحرى بها أن تعجب شاباً وليس عجوزاً مثله جاوز الستين .

.. لـــم يلتفـــت إلـــى ما قالت فقد اعتاد منها فى السنوات الأخيرة الاعتراض الدائم على أسلوب حياته ورؤيته للأشياء وتذوقه للفن، إذ كانت روحـــه تفيض بالحيوية والانطلاق بما لا يتناسب مع عمره المتقدم والذى قضـــى معظمـــه فـــى العمل الجاد حتى استطاع أن ينقل أسرته إلى طبقة اجتماعية أعلى على المستويين الاقتصادى والثقافى .. كان عاشقاً للحياة .. وكـــان يؤمـــن بأنـــه كلما ارتقى الإنسان فى السلم الثقافى زاد إقباله على الحـــياة.. وكان يعتبر المرأة هى التجسيد الحقيقى للجمال، بل الجمال امرأة والفـــن امرأة والثقافة الرفيعة امرأة . ولا يمكن أن ترى الوجود جميلاً إلا من خلال امرأة ولا يمكن أن تعُاش الحياة إلا مع امرأة ..

ولـــذا كانـــت حياته صاخبة قبل الزواج، وأقل صخباً بعد الزواج، وهادئة نسبياً، بعد الستين .

ومثلما قادته المصادفة لاقتناء لوحة الحياة كما سماها فإن المصادفة أيضـــاً أتت بلوحة حية إلى مكتبه لتسأله فى أمر ما يرتبط بعمله . والمبدع فى هذه الحالة كان هو الله الخالق المصور .. ولاحظ للوهلة الأولى تشابها بـــل تطابقـــا بين هذه الفتاة البضة التى لم تتجاوز الخامسة والعشرين وبين لوحة الحياة التى اقتناها حديثاً .

وبدون الدخول فى تفاصيل عشقته الفتاة مثلما عشقها .. فى البداية تصورها مغامرة، ولكنها هى منذ البداية عاشت مشاعرها بصدق، أحب هو

جسدها وأحبت هى روحه . أحب جمالها وأحبت هى فكره، اعتبرها شمس خــريفه واعتبرته ربيع حياتها، وباختصار أيضاً جعلته يأخذ العلاقة مأخذا جديا .. ولم تكن فكرة الزواج مطروحة إلا حينما أرسل لهما الزمن إنذاراً بالافتراق فتزوجا .

كانــت صــدمة للجميع، من ناحيته صُدمت زوجته وصُدم أبناؤه، وأصــدقاؤه وزمــلاؤه .. ومــن ناحيــتها صدمت أمها وأبوها وشقيقاتها وأشقاؤها وصديقاتها .. ومن ناحيتهما معاً صدم الرأى العام .

مــبرراتها أنها لم تستطع أن تتعايش مع ضحالة الشباب .. وأنها لا تنــتمى إلــى جــيلها وعصــرها، وأنها أحبت بعقلها وقلبها ومن قبل ذلك بــروحها.. ونفت التفسيرات النفسية أنها كانت محتاجة إلى أب وليس إلى زوج، ونفت التفسيرات البراجماتية أنها أرادت الاستفادة من مركزه وماله.

ومــبرراته هو أن الحياة جميلة ولابد أن نحياها حتى آخر لحظة . وأن الفــتاة الصغيرة هى رمز لنضارة الحياة وجمالها، وأن القلب إذا أحب فهــو يحــب إنساناً ولا يحب صفات، وأن قلبه هو لا يعترف بالسن مادام قادراً على منحها المتعة التى تحتاجها ..

وأن التعمــيم غــير جائــز فــى الإنسانيات، ونفى عن نفسه تهمة الشراهة الغريزية ولكنه اعترف بشراهة عقله للفكر الشاب وشراهة روحه للجمــال الشاب وشراهة عواطفه للعشق الملتهب .ومادمت أحب فأنا قادر على الحياة . ومادمت حياً فأنا قادر على الحب .

ونفى عن علاقتهما أنها كانت تنطوى على بيع وشراء أو مقايضة.. لم تكن إرضاء شراهة حسية أمام نفع مادى اجتماعى.

ولكــن مازال الناس فى حيرة .. ومازال المجتمع يرفض ومازال الصغار معترضين ويصيحون إن الكبار يسرقوننا .

٢- امرأة عجوز وشاب صغير :

اعــتادت التركيز فى كل ما تقوم به من عمل حتى وإن كان إنصاتاً لمــتحدث لا يقــول شيئاً ذا بال . وكانت فلسفتها أن التركيز يتيح أن نرى أفضـــل وأن نفهم أعمق كما أنه يمنحنا المتعة الحقيقية . وأى متعة تحتاج إلـــى تركــيز وكانــت النحلة هى مثلها الأعلى فى الحياة وهى تتنقل بين الــزهور الجمــيلة فــتحط عليها وتنفصل عن كل العالم فى أعلى درجات التركــيز وهـــى تستخلص منها الرحيق الذى يتحول فى داخلها إلى عسل مصفى . وكانت تعجب للميكانيزم أو الطريقة التى تجعل النحله مثل معمل كيمــياء تتم فيه أعقد العمليات لينتج فى النهاية مادة ذات طعم جميل وفوائد عظيمة .. كانت تشدها أيضاً فكرة الإخراج أو الإفراز العسلى .. كيف أن مخلوقــاً صغيراً يصدر عنه مادة لها هذا المذاق .. وكل ذلك يبدأ بالحرية الــتى تــنعم بهــا النحلة فى تنقلها بين الزهور المختلفة، كل عالمها جميل المــنظر وجميل الرائحة .. وهذه هى النتيجة الطبيعية للحرية، الحرية هى أصــل الجمال والمتعة والخير، ولولا التركيز لما كان هناك عسل .. ولذا كانت تركز فى كل شئ مثل تركيز النحلة فى استخلاص الرحيق، بل إنها تمنت فى أحلام يقظتها أن تصبح نحلة لتتمتع بحرية الانتقال من زهرة إلى زهرة فتحط على الزهرة التى تعجبها وتلامس الزهرة التى تعجبها وتمتص من الزهرة التى تعجبها .

وكلمـــا مضت بها السنون نضجت فكرياً وروحياً .. وزادت قدرتها علـــى التركــيز، والاســتمتاع من خلال هذا التركيز . ولذا استطاعت أن

تحافظ على حيوية الجسد وجمالها رغم تقدم العمر حتى جاوزت الخمسين .. فهى امرأة فوق الخمسين ذات جسد فى الثلاثين وذات روح فى العشرين .. وحققت نجاحاً مادياً لقدرتها على الإقناع .. كانت حرفتها البيع والشراء .. ومـــن ضمن قناعاتها أن من يملك يستطيع أن يشترى أى شئ .. ومن يهوى شيئاً عليه أن يدفع . وأن لا متعة مجانية، وأن الحياة تقوم على البيع والشراء ادفع تأخذ .. ادفع تستمتع .

وذات يوم، ورأسها ينكفئ على أوراق أمامها، وكعادتها فى التركيز لم تلحظ مجيئه قبالتها .

ومن وحى شعور داخلى رفعت رأسها فلم تطالع إلا منتصف صدره .. فقــد كـــان طويـــل القامة أمام قصر قامتها ودنو كرسيها من الأرض، استمرت فى رفع رأسها إلى أعلى ثم إلى الخلف حتى رأت وجهه المشرق الـــذى يؤكد على أن عمر صاحبه لا يتجاوز الخامسة والعشرين بأى حال وربما أقل .

ورغـــم .. المفاجأة فإنها لم تتخل عن عادتها فى التركيز .. ركزت بشـــدة فى ملامح وجهه.. وصل إليها عطره الرخيص الذى ينبئ عن رقة حالـــه وملبسه المتواضع ولكنه مرتب ونظيف وتناسق ينبئ عن ذوق رفيع .. وتكلم الشاب فاستمعت بتركيز إلى نبرات الصوت ومعنى الكلمات .

واختصــــاراً للصفحات فإننا نقول إن هذه السيدة قد عرفت الكثيرين فـــى حـــياتها إلا أن هـــذا الشـــاب كان مختلفاً .. وهى يدهشها الاختلاف والتمـــيز، فكـــان زهـــرة جديـــدة تماماً عن كل الزهور التى حطت عليها وامتصت رحيقها .

.. وبدون الدخول فى تفاصيل تزوجا ..

ولـــم يُصدم الكثيرون لما عُرف عنها من ولع بالحياة .. أما هو فقد كان غريباً عن الديار بلا صاحب ولا أهل فلم يأبه أحد بما فعل .

.. ونفت عن نفسها تهمة الشراهة الغريزية.

.. ونفـــى عن نفسه تهمة بيع شبابه مقابل المال .. وبالرغم من أنه عـــاش علـــى مالها وكانت تملك السيطرة عليه كأم تتحكم فى طفل إلا أنها كانـــت تؤكـــد على أنه نافذتها على الحياة، وكان هو يؤكد على استمتاعه الحقـــيقى معهـــا وأنها أفضل بكثير من أى فتاة صغيرة عرفها . وكان من آرائه أن المرأة ذات التجربة فى الحب والحياة أفضل مائة مرة من فتاة بلا خبرة الأمر الذى يجعلها تبدو غبية وغير قادرة على إسعاد رجل .

ولكـــن مازال الناس فى حيرة .. ومازال المجتمع يرفض ومازال الصغار معترضين ويصيحون: إن الكبار يسرقوننا.

(١٢)
الشقيقتان

جــراح الطفولـــة تــترك آثارها حتى آخر لحظة فى العمر وتعظم المصيبة حين لا تندمل بعض هذه الجراح وتظل تنزف قطرات من مشاعر الغضـــب على من تسبب فيها .. ولا يزول عن الإنسان الغضب حتى وهم يــنزلون بـــه إلى المقر الأخير فيظل يزأر معاتباً: أن قد أضعتم بعضاً من عمرى فى الألم والأسى يا من تسببتم فى هذه الجراح .

من ألوم؟ وماذا يجدى اللوم وقد كاد العمر ينتصف!! ومن يستطيع أن يعيد الصفاء إلى نفسى وقد تعكرت المشاعر زمناً غير قصير؟

وأسأل نفسى فى كل لحظة : على من تقع المسئولية؟

وفـــى لحظـــات هدوء نسبى أعود فأسأل : وما حدود مسئوليتى أنا وإلى أى مدى أسهمت فى تعميق الجراح؟ وإلى أى مدى لم أحاول السيطرة علـــى استفحالها؟ ألم يكن هناك علاج أم أننى كنت أتعمد تهييجها وإثارتها وتعميقها لأنعم بمزيد من ألم أستعذبه وأتخذه وسيلة لعقاب من حولى .

فـــى بعــض أوقات الاتزان النفسى التى كنت أنعم بها خاصة فى الشـــتاء كنـــت أتقمـــص دور الطبيـــب النفسى لأبحث عن جذور مشكلتى ومنشـــئها وأحدد مسئوليتى ومسئولية الآخرين، وما إن أرى بادرة أمل فى

عـــلاج حـــتى يهل الربيع فتثور نفسى من جديد وأهدم ما بنيته من لبنات رضـــى وتســـامح وأبـــنى مـــن جديد جبالاً من السخط والحنق وأدعم كل المشاعر السلبية داخلى ضد من تسبب فى مأساتى .

من أين أبدأ؟ هل أبدأ بتعريف نفسى أم بعرض مشكلتي؟

الحقـــيقة أنـــا ومشـــكلتى شـــئ واحد فمشكلتى هى أنا .. فأنا سيدة متواضـــعة الجمال .. أو قل أنا سيدة غير جميلة هكذا ولدت وهكذا أدركت أمـــى وكل من حولى هذه الحقيقة والتى تزعج أى أسرة خاصة أن المولود أنـــثى فالأنـــثى لابـــد أن تكون جميلة وإلا أطيحت الأحلام بشأن مستقبلها ومازالت تتردد فى أذنى صرخات الإنكار بعد لحظات من نزولى من بطن أمى ومازلت أتذكر نظرات الإشفاق فى عين أمى ما أن طالعت وجهى بعد أن أفاقـــت من ولادتى.. ومازالت محفورة فى ذاكرتى اللعنات التى حطها أبـــى علـــى رأس أمـــى لسببين أولهما لأننى لم أكن ذكراً وثانيهما لأننى دميمة.

واندهشـــت لهـــذا الاستقبال غير الودود لنعمة أرسلها الله لأسرتى ولكـــن يبدو أن تقدير الناس للنعم الإلهية أمر نسبى إلى الحد الذى يجعلهم يقدرون أحياناً النعمة على أنها نقمة .

هكذا اعتبرنى أهلى نقمة أو عقاباً سماوياً على إثم اقترفوه .

ولـــم تلـــب لى فى خلال السنتين الأوليين من عمرى إلا احتياجاتى الفســـيولوجية مـــن طعـــام وشراب وافتقدت بشدة لمسات الحنان ونظرات الترحيب وابتسامات التشجيع وعبارات التقدير والإعجاب .

إلـــى أن ولدت شقيقتى الثانية بعد عامين من ولادتى .. وكأن أمى أســـرعت بالحمل بمعاونة أبى لعل الله يعوضها بطفل يزيل عنهما الوصمة

الــتى لحقت بهما بسببى .. وتحقق لهما ما أرادا .. منحهما الله طفلة رائعة الجمـــال بمقايــيس العصـــر، إصفرار الشعر واخضرار العينين ونصوعة بياض الجسم.

ومـــع مجـــيء شـــقيقتى تضاعف الإهمال لى حيث كنت أشعر فى بعــض الأحــيان برغبتهم جميعاً فى أن تبتلعنى الأرض بالوسيلة المعتادة وهى الموت أو أن يختطفنى جن سفلى يعيش تحت الأرض.

وعرفت معنى الحزن وأنا دون الرابعة والأخطر أننى تعلمت أيضاً كــيف لا أحب .. ثم تعلمت صراحة كيف أكره .. وكرهت أول ما كرهت شقيقتى الجميلة .. وكان هذا أول صراع تكابده نفسى فالافتراض الطبيعى البشـــرى أن أحــب شـــقيقتى وأنا فعلاً أحبها .. ولكن الافتراض المنطقى الإنسانى أن أكرهها .. وأنا فعلاً أكرهها.

وأنا فى السادسة كنت أمر بالحالتين بشكل تعاقبى أحبها لحظة ثم لا أحــبها فـــى اللحظة التالية . فى لحظة أقبلها وفى اللحظة التالية أصفعها . وحـــتى الثانـــية عشـــرة من عمرى ظلت الكفتان متعادلتين ما بين الحب والكراهية.

ورغم أن الفرق السنى بيننا عامان، إلا أننا نضجنا فى وقت واحد . كـــأن الحنان الذى نعمت به والرضاء العاطفى الذى نالته قد أشبع جسدها فأنضـــج غددها فى وقت أقل من المعتاد فلحقتنى وتشكل جسدانا بوضوح يلفت النظر وظهر جلياً الفرق الشاسع بينى وبينهما وأقبلت كل الدنيا عليها وانصرفت عنى.

ومازلت أتذكر هذا اليوم بتفاصيله المريرة حين عودتنا من المدرسة معاً وجدنا البيت يموج بضحكات تملأ جنباته وتمتد إلى خارجه لمن يسترق

الســمع .. والحكاية أنه جاء من يخطب شقيقتى . فى هذا اليوم مالت كفة الكراهية، ومع كل موقف ظالم يؤلمنى يزيد الميل حتى تغلبت تلك المشاعر الحاقدة على كل ذرة حب فى داخلى وأصبحت أرددها علناً مع نفسى دون مواربة: أنا أكره شقيقتى.

ولــم يــرحمونى فى المدرسة .. كانت المقارنات تعقد علناً أمامى ودون مراعاة لمشاعرى وكأن كل الناس قد فقدوا الذوق والكياسة والرحمة وأدركت أن كل الناس وحوش كل الناس بدون مشاعر.

ولــم يكــن أمامى من سبيل إلا التفوق الدراسى خاصة أن شقيقتى الجمــيلة كانــت متبلدة ذهنياً إلا أن ذلك التفوق لم يشفع لي، وكأن القيمة الوحيدة لأى فتاة أن تكون جميلة وحسب.

ومع الكراهية يولد الشر حتى يتمكن من النفس ويستحيل الإنسان شــريراً، بــل يهــنأ بشــره لأنــه يخفف عنه بعض مشاعر الظلم والقهر والانسحاق والدونية.

فعلــت كل ما أستطيع لإلحاق الأذى بشقيقتى وبأسرتى. كنت أتعمد إحراجهم وكشف أكاذيبهم وإدانة سلوكهم. أطلعت كل الناس على حقيقتهم. كنــت أقدم على ذلك أحياناً بمكر ودهاء وفى أحيان أخرى بحماقة واندفاع وزادت الهــوة بيــنى وبينهم ومع انتهاء دراستى الجامعية أعلنت تمردى الكامل.

وتزوجــت شقيقتى الجميلة من ثرى يكبرها بعشرين عاماً ثم عادت إلينا مرة أخرى أرملة بعد عشر سنوات وعلى كتفيها طفلان وفوق رأسها أطنان من المال .. وكأن الله أراد أن يجعلها تنعم بكل زينة الحياة الدنيا من مال وبنون وجمال.

وازداد خطابها بعد أن أضيف المال إلى جمالها .. وتزوجت مرتين وفشلت فانحرفت وساء خلقها فى معاملة والدى .

أمـــا أنـــا فقد تأخر زواجى حتى سن الخامسة والثلاثين .. تركت البيت الذى أكرهه بعد أن خربته تماماً فقد كنت وراء المصائب التى حاقت بشـــقيقتى وأمعنت أيضاً فى إيذاء مشاعر أمى وأبى وذلك ببرودى الكامل ونظـــراتى القاسية ونبراتى غير الودوده، إلا أننى كنت أقوم على خدمتهما وأســـتجيب بشـــكل فورى لطلباتهما وقد بلغا من الكبر عتيا، إلا أننى كنت أفعـــل ذلك بدون روح. لقد أزهقا بأيديهما روحى بعد ولادتى بدقيقة واحدة حين صرخا فى وجهى أن ارجعى من حيث أتيت أيتها الدميمة .

ورغـــم أن حـــياتى اســـتقرت بعد ذلك فى ظل عمل متميز وزوج معقـــول وأطفال ناجبين إلا أن كراهيتى لشقيقتى ظلت طاغية، وحنقى على والدى ظل حياً ورغبتى الشريرة فى الانتقام ظلت متأججة .

لـــم أحـــزن لوفـــاة والدى .. وهنأت بلوعة أمى وإحساسها الشديد بـــالوحدة.. ثم لحقته موتاً فلم يهتز لى وجدان إلا أننى بكيت فى هذا اليوم وصـــرخت حيـــن أنزلوها القبر .. بالقطع لم أكن أبكى من أجلها .. ربما كنـــت أبكى على حالي، بل ربما كنت أبكى على فقدى لأحد الأهداف التى كنت أحط عليها غضبى وأبث أحقادى فى اتجاهها .

إلا أنـــه بموتهمـــا اســـتطعت أن أركـــز كل المشاعر السلبية نحو شـــقيقتى.. وكـــل مـــا استطعت أن أفعله هو أن أفسد لها كل فرص تتاح لاستقرار أسرى .

حـــتى أصـــابها المـــرض الخطير .. ففزعت إلى حد الانهيار .. وســـاندتها، كنت بجانبها فى كل لحظاتها الحرجة .. وعجبت لتناقضى ..

ولـــم أستطع أن أتبين على وجه الدقة سر تلك المشاعر المتباينة .. هل هو تكفير عن مشاعر الكراهية التى حملتها لها سنين عمري؟

هل هو تكفير عن شرورى السامة التى حاولت أن أفسد بها حياتها؟

هـــل هو خوفى من أن أفقد أهم الأهداف التى أهاجمها فلا أجد بعد موتهـــا إلا نفســـى لمواجهـــتها وتوجـــيه غضبى نحوها .. أى نحو نفسى فأحطمها مثلما حاولت أن أحطم شقيقتي..؟

أم أن التســـامح غزا نفسى رغماً عنها ليرحمنى من هول كراهيتى وشروري؟

أنا لا أريد لشقيقتى أن تموت .. أنا لا أكرهها .. أنا أكره نفسى..

هل أنا مريضة!! أريد علاجاً لروحى المعذبة!!

(١٣)
الغــــــثيان

الدروب الوعرة ترهق الأبدان، والسكك الملتوية تحير الألباب، أما الطـــرق المســـدودة، فتبعـــث على اليأس، ولا شئ يفوق اليأس فى تشتيت الأذهان وإفساد الوعى وغلق السبيل إلى الحكمة .

والنفوس كالطرق قد تكون وعرة أو ملتوية أو مغلقة فى وجه النور والأمل بفعل أحداث جسام عبر بها الإنسان طفلاً فظلت محفورة فى الذاكرة لا تموت إلا معه ولا تغادره إلا عند باب القبر .

وعجيـــب أن تكون هناك مرآة يرى فيها الإنسان وجهه، ولا يوجد مـــثلها ليرى الإنسان نفسه ويطلع على باطنه ويفهم بواعث سلوكه الغريب أحـــياناً والشاذ فى أحيان أخرى . ولا يوجد منظار يؤدى إلى الذاكرة لترى رؤيـــة العين ما دفن فيها، ومازال حياً يؤثر ويؤرق ويخز، وإنما فقط نرى بالعين الداخلية من وقت لآخر أشباحاً ملثمة دون أن نفهم المعنى الخفى أو تغمرنا أحاسيس مبهمة غامضة دون أن تكشف سراً، أو أفكار تكون مبعثرة لا رابط بينها فلا توضح مضموناً، ولذا نظل أسرى جاهلين، أسرى أحداث مؤســـفة اختزنـــتها الذاكرة، وجاهلين بتأثيرها على واقعنا الغريب أحياناً، والشاذ فى أحيان أخرى والمريض فى معظم الأحيان .

جلســت غــير بعيدة من كلبها الذى كان يروح ويجئ من حولها، ويتمســـح أحــياناً فى قدميها وفجأة تضربه بقسوة بعصا صغيرة فى يدها، فــيعوى وينزوى بعيداً، ثم يعاود الاقتراب منتظراً الضربة القادمة وكأنما اعــتاد هــذا النمط فى السلوك اليومى وخاصة حينما تكون نصف مستلقية على أريكة تشبه سريراً فى اتساعها وتكون أيضاً نصف عارية .

يحــدث هــذا عادة منتصف نهار كل يوم حين تستيقظ، فيأتون لها بالكلــب والصحف والقهوة والعصير وعسل أبيض لا تتناول منه إلا ملء ملعقــة واحدة، ثم تتصل بمساعديها لتطمئن على سير العمل وقدر أرباحها الــتى تــتزايد يومياً بفضل ذكائها ومهارتها وتمرسها بعد أن ذاقت مــــر الحياة أكثر مما ذاقت من حلوها .

هــذه بعض ثوابت برنامجها اليومي، ثم يأتون إليها بإحدى الثوابت الأخــرى وهى مدلكتها، وهى امرأة ماهرة فى منتصف العمر ذات ملامح جمــيلة تســتثير الــرجال والنساء معاً ولها قدرة فائقة على التعرف على المــزاج الراهــن لســيدتها، فتسلك وفقاً لهذا المزاج مثلما تختار الحديث المناســب الــذى تتجاذبه معها، والأهم من ذلك كله هو التعرف على اتجاه رغباتها إما تجاه النساء، وإما تجاه الرجال، أما الغالب فهو حالة من الفتور التام تجاه الجنسين.

وهــذا الشــذوذ الغريب فى الرغبات تعرفت عليه وودعت له بعد زواجها بعامين، حيث اكتشفت ميلها الجارف ناحية ممثلة ناشئة أدت دوراً صغيراً فى أحد المسلسلات التليفزيونية، فسعت إلى معرفتها واستحضارها، ثــم نجحت فى إقامة علاقة معها، وظلت تنتقل من علاقة إلى أخرى، وهذا لم يمنعها من إقامة علاقات برجال هى تختارهم فينصاعون بحكم سلطاتها

ومالها وجمالها، إلا أنها كانت ملولا، سريعة التقلب، وسريعة الانقلاب ضد من اختارتهم وقربتهم وأنشأت علاقات محرمة معهم، لم يكن يأمن أحد من غدرها رغم إغداقها وكرمها ورقتها ومودتها فى البداية .

فى ذلك اليوم الذى لا يبعد كثيراً عن يومنا الحالى قررت أن تخرج بمفـــردها وأن تقـــود سيارتها بنفسها، كانت تفعل ذلك أحياناً حين يشتد بها الملـــل إلى حد الموت، فكانت هذه المغامرة بمثابة إنقاذ روحها وخاصة إذا نجحت فى العبث بمشاعر رجل أو امرأة من الذين يوقعهم حظهم العاثر فى طريقها.

فى ذلك اليوم سيطر عليها المزاج الغاضب مع تيارات متلاطمة من العنف والقسوة اجتاحات صدرها، فانطلقت بالسيارة بأقصى سرعة وكأنما تريد أن تقتل الناس جميعاً .

من بعيد رأت رجلاً مسناً ربما تعدى السبعين يعبر الطريق، تمهلت اقتربـــت فاتضحت الرؤيا، أصابها غثيان حين تبينت ملامحه، أبطأت أكثر لتمعـــن النظر، إنه هو، لا ليس هو، ليس من المعقول أن هذا العظيم يعبر الطريق وحيداً مثل بقية الدهماء، إنه يشبهه فقط، ولكن يشبه من؟ هى ذاتها لا تعـــرف، لا تعرف المرجع، حاولت أن تتذكر يشبه من، لم تفلح، ازداد شـــعورها بالغثـــيان، كادت تتقيئ، اقتربت منه أكثر وهو يتباطأ فى عبور الطريق، استفزها بطؤه وأناته غير عابئ بالسيارات، استفزها كبر سنه، كم كرهت كبار السن من الرجال، إنهم جميعاً حقراء يستحقون الموت، لمعت فكـــرة القـــتل فـــى رأسها، وتجاوبت معها، وتجاوبت أكثر مع ملامح هذا العجوز، وبنصف وعى . أطلقت لسيارتها العنان واندفعت بكل قوة صوب العجـــوز، وتجمـــع داخلها كل غضب الدنيا، كل الحنق، كل الألم، شعرت

بالاختناق، ارتج كل داخلها وكل خارجها، فقدت القدرة على الرؤيا فلم تر العجــوز وإنمــا كانت تتجه صوبه، الاتجاه هو الأهم، وفى خلال لحظات انعــدام الــرؤيا مرت الصورة البشعة بخيالها من أتى بك الأن؟ لماذا هذه الصــورة بــالذات؟ طغت آلام بطنها على كل شئ، لم تشعر بالبول وهو يندفع من تحتها، نفس ما حدث فى ذلك اليوم اللعين حين خرج منها البول دون إرادتهــا وتقيأت حين استبد بها الفزع، فإذا بالعجوز الخسيس يهدئها ويهدهدهــا ويضمها، ثم يطبق على فمها مقبلاً، ويلثم خدها ويدخل يده من تحت ملابسها فتشعر بألم، ثم يأخذ بيدها إلى داخل ملابسه فتبكي، فيأتى لها بــالحلوى والملابس واللعب، ولكنها لا تطمئن، ثم .. ثم .. ثم ماذا حدث؟ انمحــت الصورة الآن، ثم أفاقت على صوت الارتطام المروع، لقد دهست العجــوز، أفاقت، رأت الطريق، مضت مسرعة ثم بهدوء انطفأت النيران، زال الغضــب، اختفت آلام البطن، شعرت بالعافية وكأنما أفاقت من حمى أرقدتها شهوراً، وصلت إلى بيتها، شاهدت إطارات السيارة ملوثة بالدماء، فشــعرت بنشــوى جنســية، أشعلت سيجارة وهى فى طريقها إلى الحمام تصحبها وصيفتها استحمت ونامت .

صحت ظهر اليوم التالى وقد نسيت كل أحداث الأمس، أثارها خبر نشرته كل الصحف فى مكان بارز أن سيدة تقود سيارة فخمة قتلت عجوزاً فــى الطريق وهربت، عجبت للخبر وقالت بتأكيد : هى غلطة العجوز بلا شك، جميعهم يتميزون ببطء قاتل .

فــى اليوم التالى ذكروا تفاصيل أكثر عن الحادث مع نشر صورة العجــوز، إنــه هو، لا ليس هو، إنه يشبهه فقط، إنه مواطن بسيط وليس عظــيماً مثله، مثل من!! من هو ذلك المرجع الذى يشبهه العجوز؟ حاولت

أن تـتذكر، حاولـت أن تمسك بتلابيب صورة انمحت من الذاكرة الواعية ولكن يبدو أنها مازالت قابعة هناك فى المخزن المغلق للذكريات المؤلمة .

أصـابها اكتئاب مفاجئ، كان نادراً ما يصيبها الاكتئاب، ودون أن تـدرى السبب سألت عن أسرة العجوز القتيل وأغدقت عليهم، أثار كرمها شكوك أسرة القتيل، فأفصحوا للشرطة عن ظنونهم، لم تسفر التحريات عن شـئ والتحقيقات لم تكشف عن وجودها خارج البيت فى الوقت الذى وقع فـيه الحـادث، أنكرت هى ذلك تماماً، ولكن الخادم الذى يكن لها كراهية شديدة مثل معظم الخدم أخبر الشرطة بقصة خروجها منفردة بسيارتها، لم يستطع أحداً أن يثبت ذلك .

،وحـل الصـداع محل الاكتئاب، ونصحها طبيبها بضرورة مقابلة الطبيب النفسي، ففعلت، طلبت منه أن يساعدها على التذكر .

سألها: أى شئ تريدين تذكره؟

أجابـت: لا أدرى شـيئاً ما يستعصى استدعاؤه من الذاكرة، وهذا الشيء مرتبط بالصداع العنيف الذى أعانيه .

عـرض علـيها الطبيب النفسى بعض الصور تحوى أشكالاً غير محددة تكونت من خلال تشرب ورقة لبعض قطرات من الحبر، طلب منها الطبيب أن تحكى قصة عن كل صورة من واقع خيالها .

استطاع الطبيب أن يجمع أشلاء قصة من واقع رؤياها لكل صورة، فـى إحـدى الصـور وصفت امرأة تسحب فى يدها ابنتها الصغيرة، فى صـورة أخـرى رأت عجـوزاً يقبل طفلة، وفى صورة ثالثة امرأة تحمل طفلتها الباكية وفى يدها كيس من المال، وفى إحدى الجلسات وصفت طفلة

تقـتل رجـلاً، وفى جلسة أخرى وصفت ثعباناً يمتد من بطن رجل ليلدغ طفلة، صرخت المرأة وتصورت أن ثعباناً حقيقياً سيلدغها .

بـدأ الطبيـب فى المكاشفة، قال لها إن أبطال الحكاية التى تودين تذكرها هم رجل عجوز وطفلة وأم، أما الثعبان فهو شئ رمزى .

فـى جلسة تالية طلبت شيئاً غريباً، أرادت عقاراً يسبب لها غثياناً، أريد أن أشعر بأقصى درجات الغثيان، إذا شعرت بهذا الغثيان سأتذكر، إنه الغثـيان اللعيـن الـذى لا يريد أن يغادرنى منذ تلك اللحظة الرهيبة التى تستعصى على ذاكرتى .

قـال لهـا الطبيب: سأساعدك على الشعور بالغثيان دون عقاقير، أريدك أن تتخيلى رجلاً عجوزاً يقبل طفلة، العجوز يعبث بجسد الطفلة بيده المرتعشة، الطفلة تمسك بثعبان يمتد من بطن العجوز .

صرخت المرأة تقيأت، غفت لمدة دقائق، ثم استيقظت أحسن حالاً، الآن أتذكر كل شئ بوضوح .

كنـت فى العاشرة، دون نهدين ودون دورة شهرية، ولكننى جميلة وبريئة، لا أعرف شيئاً عن الجنس، تأخذنى أمى إلى الرجل العجوز الغنى جداً، أمواله تغطى الشمس فتحجب الضياء، وتظلم الحياة وتتجمد الكائنات، تـتركه معـى فى الحجرة الرهيبة يغلقون الأبواب، أو لا أحد يجرؤ على الدخول دون استئذان بل لا أحد يستأذن فى الدخول على الإطلاق، يجلسنى علـى ساقيه، يدنو من فمى فيغوص وجهى فى ذقنه الكثيف الذى يمتد إلى أعلـى صدره، يقرصنى من صدري، فأتألم ولكنه يضحك، يضع يده أسفل ملابســى الداخلية فلا أفهم، ويسألنى بماذا تشعرين الآن، فلا أجيب فيملى علـى أن أقول إننى سعيدة، يدفع بيدى إلى أسفل بطنه فانتفض كأن ثعباناً

لدغنـــي، وحينئذ أشعر بغثيان بالغ، وأصرخ، ولا أحد يسمعنى أو يستجيب لـــي، أرتعـــب، أتبول دون إرادتى وأتقيأ، فتزداد سعادته، يلاطفني، ولكن مشـــاعرى تتجمد، ثم يدفع بى خارج الحجرة، فتلتقطنى أمى وتمضى دون أن يفصح وجهها عن شئ، وقبل مغادرة البيت الكبير يعطونها كيساً ضخماً مليئاً بالمال، فيمتلأ وجهها سروراً، أجئ كل أسبوع إلى أن طلبوا من أمى التوقف عن إحضارى .

وكلما مضت الأيام هبطت الذكريات إلى مستويات أعمق لا تطالها يـــدي، حـــتى نسيت، تصورت أننى نسيت تماماً، ولكن ظل صدرى مليئاً بالغضـــب، تشـــتتت مشـــاعرى مثلما تشتتت رغباتي، فى البداية كرهت الرجال، شعرت بالأمان أكثر مع الأنثى، ثم أردت أن أكون امرأة حقيقية، فملت إلى الرجال، ثم مرة إلى النساء ومرة إلى الرجال، ومرات كثيرة بلا مشـــاعر وبلا رغبات، ولكنى تعلمت شيئاً خطيراً من أمى هو أن كل متعة لها ثمن، فتخصصت فى تجارة المتعة، وكسبت مالاً كثيراً لتفوقى فى فنون الحب ولروعة جمالى الذى كان يثير الرجال والنساء فى آن واحد .

سألها الطبيب النفسى بحنان: وماذا عن الرجل العجوز الذى دهمته السيارة؟

قالت ببرود: لا أدرى عن هذا شيئاً .

(١٤)
معنى الحياة

مضـــى أكــثر من نصف العمر. قرأ وسمع وناقش وجادل وتعلم وتــثقف إلا أن الكلمات الأولى للشيخ الضرير مازالت محفورة تقود الفكر وتهـدى التفكير وتظلل الوجدان وتحدد أقصى مسافة للرؤية وترسم حدود اتســاع الإدراك. مــازال الشيخ الفقير فى علمه هو معلمه الأساسى والذى تكونــت لبنات عقله على يديه متراصة كهرم، متماسكة بفعل مادة مجهولة التكويــن أو قوة مجهولة الكنة والمصدر. وإذا ما نظرت إلى داخل الهرم لتــتعرف علــى محــتوياته وجدت خزعبلات وخرافات وأوهاماً وأساطير وأباطــيل وأوامــر ونواهــى ومباركات – دون أى مبررات – خالية من المعنى وأشياء أخرى كثيرة تثير الضحك والرثاء والإشفاق والاستياء .

وفــى مكان غير بعيد من هذه الأشياء داخل عقله تلتقى وجهاً لوجه مع الندم لضياع أحلى سنين العمر فى كنف عقل هذا الشيخ الذى لا يعترف بــأى عبارة استفهامية مسبوقة بكلمة كيف أو كلمة لماذا .. ومع الندم تجد الرفض وكل محاولات الفكاك .. ولكن كيف للأسير أن يفر وهو مكبل .. ومــا أســوأ تكبيل العقل حيث لا فكاك حتى لحظة نزول القبر .. ولذا فهو يذعــن رغم أنفه أو رغم كل آليات عقله التى تحاول أن تجد سبباً لكل شئ وتجتهد فى إيجاد معنى لكل شئ .

وإذا ما تجرأ وردد فكرة جديدة أو وضع تساؤلاً لظاهره محيرة أو استند فـــي تفسيره لشيء على ما أحرزه العلم من تقدم سمع زئير الشيخ المخيف داخله وكأن جبلاً يتهدم يندد به ويتهمه بالجهل والعصيان .

يـــا جـــاهل .. يا عاصى .. وتنزل اليد الغليظة على وجهه أو قفاه محدثة ألماً .. لم يكن ألم الضرب بقدر ما كان ألم القيد الجديد الذى يضاف إلـــى كم القيود التى تغلق أبواب العقل . وثمة ألم آخر خفى كان يشعر به وهو ما عرفه بعد ذلك حين كبر ويسمى بألم الكرامة .. أو وجع الكرامة. ولـــيس مقصوداً فى خاطره كرامة الإنسان التى تتبعثر حين يضرب ولكن كـــرامة الإنســـانية الـــتى تهدر حين يمنع الإنسان من إعمال عقله. كرامة الإنســـان فـــى عقله. فى أن يفكر بحرية . فى أن يحاول ويجتهد فيخطئ فيتعلم. فى أن ينفذ ويستشف ويخمن ويتوقع ويتنبأ ويحدس إذا جاز للحدس أن يكون فعلاً إرادياً. إذا منع الإنسان من كل ذلك فلا كرامة له .

دخل سرادق العزاء الذى كان يفيض بالألم معزياً صديق عمره فى وفـــاة ابـــنه الشاب فى "حادث أليم" . هكذا يصفون أى حادث يودى بحياة إنســـان حادث أليم .. أن يحترق فى طائرة أو تصدمه سيارة أو يلتهمه أسد أو يســـقط فـــى بالوعـــة أو يـــنهد فوق رأسه سقف بيته أو تخترق صدره رصاصـــة تطلق ابتهاجاً فى عرس . وهى أمور تحدث بشكل مفاجئ ولا يمكـــن تفاديها لأن الروح مقدر لها أن تغادر الجسد فى تلك اللحظة وبتلك الوســـيلة .. إذ بيـــنما هـــو يمضى فى طريقه فى أمان الله ملتزماً بأصول المشـــى فى الشارع تصعد سيارة مجنونة إلى الرصيف لينتهك مخه تحت عجلاتها فى موقع غير محتمل على الإطلاق أن توجد فيه سيارة مع إنسان ولكـــن هكـــذا قدر لهذا الشاب ابن صديقه أن يموت بهذه الطريقة وفى هذا

المكـــان وفـــى هذا التوقيت وقدر لقلب أبيه أن يتلوى من الألم بعد أن كان بالأمس فى قمة فرحه لنصر كبير أحرزه والمقارنة بين صورته فى الأمس وهو فرح وصورته اليوم وهو حزين تثير الاندهاش أكثر مما تثير أى شئ آخر. كيف تتقلب الحياة هكذا فى وجه الإنسان ؟ كيف تغدر به ؟ هل فكر الأب لحظة وهو فى قمة سعادته بالأمس أنه سيكون فى قمة تعاسته اليوم ؟ وهــل كـــان الابن وهو يشارك أباه سعادته بالأمس يعرف أنه تبقى بضع ساعات على وجوده فوق سطح الأرض ؟

جلـــس قـــبالة صــــديقه فى السرادق . تفرس فى وجهه .. استثمر قدراتـــه كرسام فى أن يتصور هذا الوجه فى مراحل العمر المختلفة ابتداء بـــه وهـــو طفل وانتهاء به وهو مسن وعلى وشك الموت ثم موته واندثار ســـيرته . ثـــم بداية مرحله جديده لا نعرف عنها شيئاً. ثم حاول أن يتذكر رحلـــة كفـــاح صـــديقه فى الحياة والأفراح والملمات التى عبرت به . إنه يحـــاول أن يرى الصورة كاملة .. يحاول أن يجد معنى من خلال تجميع أجـــزاء الزمن ولم الأحداث جنباً إلى جنب .. مشكلتنا فى الحياة أن الحياة ذاتهـــا تلهيـــنا عـــن أن نراها دفعة واحدة منذ بدايتها إلى نهايتها .. فنراها ونعيشـــها جـــزءاً جـــزءاً .. مثلما ترى وجه الإنسان وقد توزعت أجزاؤه متـــباعدة عن بعضها البعض فترى الأنف معلقاً فى السقف وترى كل عين ملتصقة بجدار وترى اللسان بارزاً من الباب . شئ مضحك .. هكذا تفعل بـــنا الحياة حتى لا نضبطها ونواجهها . تشغلنا بالحاضر فيستغرقنا بالجوع والعطش والجنس والنوم والغيرة والتسابق وتلهينا بالمستقبل فنقلق ونخاف وتنسينا الماضى فتندثر الأحزان وتبهت الأفراح. ليس عندك دقيقة لتستجمع الصورة وتلم الأجزاء لتفهم شيئاً .

ترك السرادق بتأثر قد خف نسبياً حين استطاع أن يجمع بعض الأشلاء رغم زئير شيخه الضرير وتحذيره، وقادته قدماه إلى أحد الأضرحة لأحد أولياء الله الصالحين .. دفع رشوة للحارس ليتيح له الزيارة فى غير موعدها. "فعل فاسد يسهل فعلاً طيباً" غرس أصابع كلتا يديه فى النحاس اللامع للضريح .. شده بقوة ناحيته وكأنما يريد أن يخلعه من مكانه ثم استرخت أصابعه واقترب بجسمه وكأنما يريد أن يحتضن شيئاً قبل السور الحديدى وبكى هكذا كان يأمره الشيخ الضرير وها هو ذا يذعن وسمع صوت شيخه وهو يباركه ويمتدحه .. اقترب منه الحارس وأسقط على ظهر يديه عطراً مركزاً لا تشمه إلا فى هذه الأمكنة . فتذكر أمه .. غادر المكان أكثر استقراراً فقد أرضى شيخه وفعل مثلما كانت تفعل أمه .. إنها حلاوة الطاعة وأمن التسليم وطمأنينة الاستكانة وراحة عدم السؤال، لا تسأل فتفسد أمنك .

وخطر له خاطر مجنون فاتجه إلى ناد ليلى أحبه فى شبابه، رقص قلبه على الباب وتجاوبت روحه مع نغمات الموسيقى التى استقبلته بترحاب وهو يتخذ مجلسه وحيداً، ظلمه المكان زعزعت حواسه وأيقظت شهوته للحب وبالتحديد معاشرة امرأة .. الحياة إنها الحياة .. السر الأعظم .. رجل وامرأة .. ثم طفل أو حتى لا طفل . المهم اللحظة الكبرى . الذروة .. كل شئ يدور حول هذه اللحظة الحياة والموت السلام والحرب . الحب والقتل إنها لحظة . مجرد لحظة . ولكنها تحوى كل شئ تختزن كل معنى وكل قيمة وكل هدف وكل اتجاه .. ابتسامة الراقصة أضاءت كل جنبات نفسه رائحة عطرها ملأته بالنشوى .. ثم أخذت تتلوى فنشطت كل خلايا جسده .. طلب خمراً فأعطت لكل شئ بعداً أعمق وطرب إيما طرب

للموسيقى المصاحبة للرقص وأتحفه المطرب بمجموعة من الأغنيات التى صاحبت سنوات عمره الأولى فشعر بأنه يحب الحياة . كم هى جميلة، ذلك الفـن وتلـك النساء وهذه الروائح وهذا الطعام وجاءته الراقصة لتسامره وعرض عليها عرضاً فوافقت واشترطت مبلغاً محدداً فوافق .. نظر إليها بحب وإشفاق فالمبلغ كان زهيداً أمام جمالها الفائق وخفة ظلها ورثى لحالها بعـد أن تكـبر فتبور بضاعتها ولا يقبل عليها أحد وهل سيتاح لها الوقت لتـتوب أم ستفعصها سيارة وهى فوق رصيف أو تلقى بنفسها من ارتفاع شاهق هرباً من حريق .

قـام مـن نومـه على قرف وكانت قد انصرفت مباشرة بعد أداء مهمـتها .. تـبخرت الخمر وطارت معها أحاسيس النشوى . فخرج إلى حديقـة بحثاً عن هواء نظيف . دهش للألوان المتعددة للزهور وكأنه يراها لأول مـرة .. أو ربمـا هـو يراها بعين جديدة .. درجات وتنوعات من الألـوان ما أروعها تلك الأوراق الرقيقة النحيلة وما يشع منها من روائح مختلفة .. هل كل ذلك من باطن الأرض ؟

وعلى متسع أخضر شاهد أطفالاً يلعبون يصرخون ويتصايحون .. يـتدافعون ويتضاربون يضحكون ويبكون .. ينتصرون وينهزمون وبينهم واحـد يتبعونه دون اعتراض وبرز آخر يناوئه وينازعه السلطات فانقسما فريقين لكل رئيس .. ثم نشأت معركة حامية انفضوا بعدها والغيظ يملأهم . وفـى مكان متوار من الحديقة رأى شاباً وفتاه يتبادلان القبلات وقد غابا عـن الدنيا .. اقترب أكثر فلم يدركا وجوده امتدت يد الشاب لتعبث بأماكن أخـرى مـن جسد الفتاة قاومته بضعف دعاه إلى مزيد من التطاول . ما أعـذب الاسـتغراق الـذى ينسيك كل شئ ما أعظم النشوة واللذة والإقبال

والمـــيل والحماسة إنها مصادر للطاقة وللنور، وفى مكان آخر من الحديقة نصف مأهول جلس عجوزان تحت شجرة يأكلان ببطء شديد، وينظران إلى لا شئ من حولهما . وما أن اقترب منهما حتى بادره الشيخ بالتحية ودعته هـــى إلى كوب من الشاى جلس معهما، هما متزوجان منذ خمسين عاماً .. ســـتة من الأولاد والبنات . مات اثنان . والأحفاد عددهم عشرة . وإحدى الحفيدات على وشك الزواج . الشجرة تفرعت واستطالت وانبعث من جهاز تســـجيل اصطحباه معهما أغنية أذيعت قبل مولده، تحدثا عن متاعبهما فى بناء مقبرة جديدة على أرض اشترياها فى منطقة نائية يودان اللحاق بالدفن فيها لأن المنطقة صحية وهواءها نظيف .

وحيـــن هم بالانصراف من الحديقة أذن المغرب فوجد جامعاً على أطراف الحديقة توضأ ولحق بالمصلين، جميعهم من عمال الحديقة وبعض الزائريـــن رقـــيقى الحال . ولا يزور الحديقة العامة إلا كل من رقت حاله وضعف مقامه .

وحيـــن خـــرج من الجامع لم يجد حذاءه وبدلاً من أن ينزعج ظل يضـــحك بصـــوت مرتفع أثار استياء المصلين وصمم على أن يمضى إلى منزـــله حافـــياً وبيـــنما هو فى الطريق أخذ الناس يتطلعون إليه ويبتسمون ولكـــنه أصر على اختراق أهم شوارع المدينة مشياً .. ومن وقت إلى آخر كـــان يطمئـــن إلـــى إحكام رباط عنقه . شك فى أمره أحد رجال الشرطة فاقتاده إلى حيث حققوا معه.

لم يصدقوا روايته . وبات ليلته فى التخشيبة وفى الصباح ذهبوا به إلى مستشفى الأمراض العقلية وكان لا يزال يحتفظ بأناقته أما جوربه فكان فى لون الطين. رحبوا به وظنوا به نوعاً جديداً من الجنون لم يوصف بعد

فـــى كتب الطب النفسى. نسوه فى المستشفى لعدة أيام وتحول من مراقب إلـــى مشـــارك. اندمج فى العالم الجديد شعر بارتياح لم يشعر به من قبل. عـــثر علـــى الســـلام المنشود فهم لغتهم وتسرب إلى عقولهم وتغلغل فى نفوســـهم. ولرزانـــته الشديدة اعتبروه رسولاً جاء ليشفع لهم .. واعترض آخـــرون واعتبروه إلهاً أو ملكاً هابطاً من السماء وتولى الزعامة الروحية يقـــبلون يـــده ويجلسون تحت قدميه وهم مشتاقون للخلاص وطلبوا منه أن يخـــرج عن صمته فتكلم وطلبوا منه أن يأتيهم بكتاب يقرأوه فأملاه عليهم. فرحوا بالكتاب وأخذوا يتداولونه وينفذون ما جاء فيه .. اكتشف أن كل ما جاء بالكتاب هو صدى لما سمعه من شيخه الضرير وهنا فقط أكبر الدور العظـــيم الـــذى لعبه هذا الشيخ فى حياته رغم جهله وقسوته ورغم حقارته أيضـــاً الـــتى تذكرها الآن فقط حين حاول هذا الشيخ فى إحدى المرات أن يعتدى عليه مثلما اعتدى على كثير من الأطفال .



(١٥)
كيف تنظر إلى امرأتك

هكذا حكت لى، وأنا أحاول قدر استطاعتى صياغة ما قالت مستعيناً بعباراتها البسيطة التى تكشف عن انفعالاتها الصادقة . استرسلت على مدى ساعة كاملة دون توقف، ولم أنطق أنا بكلمة ولكنها كانت قادرة على قراءة وجهى وجاهدت ألا أظهر تعبيراً يجعلها تحجم عن صراحتها الصارخة . قالت لقد أحببت وأخطأت وطلبت الطلاق من زوجى لأرتبط بالرجل الذى أحبه، وأحببت هذا الرجل بالذات لأننى قرأت فى عينيه الاحترام والتقدير لشخصى، وكأننى كنت عطشى لهذا الإحساس، واكتشفت أن أهم ما تتوق إليه المرأة هو الشعور بالارتفاع، ليس المال وليس الجنس وليست الكلمات الجميلة شكلاً الخالية من أى معنى، إنها فقط نظرة عين الرجل التى تحمل احتراماً وتقديراً للمرأة وترفعها إلى السماء .

من أين أبدأ؟ وهل للتسلسل الزمنى أهمية؟ أم قسوة الأحداث هى التى تفرض نفسها فى البداية!! أم المكان وتداعياته هو الذى يبرز الأحداث ويحفر لها موقعها فى الذاكرة فلا تنسى ولا تكف عن تصدير الألم!؟

ليس مهماً من أين أبدأ، ولكن الرسالة التى أود أن تصلك هى أننى لم أكن طفلة سعيدة، ولا حقتنى التعاسة فى مراهقتى، وحطمنى الفشل فى شبابى، ولم أشعر بالفرح الحقيقى إلا مع بداية الخريف .

ولأبدأ من عند الفرح حين التقيت به لأول مرة، لا أدعى أن النظرة الأولى حركت شيئاً فى داخلى، كما أننى امرأة لا أتمعن فى أشكال الرجال، لا أحدق، ولا أتذكر أن رجلاً شدنى بواجهته الخارجية، أنا أؤمن بأن الكيان الإنسانى الحقيقى يقبع فى الداخل، ولا يفصح عن نفسه إلا بعد معايشة.

وعمومـــاً لم يكن فى مظهره ما يلفت الانتباه، إنسان عادى فى كل شـــئ تقريباً، جاء يفحص بعض الملفات فى المكان الذى أعمل فيه، وكانت مهمـــتى تســـهيل الأمـــر له، كان الأمر يقتضى تعاوناً مخلصاً من جانبى، وبالـــرغم مـــن أن مـــن سمات طبيعة عمله الشك فى كل ما يقدم إليه من مســـتندات إلا أن تســـاؤلاته كان يصيغها بلغة مهذبة توحى بأن الافتراض الأول لديـــه هـــو الـــثقة وأنه يتبنى مبدأ أن كل إنسان صادق إلى أن يثبت العكـــس، بـــل إن هذا "العكس" لم يكن مطروحاً فى ذهنه منذ البداية وحتى انتهت مهمته .

ورحل حاملاً أوراقه وقلبى بين طياتها، وأعجبنى هذا الأسلوب غير المـــألوف فـــى العمل وقلت لنفسى إن طبيعة عمل هذا الرجل لم تغير من ســـماته النفسية الأساسية، ومن يفترض صدق الناس هو إنسان صادق بل ويملك مشاعر إيجابية تجاه كل البشر .

وأعود إلى اللحظة الحاسمة التى سبقت رحيله والتى استمرت ربما عشـــر ثـــوان حين شد على يدى ونظر إلى عينى وقال بصوت يحمل ألف معـــنى: أشـــكرك، كلمة واحدة ولم يزد، أحسست بعدها بأننى ارتفعت إلى السماء . إنه الامتنان الحقيقى، إنه الصدق، إنه التقدير، إنه أنا، إنه القيمة، أنـــا التمـــيز، أنا النجاح، أنا شئ كبير، أنا شئ مهم، أنا .. أنا .. انا .. لقد اكتشفت أنا، أنا التى انهال عليها التراب سنوات وسنوات منذ أن تركنا أبى

إلى امرأة ساقطة وأهملتني أمي، ثم أنكرتني المدرسة لعدم تميزي وأقنعوني بغبائي، ثم خطيبي الأول الذي تركني فجأة وبدون مقدمات وتزوج من أقرب صديقاتي، ثم الرجل الذي تزوجته منذ عشرين عاماً والذي وضعني في الثلاجة منذ الليلة الأولى لزواجنا، نظراته الباردة كانت تقتلني، كان ينظر إلى كأنه يقف في مكان مرتفع، كان يشعرني بالدونية بأنني أقل، بأنني تافهة، بأنني لا شئ، لم يكن يثور لم يكن يسب أو يضرب، لم يكن بخيلاً، ولم يمنع عني نفسه . ولكن كان يفعل كل شئ باستعلاء، أخذت أتلاشى تدريجياً حتى أصبحت لا شئ وكبر الأولاد، وانطفأ وهج الغضب والتذمر والرفض والعصيان، استسلمت تماماً، وانطفأت، إلا أن عقلي ظل متيقظاً، أعمل بجد، وأرعى أولادي باهتمام وتركيز، الألم الوحيد الذي ظل معي هو عدم الثقة في النفس، أشعر بالتلاشي أمام أي امرأة، قتل في هذا الرجل إحساسي بأنني أنثى، جمدني، كل شئ يصدر عنه بارد .

وحين عاودتني الروح، وتيقظ القلب، واشتعل الوجدان زأرت بالجوع، نشطت كأنثى، ولم يمض شهر على رحيل سارق قلبي إلا وهو على الطرف الآخر من أسلاك التليفون بدون توقع مهنئاً بقدوم العيد، ووثبت كنمرة ملتاعة على هذه الفرصة والتي تمخضت عن لقاء ولقاء ولقاء، كان متحفظاً في البداية ولكن بذكاء الأنثى العطشى دفعته برفق حتى اعترف كل منا للآخر بفيض مشاعره .

والآن هل تستطيع أن تساعدني في طلب الطلاق، زوجي يرفض تطليقي، هل تستطيع أن تشهد معي أنه قد وقع على ضرر، الزوجة تطلق إذا ضربها زوجها أو أهانها، أما الضرر الذي لحق بي فهو أفدح، سأترك

له كل شئ، سأتنازل عن كل شئ، أريد فقط أن أنجو بروحى التى استعدتها ولا يمكن أن أفقدها مرة أخرى سأقاتل، سأقاتل، سأقاتل .

وأنـــتم يـــا رجـــال كل العالم، احذروا إيذاء روح المرأة، احذروا إهانتها، احذروا تجاهلها، احذروا التعالى عليها .

أيها الرجل، تستطيع أن تمتلك روح امرأتك وعقلها وقلبها وجسدها إذا حملت نظراتك إليها الاحترام والتقدير .

(١٦) الأم

١-الشـــوق:

رغم خلافاتها الكثيرة مع الوالد إلا أنها أوصت بأن تدفن بجواره . ولولا الأصول الدينية لطلبت أن ترقد بجانبه مباشرة فى نفس العين . مات قبلها بست سنوات، انطفأ السراج، هكذا قالت عنه يوم أن غادر، وانطفأت هـــى أيضـــاً . ثـــم غادرتنا، لقد أوحشتنا، سنزورك يوم عيدك، عذراً لن أســـتطيع أن أحمـــل لك هدية كما تعودت، لماذا لا تزورينني فى أحلامى، أشـــتاق لأن أرى وجهـــك يا وجه الخير، كيف تطلين علىّ من عالمك، أو كـــيف أستطيع أن أطل أنا حتى وإن نزلت بقدمى إلى حيث ترقدين .. طلة مـــن وجهـــك الحـــانى تساوى كل مباهج الحياة، وأى حياة، لقد تعبت فهل تسمعينني؟ لا تقلقى أنا بخير بفضل دعواتك .

٢- الحفـــيد:

حفـــيدك كـــبر .. ستفرحين جداً إن رأيته .. يقول عنك إنك أطيب إنســـانة قابلهـــا فى حياته .. الصغير قد استطال وأصبح يصدر أحكاماً .. ســـنواته الأولـــى كانت بين ذراعيك .. رضع السرور من ابتسامتك وطعم الأمـــان مـــن صـــوتك، تصورى أنه الوحيد الذى يحتفظ بصورة جده فى حجـــرته، لم أجرؤ أن أسأله وأين صورتك؟ لعله لم يجد صورة لك، كنت تعزفين عن المناسبات ولذا فحظك من الصور قليل .. تدفعين بنا إلى الأمام

وترضـــين بالصـــفوف الخلفية، تدفعين بنا إلى المسرات وتقبعين أنت فى البيت . حفيدك يريد أن يتزوج، آه لو عشت لترى الجيل الثالث . تصورى أنه ورث بعض طباعك، إنه حنون وصامت .

٣- البيت القديم:

أيـــن تعلمت الحكمة يا سيدتي؟ أم أنك عرفت بفطرتك البسيطة أن ســـر نجـــاح أى علاقـــة إنسانية هو التواضع .. أستطيع أن أعدد عشرات الصـــفات الحمـــيدة الـــتى تتمتعين بها ولكن أعظم صفاتك أو على رأس القائمـــة: التواضع، ولذا أحبك الجيران، هل تذكرين البيت القديم .. أربعة طوابق وأربع شقق وأربع أسر وأربع أمهات .. ثلاثة وأنت، كانت الأمهات الـــثلاث علـــى خلاف دائم مع بعضهن البعض، وكان التعالى هو المصدر الرئيســـى للانشـــقاق .. وهو نزعة لا يخلو منها إنسان، والتعالى يدفع إلى التفاخر والتباهى ثم يدفع إلى الغرور ثم يدفع إلى تحقير الآخرين، أما أنت يا عظيمة فإن كل من كانت تجلس إليك تشعر أنها الأعظم بفضل تواضعك ولذا كنت تهدئين من نزعات القلق والتربص والترصد . فأحببنك جميعهن.

وكنـــت تســـعين بالخير بينهن، وكان مجلسك هو مجلس الخير .. ومكـــانك هـــو كعبة الأمن والأمان . وبفضلك عرفت المعنى العميق للآية الكريمة: **إن الله لا يحب كل مختال فخور .**

٤- الخلـــع :

كـــان يجـــب أن تعيشى حتى ترين عجائب أيامنا .. لم يكن زوجك سى السيد ولكنك أنت التى عينته قائداً . ولم تكونى أنت تابعة ولكنك كنت مساعدة للقائد، ولم تتطلعى أبداً لمنصب القيادة لأنك كنت تؤمنين بأن الحياة

لا تستقيم فـي ظل وجود قائدين .. ولولا حزم القائد لما ظهر عطفك . ولـولا شـدة القـائد لما استبان حنانك، وكنت تحترمينه لأنه جاد وملتزم وشريف، لأنه صادق .. ولأنه حنون عند الحاجة، ولم يكن له فى الحياة إلا أنـت ونحن .. لم يهجرنا ولو ليوم واحد لمال أو لجاه، بل عشنا بالقليل .. والقليل كان مشبعاً لأن كله كان حلالاً .. وبفضل هدوئك وحكمتك حفظت لنا التوازن والاستقرار والاستمرار .

ورغـم صعوبات كثيرة إلا أنك واصلت المسيرة، الحياة تحتاج إلى صـبر. والـزواج مسـئولية والأمومة مسئولية، والمرأة الأنانية لا تصلح زوجـة، والمـرأة النرجسية لا تصلح أماً، والتضحية هى صلب وجوهر تكوين المرأة الحقيقية . أطمئنك.. ابنتاك بخير بفضل ما غرست فيهما من خلق دون أن تحتاجى إلى كتاب يقرأنه لأنك كنت تعتزين بكتاب واحد هو كتاب الله .

٥- بينى وبينها :

قرأت أنا ألف كتاب ولم تقرأى أنت إلا سطوراً قليلة .. جبت أنا كل بـلاد الدنيا ولم تزورى أنت إلا بلداً واحداً قلبه الكعبة وقبر الرسول عليه الصـلاة والسـلام، قابلت أنا مئات العقول وجادلتها أما أنت فعالمك بسيط بسيط ورغم ذلك كنت ألجأ إليك فى الملمات .. ورغم زياراتى المعتادة لك والـتى تكـاد أن تكـون يومية إلا أن بعض هذه الزيارات كان لها طبيعة خاصة وذلك حين تعترضنى مشكلة، أجئ إليك وأجلس صامتاً إلى الكرسى المجـاور لـك، ويطـول الصمت وتتظاهرين بأنك منشغلة فى أمر ما .. ويطـول الصـمت .. ثـم أنصرف دون أن أحكى لك مشكلتى ودون أن تسـألينى أنت . ولكن بعد مغادرتى كنت أشعر بالارتياح . كنت أشعر أن

لمشكلتى حلاً، بل كان الحل يعبر بصدرى وأنا أصافحك على الباب . كيف كـان يحـدث ذلـك؟ لا أعرف!! لا يوجد إلا تفسير واحد وهو أنك كنت تشعرين بهمى فتتوجهين إلى الله بالدعاء، فيقبل دعاءك فتتنزل علىّ السكينة ويلهمنى الله إلى طريق الصواب، هذه كانت عبقريتك .

٦- اليمامة :

كـان بالشباك بروز يمتد إلى الخارج فيما يشبه المصطبة .. حطت عليه يمامة وبنت لها عشاً ووضعت بيضاً أثمر بضع يمامات صغيرات .. وكانـت الـيمامة الأم تغيب بعض الوقت لتعود بطعام . وكنا نتكفل نحن بالمـياه، وظلت اليمامات تسلينا لوقت غير قصير حتى كبرت وحان وقت الاسـتقلال . وانـتهز أحدنا فرصة غياب اليمامة الأم وانتزع الصغار من العش .. وعادت الأم وفوجئت بخلو العش، فظلت تنقر زجاج الشباك بيأس وتنادى وأكاد أقول أن النداء كان مفسراً ومكوناً من حروف مفهومة تسأل بهـا عـن صغارها . وحين أستعيد ذكرى هذا اليوم يعصرنى صوت الأم الـذى مـازال يتردد فى أذنى كأحزن نداء سمعته فى حياتى .. وتشاءمت أمـى .. وظلـت تؤنبنا على ما فعلناه وما اقترفناه من جرم . إلى أن نزل ببيتنا نفس الحدث وكأنه عقاب . اختطف الموت شقيقتى .وكان بكاء أمى مطابقاً كل التطابق لنحيب اليمامة الأم حين فقدت صغارها .

٧- الوداع :

سـقطت فانكسـرت ورقدت الرقدة الأخيرة . وحين كان الألم يشتد تنهمر دموعها دون أن تنبس . اعتادت التعبير الصامت عن الألم خشية أن تـزعج أحـباءها .. أى قـوة وأى صلابة وأى رقة .. سبحان من جمع

الأضداد .. بل هى ليست أضداد فمن قلب الرقة انبعثت صلابتها وقوتها .
وكـان أكـثر ما يؤلمها هو أنها عاجزة عن أن تعتنى بنظافتها الشخصية وحيـن كان يأتى حديث الموت كانت تدعو أن تموت قبل أن يأتى مثل هذا الـيوم . يوم أن تعجز عن الحركة وبالتالى عن إدارة شئونها الشخصية ..
وكان الله رحيماً بها إذ بدأ وعيها يتراجع فلا تدرك ماذا ألم بها . وفى ظل الوعـى المـتدهور رددت أسماء بعينها على رأس القائمة أولادها وبناتها وزوجها وأمها وأبوها وأحفادها . وحظى حفيدها الأول والأكبر بأكبر قدر من ترديد اسمه .. ثم حانت النهاية بهدوء وبدون تفسير علمى .. وحرمت الدنيا من أنفاس كانت لا تفوح إلا بالخير والحب . وإن كنا قد تيتمنا إلا أن الخير فى الدنيا لم يتيتم لأنه مازالت على وجه الأرض أمهات.

(١٧)
الغـــدر

لــو أن ذهباً تحول إلى صفيح ليأست العقول .. ولو أن ملاكاً انحط إلــى شــيطان لهلعت النفوس .. ولو أن ثدى أم أرضع لبناً مسموماً لدكت الجــبال دكاً، ولو أن أباً استطعم لحم ابنه لتلوثت البحار من الألم وأغرقت مــا حولها .. ولو أن جمالاً استدار إلى قبح لتنازلت العيون عن الرؤية .. ولو أن حباً استحال إلى كراهية لانشقت القلوب.

ولفظــة "لو" فى اللغة تعنى استحالة وقوع الأمر . وهذه هى غلطة الإنسان الكبرى أنه يرفض تصديق مثل هذه التحولات، رغم أنه يراها تقع فى كل لحظة وفى كل مكان .. إلى أن يعايش موقفاً بنفسه ولنفسه فينهار.. وهــو انهــيار من نوع غريب .. ليس مجرد الوقوع الداخلى ولكنه تكسير وتحطيم لكل الأبنية والرواسخ والثوابت . وهى أبنية استقرت فى ضميره مــنذ زمن بعيد وتصور استحالة تداعيها فإذا هى تنهار كجبل من رمال . وآه من بيوت الرمل التى كنا نبنيها على الشاطئ .. كنا نتصور أنها تصلح للســكنى .. ثــم تأتى موجة تكتسح البيت فيتملكنا الشعور بالأسى . فنعيد البــناء على أمل جديد . ولكن الأمواج تعاود غدرها . ورغم ذلك لم نتعلم الــدرس . أو رفضــنا أن نتعلمه . فالغدر تحطيم لمعنى الحياة ذاتها . لا تصــبح للحــياة قــيمة أو ضرورة فى ظل الغدر . فالغدر هو الذى يحول

الذهــب إلــى صــفيح فتصير فقيراً، وهو الذى يحول الملاك إلى شيطان فتصــير مخدوعــاً، وهــو الذى يسمم لبن الأم فترضع الموت من مصدر الحــياة، وهــو الذى يحول أسنان الأب إلى أنياب ضارية تنهش لحم الابن فــتفقد كل أحاسيس الأمان، وهو الذى يدير الجمال إلى قبح فترفض الحياة فى ظل القبح .. إن الضربة القاضية التى تتلقاها من الحياة هى أن يتحول قلــب حبيبك أو رفيقك أو صديقك إلى كراهية .. حينئذ تريد أن تهبط إلى باطــن الأرض، إلــى أبعد نقطة من سطح الأرض لكيلا تسمع دبيب أقدام البشر، ولكيلا تشم رائحتهم، لتموت حياً .

هكذا يفعل بنا الغدر ..

ولكنــنا لا نريد أن نصدق أن الغدر من صفات البشر . وأنه يظل كامناً لوقت ما ورغم كمونه فإنه يظل يعتمل داخل النفس يغويها ويمهد لها الطــريق حــتى تأتى اللحظة المناسبة ليكشف الإنسان عن حقيقته واللحظة المناســبة هى اللحظة التى تكتمل فيها قواه ليثب وهو يزأر جاحظ العينين تمتد أنيابه وأظافره فى انحناءه إلى الأمام، وتتقبض عضلات الوجه لترسم صورة غير آدمية تدمى النفس والقلب معاً وتذهب بالعقل .

ولحظــة القــوة عــند الإنسان الغادر هى نفس لحظة الضعف عند المغدور به . وكأن الحياة هى صراع قوى بين أطراف من البشر تربطهم علاقــات بعضــها حمــيم ووثيق، يرقى حيناً إلى صلة الرحم، ويرقى فى أحيان أخرى إلى آخر حدود المودة والرحمة . فإذا البيت ينهار . تسقط كل الســقوف والجــدران وتتلاشى فتجد نفسك عارياً فى أرض فضاء . عارياً تمامــاً كمــا ولدتك أمك .. لا شئ يسترك وتدرك أنك كنت تتغطى بالوهم وتســتظل بالمكر وتتدثر بالكذب لا شئ .. لا شئ على الإطلاق .. عرى

وعـــراء ويتـــناثر كفـــاح السنين هباء تنهار أحلام .. يتبدد أمل .. يضيع الاســـتقرار .. ولـــيس مهماً ما يفقد الإنسان من ماديات فالزلازل تعصف أحـــياناً بكل ما يملك الإنسان وهى أيضاً تباغت الإنسان كأنها غدر مبيت . ولكـــن الإنسان لا يحزن . إنما يحزن الإنسان لغدر إنسان آخر كان يظنه عزيـــزاً ويحزن الإنسان أكثر حين يصل إلى قناعة بأن هذه هى الحياة .. وهذا هو الإنسان .

كان الطريق خاوياً من الماره فالليل قد انتصف .. وكان الظلام فى داخله أشد وطأة من ظلام الطريق الذى كانت تبدده فى بعض أجزائه أنوار متناثرة تنبعث من بيوت محكمة الإغلاق من شدة البرد وخوفاً من الاقتحام المسلح .

كـــان المشى فى هذا الشارع المتطرف أمراً غير آمن ولكنه لم يأبه وماذا يمكن أن يفقد أكثر بعدما فقد أسرته .

لقـــد نجحت زوجته اليوم فى الحصول على الطلاق ونصف البيت ونصـــف مـــا يملك فى البنوك وغداً سينظر فى أمر حضانة الأطفال وفى الغالـــب سيحكم لصالحها لأن الثلاثة قد انحازوا إليها ليحصلوا على مزيد مـــن الحـــريات إذا خرج هو من البيت .. الولد الأكبر يحبنى أما المتوسط والابـــنة الصغرى فقد شهدا ضدى فى المحكمة .. قالا إننى أمنع أمهما من الذهـــاب إلـــى العمـــل قالا إننى أنهرها بشدة إذا عادت متأخرة قالا إننى ضـــربتها فـــى إحـــدى المرات، الابن الأكبر رغم حبه لى قال إننى كنت أنتقدها بشدة .. أقلل من قدرها .. أسفة من آرائها .. أستهين بمشاعرها .. أحقر عقلها .. أعايرها بفضلى عليها .

قال الأولاد عنى إننى مغرور ..

وبينما هو سابح فى أفكاره غارق فى أحزانه هبط المطر بشدة دون إنذار فالسماء تتسم بالغدر فى هذه البلاد وغدر السماء معناه أنك لا تستطيع أن تتنبأ بحال الجو فى اللحظة القادمة وأنك قد تنعم بالدفء فى لحظة ما ولكن فى اللحظة التالية يتبدل كل شئ .. من النقيض إلى النقيض وهذا هو الغدر بعينه .. وهذا هو ما حدث معى ومن أسرتى أقرب الناس لى . زوجتى وأبنائى.

وبينما هو يمضى بنصف عقل اصطدمت قدمه بشحاذ افترش الرصيف بالعرض وليس بالطول استناداً إلى جدار مثلما يفعل بقية الشحاذين فى هذه البلاد. كاد يقع حاول أن يعتذر ولكن الشحاذ لم يمهله وانهال عليه بسيل من الشتائم من الصعب كتابتها الآن ولكنها تتعلق بشرفه وشرف أمه حسب مفاهيم الشرف فى البلاد الحارة التى جاء منها وكأن الشحاذ وهو من مواطنى هذه الدولة قد توقع أن الذى اصطدم به من الغرباء فشتمه بما يليق به وبما يوجعه.

لم يوجعه شرف أمه بقدر ما أوجعه وصف الشحاذ له بأنه أحمق ومغرور وسر وجيعته لهذه الشتمة أن زوجته خلعت عليه نفس الصفات فى المحكمة وكانت من مبررات طلبها للطلاق.

وحتى هذه اللحظة كان يعتقد أن زوجته تبالغ وتكذب لتبرر طلب الطلاق . ولكن حين قالها الشحاذ استيقظ لديه كائن ما يقبع فى داخله ممسكاً بمصباح يضئ له بعض جوانب داخله الخفية.

يا أيها الشحاذ أنت لست شحاذاً إنما رسول مبعوث جئت لتبلغنى رسالة لا يوجد شحاذ ينام بعرض الطريق أنت اصطنعت الموقف ولذا لابد أن تسمع ردى على ادعاءاتك وادعاءات زوجتى.

وكـــان قـــد قطع مسافة بعيداً عن الشحاذ فعاد أدراجه ليحدثه ولكنه فوجـــئ باخـــتفائه فتيقـــن أنه لم يكن شحاذاً حقيقياً بل لم يكن إنساناً على الإطلاق . بل لم يكن موجوداً أصلاً ولكن هيئ له . أما صوته فقد أتى من مكان ما بعيد .

ولذا قرر أن يتحدث بصوت مرتفع حتى وإن لم يكن موجوداً أمامه .. إنه حتماً سيسمعه قال : كنت شيئاً ولم تكن شيئاً .. أكبرها بعشرة أعوام ســـمحت لى بالاستقرار والتفوق خارج البلاد .. كان اسمى مقروءاً وكنت صاحب رأى لا أدعى أننى كنت فيلسوفاً حتى لا أبدو مغروراً ولكننى ذكى ومـــثقف .. أما هى فبسيطة أو كانت بسيطة فى كل شئ وأعنى بالبساطة تواضع المستوى .

وعـــبارة "فـــى كل شئ" أعنى بها جمالها ومالها وأصلها وحسبها ونســـبها وثقافتها وأعترف أننى أيضاً متواضع فى أصلى ولكننى الآن شئ مخـــتلف علـــى الأقل أنا أفضل وأحسن منها وتزوجتها لبساطتها لأننى لا أريد إنسانة تظن نفسها شيئاً كبيراً فتزعج أيامى ولم تكن ذات طموح رغم تعليمها الجامعى وكانت ترانى شيئاً كبيراً عملاقاً وفرحت بالحياة فى دولة أجنبـــية كانـــت وديعة ورقيقة سهلة ومطيعة طيبة وقريبة وكنت لها أستاذاً علمـــتها لغـــة القوم الذين أعيش بينهم .. علمتها بعض حرفتى .. تعثرت ساندتها كنت أقوم بعملها وأنسبه إليها ونأخذ على ذلك مالاً .. أنجبت طفلاً ذكـــراً ثم ذكراً آخر .. ثم أنثى .. زادت الأعباء ولكن هذا واجبها . أما أنا فقد كنت الفارس .

تعلمت أشياء تقولها وبدأت تقاطعنى ولكننى كنت قادراً على إسكاتها بدأت تتحدث بمفاهيم القوم الذين نعيش بينهم فذكرتها بأصلها . أنفقت بعض

مالها على ملبسها فذكرتها بأننى صاحب هذا المال لأننى كنت أقوم بعملها فـبدأت تتعلم كيف تمارس عملها دون الاستعانة بى . أغاظتنى محاولات الاســتقلالية قاومتها فامتثلت . مضت عشر سنوات ربما أكثر بالقطع أكثر فالولد الأكبر فى الخامسة عشرة .

واجهتـنى صــعوبات فــى العمل .. الزملاء يحقدون .. يحسدون يغــيرون فأنا الأفضل دائماً.. قل الدخل .. اعتمدنا أكثر على دخلها هى . زاد حجم عملها .. زادت ساعات خروجها من البيت وزادت أيضاً ساعات بقائى فى البيت اشتعلت ثورتى أهملت فى كل شئ حتى الطعام تكاسلت فى إعــداده . اعــتذرت باحتياجــنا للمال من أجل الأولاد . لا ليست هذه هى الحقيقة لقد طغى طموحها صارت تناقشنى بجرأة خلتها أحياناً خروجاً عن الأدب أصبحت تصمم على أرائها باتت لا تعجبها بعض أفكارى .

وتوقفــت عن العمل تماماً لم تكن ظروفاً طارئة ولكنها البطالة التى عمت العالم أو ربما صراعات أبناء المهنة الواحدة . وأصبحت عاطلاً كل الوقت وأصبحت تعمل كل الوقت .

وفجأة تلون كل شعرى باللون الأبيض هبط فجأة .. وكأنما أمسكت بفرشــاة وطليــت رأسى باللون الأبيض .. ازداد عمرى ثلاثين عاماً بفعل اللــون الأبــيض وبفعل الفراغ . انصرف الأولاد عنى ازدادت عصبيتى ضــربتها مــرة حين عايرتنى بتعطلى ثم تعطل شئ آخر لدى وهو قدرتى الجنســية فعايرتــنى فضــربتها فامتنعــت بعد ذلك عن النوم معى أقصد مضاجعتى .

وذات صباح كانت على موعد مع شخصية مهمة لها ارتباط بعملها اســتغرقت وقتاً طويلاً للاستعداد بدت كأنها على موعد غرامى منعتها من

الخـــروج جـــن جـــنونها قذفتنى بزجاجة خمر فارغة انهلت عليها ضرباً وكسرت ذراعها .

وحـــدث مـــا لـــم أكـــن أتوقعه على الإطلاق استدعت الشرطة .. وتســـتطيع بعـــد ذلك ودون الدخول فى تفاصيل أن تتوقع تداعى الأحداث انتهاءً بالطلاق.

كانت تصيبنى غمة حين أرى وجهها الجامد فى المحكمة .. ياه .. من يصدق .. هل هذه هى المرأة التى عرفتها طفلة بسيطة بريئة متواضعة ســـهلة وطيـــبة. ما هذا الوجه الناري!! من تكون هذه المرأة!! أين ذهبت الخمســـة عشر عاماً!! ألا تستطيع أن تتذكر ما فعلته من أجلها!! من تكون هـــى بدونـــي!! أنا الذى صنعتها .. لولاى لما كانت هنا .. لولاى لكانت موظفة بسيطة فى بلدها، زوجة رجل بسيط من طبقتها الاجتماعية أنا الذى رفعـــتها . أنـــا الذى ثقفتها أنا الذى علمتها الصنعة .. أكسبتها مهنة صعبة وسعيت بعلاقاتى إلى تعيينها فى وظيفة دائمة ومرموقة .. أنا الذى عرفتها بكبار القوم .

إنهـــا تطلـــب طـــردى من البيت والاستيلاء على نصف أموالى .. وتطلـــب الطـــلاق وتطلب ضم الأولاد لها لأننى لا أصلح لرعايتهم لأننى عاطل . أى سأصبح عارياً وفى العراء .

فـــيا أيهـــا الملاك أو الشيطان الذى تجسد لى فى صورة شحاذ هل ســـمعتنى .. هل فهمتنى . هل اقتنعت بحكايتى أم مازلت مصراً على أننى أحمق مغرور ..

ويـــا أخى حتى لو كنت أحمق ومغروراً فإن زوجتى غادرة.. أيهما أفظع عند الله الحمق والغرور أو الغدر .

ســـأجيب أنا ولن أنتظر إجابتك التى ستصلك من فوق .. الغدر يا ســـيدى هــو قمة عدم الأمان . الغدر ضياع لكل قيمة أخلاقية وجمالية فى الحــياة . الغــدر سفالة ودونية، الغدر ضياع. الغدر إدانة للإنسانية الغدر إهدار للإنسانية .

وعاد ينادى بصوت مرتفع : يا أيها الشبح الذى ظهر واختفى . هل تسمعنى .. أجبنى إذا كنت حقاً عادلاً ومنصفاً هل من العدل أن يضيع منى كــل شئ . هل من الإنصاف أن تدمرنى امرأة أنا صنعتها .. ولكنه لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً فشعر بإحباط شديد .

ومن بعيد لاح له بيته مضاءً .. اقترب واقترب شعر بألم فى بطنه اقــترب أكثر سمع موسيقى مرحة تنبعث من الداخل وصل إلى السور .. تســلقه .. فغــير مسموح له بدخول البيت بأمر القاضى انزلقت قدمه فوقع فأصيب فى إحدى ركبتيه قاوم الألم واتجه إلى حيث تنبعث الموسيقى نظر مــن الشباك الزجاجى طالع أبناءه يرقصون مع أصدقائهم فى مرح وسعادة فالليــلة السبت بداية عطلة نهاية الأسبوع تراجع بظهره وقد ملأت الدموع عينيه وفاضت .

(١٨)
لم يكن غدراً

تقاوم الأشجار الموت طويلاً. ولا يلحظ موتها أحد إذ يأتيها الموت تدريجــياً.. كل الكائنات تموت دفعة واحدة إلا كل ما خرج من الأرض.. تظل الأرض تعطى وتعطى على أمل أن يأتيها الغيث .. حتى فى لحظات الاحتضـــار الأخيرة يظل الأمل قائماً، فإذا هطلت الرحمة تُبعث الحياة من جديد .. يعود الاخضرار والنضارة.. تنتعش الأرحام والأفئدة يقوى النبض تــزدان الأفرع بأحلى الثمار، يتلون الكون، يتعطر الهواء برائحة تهيج كل أدوات الحب .. كل هذا بفعل الرحمة التى ترقق باطن الأرض.

أمـــا إذا حل الغضب وأمسكت السماء ومنعت الرحمة حل الجفاف، وتصــــمد الأرض تعصر حباتها وترسل رصيدها المخزون من الرحمة إلى أعلـــى لتظل السيقان الخضراء لينة . حتى آخر قطرة . تظل الحياة قائمة حــتى أخــر قطرة . يظل الأمل باقياً بينما ملك الموت يرقب ويتحفز فإذا صـــعدت آخر قطرة يعلن الموت انتصاره .. والموت هو اللاعودة، الموت يأتى بعد اليأس . لا يأتى الموت إلا بعد أن تنفد الرحمة تماماً ويغادر آخر شعاع أمل.

وقلـــوب البشر كالأشجار .. تظل تقاوم الموت طويلاً تظل تتغذى على رصيدها المخزون من الذكريات الحلوة . تظل مصابيح الأمل مضيئة

بفعـل زيـوت تعتصـر مـن حبات الحب الذى كان .. ما أهم الذكريات لاسـتمرار حـياة القلوب .. تعيش القلوب على الذكريات .. ذكريات حب حيـن كـان يقطر رحمة وحناناً .. وحين أفضى الحب إلى زواج، أصبح يقطـر مـودة ورحمـة فتزداد القلوب رقة وتزداد النفوس وداعة وتزداد الأرواح سمواً . نور من نور . ونور على نور.

أضـاء حـياتى بقدومه . تحقق حلمى بالسفر إلى العالم الجديد .. سـعدت بكفاءته وثقافته .. فرش لى آلاف الأميال بورود حية تبوح بشتى عطـور المحبة والإخلاص والفكر ومعها الوعد برعايتها وتعهدها بالسقيا من ماء العشق لتظل حية تلوح بالأمل فى حياة مشبعة مستقرة وحافزة على تحقيق الطموح وبلوغ الأهداف .

كانت أحلامى بسيطة . بيت بحديقة ترويها الأمطار ويلقحها الهواء . وسـيارة صغيرة يقودها زوجى وأنا بجانبه، ويجلس خلفنا طفلانا ذكران أو اثنـيان أو ذكـر وأنـثى لا يهـم، وثلاجة نصف ممتلئة لا نجوع منها وأن تكـون اجـازة زوجـى مـن عمله يوم الأحد، ليصحبنا إلى بيت الله ثـم إلى السينما التى أحبها ثم إلى مطعم متواضع ثم نعود لأنام فى حضنه، علـى أن يكـون حضـنه عريضـاً ليحتويـنى فلا يبقى منى شئ خارج ذراعيه .

وفـى مقـابل ذلك أتعهد له بالإخلاص والطاعة وأن أسر عينه إذا نظـر إلى وأن أحفظ عرضه وماله إذا غاب عنى وأن أجعل بيتنا الصغير جـنة يـنعم فيها بما لم يخطر له على بال ولا رأته عينه من قبل يستظل برموشـى ويدفئه قلبى ويمرح فى صدرى فإذا نفخ بطنى جئت بأطفال من صلبه .. يحفظون اسمه ويقرون عينه .

سافرنا حيث يعمل .. انتزعت من أرضى وابتعدت عن أسرتى بعد عشـــرين عاماً من حياة بسيطة وآمنة . المصدر الأساسى للشعور بالأمان كـــان هو الحب العميق الذى يكنه أبى لأمى .. كان يناديها بماما .. وكان يعنى المعنى الصادق للأمومة . كانت أمناً وأمه وكان لا يتحرج من النوم علـــى صـــدرها فـــى حضورنا وكأنما يتوقع أن تقطر له الحنان من ثديها وكانـــت تـــناديه ببابا . تحمل له نفس احترام الابنة لأبيها نفس الهيبة التى تؤكـــد الشـــعور بالأمان لديها . كان أباها وأبانا لم يقس عليها يوماً . ولم تعـــص له أمراً . كان هذا هو البيت الذى نشأت فيه وأردت أن أصنع مثله فى موطنى الجديد وقد حملت معى دستوره الذى يحكمه والذى ينص على أمرين لا ثالث لهما: الحب والاحترام .

ولـــم أشأ أن أطلب من زوجى أن يبحث لى عن عمل فأنا أحب أن أكون زوجة متفرغة وأما كل الوقت . أنا أحب البيت وأحب دورى كأنثى والـــذى لا يتحقق إلا من خلال كونى زوجة وأماً .. لم تكن لى طموحات الزعامة على حساب الأسرة .

كـــان زوجـــى طموحاً إلى حد الجنون كان يريد أن يكون الأعظم والأوحد، كان يرى نفسه جديراً بأن يكون الأول فى كل شئ .. وكان فعلاً يتمـــتع بدرجـــة رفيعة من الذكاء، وتعهد نفسه بالثقافة والأداء المتميز فى عمله، إلا أنه كان غير راض، ويرى أنه يستحق أكثر من ذلك، ملقياً اللوم على الآخرين الذين يحسدونه ويغيرون منه ويقفون أحياناً فى طريقه ورغم إعجابى به إلا أننى لم أكن أرتاح لنبرة التعالى التى كانت ترقى أحياناً إلى حـــد الغرور كانت تقلقنى سخريته من الآخرين .. وكنت ألحظ فى عيون أصدقائنا القليلين عدم الارتياح لصحبته ثم أصبحت أنزعج لألفاظه الجارحة

الــتى ينعــت بها الآخرين من خلف ظهورهم ثم انزعجت أكثر لاختلاقه لمواقــف تصـــادمية مـــع زملائه ليخرج فى النهاية منتصراً ويباهى بهذا الانتصـــار المشـــبع بالمرارة .. ثم اتجه إلى شقيقى ليصطنع معه معارك لينتصر عليه وبدأ يساورنى شعور بأنه كان لا يسعد بانتصاره قدر سعادته بهزيمة الآخرين .

ولـــم تسلم علاقتى به من هيمنة بعض نزعاته التسلطية ليثبت أننى أقل ثقافة وعلماً وخبرة . وكانت هذه حقيقة كان يكبرنى بخمسة عشر عاماً فضـــلاً عن أننى حرصت على ألا أنازله حتى وإن كنت أعرف فى أشياء أكـــثر منه ورضيت بأن يكون هو الفارس والقائد . بل كنت أوافقه – نفاقاً واستسلاماً – على بعض آرائه فى الآخرين رغم تجنيه وتعديه .

انـــتزع هذا الرجل من قلبى الشعور بالأمان بالرغم من عدم وجود تهديـــد مباشـــر وبالرغم من التزامه الكامل بالأسرة التى ارتفع عددها إلى خمســـة إذ وفد علينا ذكران وأنثى . ثمة عدم ارتياح داخلى كان يجتاحنى من وقت إلى آخر مصحوباً بضيق فى الصدر ومرارة فى الحلق وتدريجياً تجرأت لكى أصارح نفسى بأن هذا الرجل لا أحبه . حقيقة أننى لا أكرهه ولكن بكل تأكيد لا أحبه مثلما لا يحبه أى إنسان آخر، كان أكثر ما يؤلمنى أن يسخر منى وأن يسفه من آرائى أمام الآخرين ولم أكن أدافع عن نفسى .. هكـــذا أنا .. لا أحب المعارك . أفضل الانسحاب أبتلع الهزيمة لا أبادئ واستثمر هو ضعفى أيما استثمار، وهنا ظهر لى جانب آخر من شخصيته: مزيج من القسوة والانتهازية .

ولكننى رضيت أن أعيش وأن أستمر، وفاجأنى يوماً بأنه يريدنى أن أعمل وفى نفس مهنته .. وسعى فى ذلك حتى وجد لى مكاناً .. وحاول أن

يعلمـــنى ولكننى كنت قد سبقته فى معرفة أشياء كثيرة اختزنتها على مـــر الســـنين وحيـــن شرعت فى أول عمل انتقدنى بشدة وتولى هو العمل نيابة عـــنى وإن ألصق اسمى به حتى نحصل على الأجر . استمر هو فى القيام بعملـــى وكأنه استغل اسمى فقط لتحقيق مزيد من الربح ليعيننا على الحياة الصـــعبة فى البلاد الغريبة .. وفى مرات قليلة كنت أصر على أن أقوم أنا بالعمل وكنت أجد الإعجاب الشديد بما أكتب . أخذت فى النجاح التدريجى بيـــنما ازداد شعوره هو بالخطر . ازداد نقده لى . بل كان يحطمنى أحياناً بكلماتـــه الجارحـــة القاســـية التى تحط من قدرى وتدنى من كفاءتى ولكن تملكـــنى الإصـــرار على إثبات ذاتى، وكلما مضى فى تحقيرى أمعنت فى التمـــيز، أخـــذت أقـــرأ كثيراً . وأكتب كثيراً فتحت لنفسى مجالات أخرى وشققتُ طرقاً جديدة تؤدى إلى مزيد من الانتشار والنجاح .

وبيـــنما كنـــت أنا آخذة فى الارتفاع كان هو آخذاً فى الهبوط لسوء طـــباعه وعـــدم حـــب الناس له ووصلنا إلى نقطة لم أكن أتمناها وهى أن توقف هو عن العمل تماماً وأصبحت أنا العائل الوحيد للأسرة .

ازدادت عصـــبيته . تفشى عدوانه . بذأت ألفاظه . تضخم غروره مـــع شـــعور داخلى بالانكسار . أصبح عدد الساعات التى أقضيها خارج البيت أكثر وأكثر . قلت حماستى تجاهه كزوج حتى كادت تتوقف، امتنعت عن معاشرته جنسياً كنت أشعر بالقرف ثم أصابه العجز الجنسى، ولكنه لم يكـــف عن المحاولات الفاشلة التى يتبعها بعنف فانفصلت فى غرفة مستقلة كبر الولدان وتبرعمت الطفلة فكادت أنوثتها تكتمل وهذا شجعنى على مزيد من العمل وعلى الإصرار لمواجهته ومقاومته وقهره إن استطعت . تلاشت طيبة قلبى. خلعت عن نفسى الاستسلام والخضوع وذهب عنى الخوف .

وذات صـــباح كنـــت أســـتعد للذهاب إلى موعد مهم تطلب اهتماماً خاصاً بمظهرى اتهمنى بالانحراف ضربنى استدعيت الشرطة واستناداً إلى إصـــابتى واعتماداً على شهادة أولادى طلبت الطلاق .. فأشهر كل أسلحته لمحاربـــتى.. وعـــند هذا المنحنى انتقلت من مرحلة مواجهته إلى مرحلة إذلاله .

طالبـــت بنصـــف الممتلكات .. طالبت بطرده من البيت استحوذت علـــى الأولاد بـــنقودى تعمدت الأحاديث التليفونية الهامسة التى كانت تثير شكوكه تعمدت أن أبقى ساعات أطول خارج البيت لأحطم أعصابه .

لـــم تأخذنى به شفقة وأنا أراه مكوماً فى الفراش أو وهو يتسلل إلى المطبخ ليلتهم ما تبقى من طعام بل كنت أتعمد ألا أبقى أى طعام من بعدنا حـــتى يـــتلوى جوعـــاً . كنت أنتشى بنظرة الانكسار فى عينيه، كان ذلك يعوضـــنى عـــن حرمانى الجنسى خاصة أن جذورى الدينية المغموسة فى صـــحن قـــيم ساخنة أنضجتها الشمس الحارة فى أعالى الوطن الأم، كانت تمنعـــنى مـــن الاســـتجابة للدعوات غير البريئة من رجال كثيرين عرفوا بـــأحوالى الأسرية فأرادوا استثمارها بوحى من النذالة المعروفة عن معظم الرجال فى مثل هذه المواقف .

تدخلـــت أســـرتى لإقـــناعى بالعدول عن الطلاق . تدخل أصدقاء مخلصـــون .. إلا أنـــنى كنت مصرة وإصرارى الأكبر أن يغادر البيت أو يعطينى نصف ثمنه . كنت أعرف أنه لا يملك شيئاً.

لجـــأ إلـــى الأبناء ليتوسطوا لدى وليصلحوا بيننا . تغير هو تماماً، ووعـــد بأن يلبى كل ما أطلبه منه اعترف بأخطائه بكى .. فشعرت بمزيد مـــن اللذة.. كان صادقاً وكان من الممكن أن أعود وأن أحافظ على الأسرة

ولكـــن تملكتـــنى رغبة الهدم حتى وإن كنت سأخسر أسرتى .. حتى وإن صــــرت مطلقـــة .. هـــذه هى فرصتى لاسترداد ذاتى .. لأكون أنا .. أنا الإنســـانة .. أنـــا الـــناجحة .. أنا الموهوبة أنا التى أربح مالاً كثيراً .. أنا صاحبة الرأى والكلمة .. أنا المشهورة .. أنا التى أقابل الشخصيات المهمة وأصادق عليه القوم وأدعى للمناسبات الرسمية .

أنـــا .. أنا .. أنا .. إنها فرصتى لأسحق الذكر الضعيف فلم يعد له فائدة بل أصبح عبئاً .. أصبح كماً زائداً لا حاجة لنا به فليخرج أو يموت .

وحصلت على الطلاق وفى اليوم التالى حكموا بطرده من البيت .. حمـــل حقائـــبه ومضـــى .. حملهـــا وحده دون أن يتقدم أحد لمساعدته .. استدعيت شركة النظافة لتطهير البيت احتل أبنائى حجرته بعد أن عدل من وضع أثاثها وفى ذات المساء احتفلوا مع أصدقائهم بمناسبة لا أتذكرها أما أنـــا فأويت إلى فراشى وقد شملتنى السكينة، ونعمت بنوم هادئ لم أنعم به منذ زمن طويل .

وبلغنى أنه يقول إننى غدرت به .

وأنا أصحح ما قاله فأقول: لم يكن غدراً بل كان انتقاماً .



(١٩)
أحزان العيد

الفرح إجبارى فى العيد، هكذا ألح لسانها بالقول ليحفز قلبها الحزين لكـــى يفرح فغداً العيد ولكن أبداً لم يستجب قلبها، فالأمر ليس مجرد حزن، فالأحـــزان مؤقتة كما أن الأحزان يصاحبها شجن وهو شعور يهز الوجدان وبـــه شبه استمتاع كما أن الأحزان هى مقدمات للفرح فمع انتهاء الأحزان يشـــعر الإنســـان بســـرور مبهم وفى النهاية فالأحزان تحريك لمياه الحياة الراكدة.. إذن فقلبها محروم حتى من الحزن . قلبها إما ميت أو يائس، ولذا فهـــى لا تســـتطيع أن تســـتجيب للعيد بالفرح رغم أن فرحة العيد إجبارية ومفروضة على الجميع مثل فرض الصوم والصلاة .

فلا عيد لإنسان لا يستطيع أن يدفع بالفرح إلى قلبه .

ورغم ذلك فقد اجتهدت لجعل البيت نظيفاً ليليق باستقبال كل الأسرة الشقيق والشقيقة وبناتهما وزوجيهما وأولادهما . هكذا العيد كل عام فرص للتفكـــير عـــن التكامل فى زيارة البيت الكبير حيث الأم الطاعنة فى السن ومعهـــا الابـــنة الكبـــيرة ذات الأربعيـــن عاماً والتى ينبغى أن تكون أول المغادريـــن للبيـــت ومنذ زمن طويل إلا أن القسمة لم تكن عادلة ولذا جاء النصـــيب ســـيئاً فبقيت مع الأم العجوز ترعاها بإخلاص غير مشكور ولا محمود .

والتقدم فى العمر يضعف الأمل فى كل شئ طيب فى الحياة وحين وصـــلت إلى الأربعين انقطع الأمل تماماً ولم تعد هناك جدوى من الرجاء والدعـــاء وتدريجياً انقطعت عن زيارة أضرحة الأولياء، وإن استمرت فى صـــلاتها بنصف قلب، ولكن أبداً لم تكف عن إخلاصها وتفانيها فى رعاية أمها، ولم تبخل فى عطائها المادى والمعنوى لكل من يحتاج إليها .

كانـــت عاطلة من الجمال، تميل إلى البدانة، ذات طول غير أنثوى وصـــوت قد تخطئه الأذن المتعجلة فتحسبه صادراً عن رجل إلا أنها كانت تتمتع بابتسامة صافية تنم عن رضا نفس وقلب حنون، ولكن هذا الوجه لم ينجح فى أن يغزو قلب رجل ليقنعه بالزواج منها .

ورغـــم مـــيلها الشديد للرجال إلا أنها لم تقم علاقة مع أحد منهم . احتفظت بعذريتها العاطفية والجسدية للرجل الذى سيتقدم ليتزوجها وكانت تصـــد أى رجـــل لا يبدى جدية منذ البداية ولذا حرمت نفسها من البدايات غير المشروطة التى كان من الممكن أن تتطور إحداها إلى مشروع حقيقى .. إمـــا أن يعلـــن كلمته واضحة من البداية وإما لا .. وعاشت مع الرجال فقـــط فى خيالها وتركت لنفسها العنان إلى أقصى مدى وكانت تختار أحد الـــرجال الذى تتوافر فيه الصفات التى تعجبها ليصبح فارس خيالها لفترة مـــن الزمـــن، فإذا أصابها الملل منه تركته إلى آخر .. وهكذا عاشت فى الخـــيال متعة الجسد ومتعة القلب بل متعة الفكر أيضاً إذ كانت تتبادل مع هـــؤلاء الـــرجال حـــوارات فكرية ذات عمق نابعة من ثقافتها لشدة ولعها بالقراءة .

الـــتقدم فـــى العمر يجعل الحصول على المتعة من الخيال صعبة، ويبطئ نبض القلب بالفرحة ويضعف إحساس الروح بالنشوة .

وتدريجياً فقدت شهيتها للطعام مع فقدها لشهيتها لممارسة الحب فى الخيال .. انخفض وزنها وأهملت فى مظهرها ولم تعد تمعن النظر فى الرجال لتملأ عينيها بجمال بعضهم وقل ترددها على الأسواق .

وخشيت على نفسها من الموت وبطريقة عبثية أتاحت نفسها لرجل حاول يوماً العبث بها وأفضت التجربة إلى فشل سريع مع إحساس شديد بالندم والتقزز من سلوكها ومن كل الرجال وآمنت أنها لم تعد تصلح لشىء . وفى صباح العيد حاولت أن تبدو متماسكة ورمقتها أمها بنظرة جافة إلا أنها تهللت فى وجهها متمنية لها دوام العمر . حرصت دائماً رغم قسوة أمها على ألا تغضبها وتحملت منها الكثير، وكانت تسأل نفسها كثيراً لماذا تجفو أمى معى أنا بالذات رغم إننى أقوم على خدمتها بحب وإخلاص ليل نهار!! ولماذا كانت دائماً وحتى اليوم تحنو على أختى الصغرى رغم أنانيتها الشديدة وعدم حملها أى مسئولية تجاه أمي!! كان ذلك يؤلمها كثيراً وإن لم تفصح عنه.

وانتصف نهار أول أيام العيد ولم يطرق بابهما أحد واعتذر الشقيق تليفونياً عن عدم الحضور لاضطراره لتلبية دعوه لا ترفض خارج المدينة تتيح لأبنائه مزيداً من متعة العيد، أما الشقيقة فجاءت متأخرة مع أسرتها والتهموا ما أعدته لهم من طعام ولم ينس زوج شقيقتها كعادته قبل أن يغادروا أن يسمعها كلمات الغزل من خلف ظهر زوجته ملحاً فى لقاء خاص فتبتسم وترده بأدب مذكرة إياه ألا ينسى أنه زوج شقيقتها متكتمة أمر بذاءته حتى لا تجرح شقيقتها. واتصل شقيقها المهاجر تليفونياً فألقت السماعة إلى أمها رافضة تبادل الحديث معه حتى لا يحرك صوته ذكريات يوم أسود حاول فيه الاعتداء عليها.

وانقضى أول أيام العيد دون أحداث مهمة .. وجاء اليوم الثانى مثل اليوم الأول خاوياً بل أكثر صمتاً ولم تبادلها أمها كلمة واحدة ..

وفـــى المساء آوت إلى فراشها مبكراً تحت إلحاح رغبة شديدة فى الـــنوم وبعـــد أن نامت لوقت لا تستطيع أن تحدده استيقظت فجأة وجسدها يـــرتجف بشدة ومبللا بعرق غزير وإحساس بحرارة تنبعث منها واختناق كأنهـــا داخل تابوت حاولت أن تنهض من الفراش فلم تستطع .. وأبت أن تنادى على أمها خشية إزعاجها من نومها .

ويـــبدو أن حـــرارتها المرتفعة فعلت فعلتها فأخذت تهذى صارخة وراحـــت فى شبه غيبوبة فاقت منها فرأت رءوساً تحيط بها كان من بينها أمهـــا وإحـــدى جـــيرانها وآخـــرون فـــى رداء أبيض عرفت أنهم أطباء وممرضات فأدركت أنها فى مستشفى وكان ثالث أيام العيد .

وعـــادت من حيث أتت منهكة متعبة مجهدة لا تقوى على شئ ولا تغـــادر الفـــراش إلا لضـــرورة واستعانوا بخادمة لإعانتهما على الحياة .. واحـــتار الأطـــباء فى حالتها حيث لا مرض عضوياً يفسر حالة الضعف الشديدة التى تعانيها ونصحها أحدهم بمقابلة طبيب نفسى .. ورفضت أمها الفكـــرة لأنهـــا لا تعرف ما وظيفة الطبيب النفسى ولأنها كانت مؤمنة أن ابنتها كانت تعانى بسبب مـــس جنى كما أفهمها جيرانها واستعانت بالعديد من المتخصصين فى هذا المجال دون جدوى .

وطـــال أمـــد المرض شهوراً حتى أصبحت شبحاً لا يرى عن بعد بســـهولة، وتحـــت إجمـــاع وإصرار كل الأطباء الذين عاينوها جاءوا لها بالطبيب النفسى والذى أصر بدوره على نقلها إلى المستشفى لسوء حالتها .

قال لها الطبيب النفسى أنت تعانين الاكتئاب؟

- أنا لا أشكو حزناً .

الاكتئاب غير الحزن .

- وما الاكتئاب .

الاكتـئاب هـو رفـض الحياة وامتناع الحماسة وعدم القدرة على الاستمتاع بأى شئ .

- أنا فعلاً أعانى هذه الأعراض، ولكن عندى أسبابى .

الأسباب سهلت انزلاقك للاكتئاب .

- إذن لا علاج إلا بزوال الأسباب .

قـد يكـون هذا حلاً مثالياً ولكن يستطيع بعض الناس الخروج من الاكتئاب واستعادة حيويتهم رغم استمرار الأسباب .

- مشاكلى لا حل لها ولقد تعبت ويئست .

ولكنك لم تحاولى .

- حل مشاكلى فى يد الآخرين وليس فى يدى .

هـذه هـى مشـكلتك الأولى والأساسية أن تعتقدى أن الآخرين هم المتحكمون فى حياتك بينما يجب أن يكون جهاز التحكم فى يدك أنت . من يـتركون هذا الجهاز فى أيدى الآخرين يحركونهم . يكونون أكثر تعرضاً للاكتئاب.

- هـناك مـا يسـمى بالقسمة والنصيب ومعناها أن إرادة الله هى الغالبة وليس إرادة الإنسان .

الله وهـب كل إنسان جهازاً للتحكم الذاتى، ونحن الذين نتخلى عن هـذا الجهـاز لغيرنا ليتحكموا فى مصائرنا أو ندعى أن القدر قد سلبه منا فنستسلم .

- ولكــن هناك أشياء خارجة عن إرادتنا فعلاً فإنسان يُخلق جميلاً وآخــر يُخلق دميماً وإنسان يُخلق بذكاء مرتفع وآخر غبى، ما ذنب الدميم والغبى والمعاق والمريض!!!

كل إنسان لديه مناطق ضعف ومناطق قوة .. لا يوجد إنسان معدم من كل شئ القضية هى كيف نتعرف على مناطق القوة ونستثمرها وكيف نرضـــى بالضـــعف ونحاول أن نعوضه إذا لم نستطع أن نصلح من شأنه والبشر فى النهاية متساوون فى عطاء الله لهم .

- أعــترف بأنــنى ركــزت علـــى نقاط ضعفى ولم أر نقاط القوة وأعترف بأننى تنازلت بسهولة عن جهاز التحكم الذاتى .

لــيس هــذا فقــط بل وقعت فى خطأ آخر وهو أنك بنيت تصوراً ســلبياً عن الحياة ففقدت الأمل بل يئست ورأيت كل شئ رمادياً رأيت كل الطــرق مســدودة افترضت أن الجميع سيئون مثل شقيقتك وشقيقك وزوج شقيقتك.

وما الحل لهذه المشكلة؟

الحــل هــو أن تتبــنى تصورات وافتراضات صحيحة عن الحياة، الحــياة جميلة، الحياة تستحق أن نحياها . جئنا هذه الحياة لنعيشها ونستمتع بها وأيضاً لنصلح فيها لا لنفسد .

- الملائكة حين أخبرهم الله بخلقه لآدم تصوروا أن الإنسان سينزل إلـــى الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء ولكن الله عز وجل قال لهم إنه يعلم مــا لا يعلمــون . الملائكة هنا تبنوا تصوراً خاطئاً عن الإنسان، ولكن الله صحح لهم هذا التصور الخاطئ .

وبينما هى تنظر بإمعان فى عينى الطبيب لمحت شعاعاً من أمل يخرج من رأسه ليخترق رأسها ويحرك قلبها بارتعاشات خفيفة بعد أن تصورت أنه مات .

- ومتى نبدأ العلاج .

بدأناه فعلاً من خلال هذا الحوار وسيستمر الحوار بيننا حتى يتم تعديل مفاهيمك وافتراضاتك الخاطئة وفى نفس الوقت لابد من ابتلاع هذا القرص .

وما هذا القرص؟

إنه مضاد للاكتئاب .

(٢٠)

ليلة الخميس وصباح الجمعة

المعـــانى تخضـــب الأيام بالألوان، لكل يوم معنى، ولكل يوم لون، والمعنى فكرة، واللون إحساس، وتتعانق الفكرة مع الإحساس لتعطى لليوم طعمـــاً، مذاقـــاً، ولكل مذاق رائحة، والرائحة شدو يطرب الآذان، فتكتمل الدائـــرة ولا يبقى إلا أن تلمس اليوم لتحسه بيديك وإن شئت احتضنه، وإن شئت قبله، ما أروع ملامسة اليوم بشفتيك .

ويمضـــى أســـبوع – ويأتى من بعده أسبوع آخر، ثم أسبوع آخر، وتـــتراكم الأسابيع شهوراً، والشهور سنوات ويبقى اليوم هو الأصل، ليلاً ونهـــاراً ننام ونصحو، وحين ننام نحلم، وحين نصحو نأكل ونشرب ونعمل ونحب ونكره، نبكى ونفرح، نشقى ونسعد، ونرى الموت بأعيننا فنظن أننا بمنأى عنه، أنه بعيد، وما فات يصبح ماضياً، وما سيأتى هو المستقبل، أى القلق العذب والتمنى .

والمســـتقبل نرصده بالأيام، غداً السبت وبعد غد الأحد، وألقاك يوم الخميس، وكل ما سيقع فى المستقبل يكون بمشيئة الله، فقل إن شاء الله، فلا تقولـــن لشـــيء إنـــى فـــاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله، ولكن لا أملك وأد مشـــاعرى تجاه الأيام، فرغم أن كلها أيام ربنا وهو الذى صنعها وحددها بالشمس والقمر وجعل الليل سباتاً والنهار معاشاً، رغم ذلك فهذا اليوم أحبه

وذاك اليوم لا أحبه، وهذا اليوم خفيف الظل، وذاك اليوم ثقيل الظل . وفى هـذا الـيوم ينشرح صدرى وفى ذاك اليوم أشعر بالانقباض، كلها مشاعر مسبقة سابقة التجهيز، لا أدرى متى تشكلت ومما تكونت؟

هكذا وجدتنى أشعر بثقل السبت وخفة الأربعاء، وأحب الخميس جداً وأضـيق بصـباح الجمعة، أما الاثنين فباهت والثلاثاء جاد، والأحد يتميز بالوسـامة والشـياكة . ولا مهـرب من أن يكون لك مشاعر خاصة تجاه الأيام، فما أن تذهب للفراش لتنام وتتذكر اسم الغد حتى يجتاحك شعور ما، وقـد يلازمـك فى أحلامك وما أن تستيقظ فى الصباح حتى تستعيد نفس المشـاعر التى نمت عليها، هكذا يجلس كل إنسان على أرجوحته الخاصة التى تنقله من إحساس لآخر مثلما تنقله الشمس والقمر من يوم لآخر .

ربمـا كـان هـو مثلى أو أنا مثله فى عشقنا للخميس، فى صباحه تـنزاح كـل أثقـال الصدر، وفى ظهره تلوح تباشير التحرر والانطلاق، وتشـملنا الحماسة فى عصره، وترق المشاعر فى أول الليل، وكلما توغل اللـيل التهب القلب بالحب، واشتعل الوجدان بالطرب، يا مليكة الزمان ويا قمـر اللـيالى ويـا لحن السماء، يا لفظة الحب ويا آهة الشوق لكم ارتبط الخميس بك، وارتبط معه لهوى ومرحى وفنى وعشقى وصديقى وحبيبتى، وفوقهم جميعاً أنت . أو هم لم يكونوا إلا بك، أو أنت أسبغت عليهم المعنى والقـيمة يـا كوكب الشرق والغرب والشمال والجنوب، يا مركز الأرض، ورغـم غـيابك فمـازال الخميس خميسك ومازال العشق لا يحلو إلا يوم الخميس .

وأتـى خمـيس، صـحا من نومه عفياً طروباً، متلهفاً كعادته على جـريدته، ثـم القهوة، ثم مغازلة زوجته، لا يحلو غزل الزوجة إلا صباح

الخميس حاملاً الوعد بليلة دافئة حتى فى عز الصيف، ثم تبادل القبلات مع طفلـيه، وعلـى مكتـبه سطر مقالاً، لا طعام إلا بعد الانتهاء من المقال، انصـرفت الـزوجة المطيعة بهدوء، مازالت فرحة الانتقال للشقة الجديدة تخدر أعصابها، وكأنها عروس جديدة، المهر كان غالياً، سنوات صعبة فى بـلاد حـارة متجهمة، وكم من خميس أفلت منها ومنه، ربما مئتان، مئتا خمـيس بلا حب، يا الله، ويا لفداحة الثمن، ولكن الشقة الفسيحة كانت حلماً ملحـاً، وعاد أيضاً بالسيارة المريحة وبضعة دراهم للزمن، ولم يبق إلا أن يعـوض ما فات، عمل جاد ليل نهار، بل قل إبداع التميز فى نحت الكلمة وصـناعة الفكرة وتشكيل الرأى، فنان صياغة كصائغ لحلى الحسان، برع وتفرعـن، غداً اسمه يتردد وفكره يتداول، يا أرض ما عليك قدى، وحوار تلـو حـوار، ثم المنصب، ثم الصدام، هكذا شأن أبناء الكار الواحد، ولكن الطمـوح كـان قد وصل إلى أقصى مدى، وأبواب الفخار متعددة، والكبار يقـدرون مواهـب الصغار ويفتحون لهم الأبواب، لا بأس مع الحب، حب التميز وحب الصفوف الأولى وحب أن تكون حديث الناس، وبعض الناس بوجهين، فلا تعرف من أين تأتيك السهام، والزوجة الحنون نصف العالمة ببواطـن الأمور تطبطب . تحمل فلقد واجهت ما هو أصعب لأنك صعب، نعيب زماننا والعيب فينا .

قـبل الظهـر بقليل يغادر . اليوم الخميس والعمل قليل . هو الذى يختصر لنفسه عمل الخميس حتى لا يفقد إحساسه بالخميس، شأنه شأن كل المدارس منذ أن وعى على المدارس، الدراسة ثلث نهار، ثم يتدفق التلاميذ فـى كـل اتجـاه، لا شئ يشغلهم إلا اللهو واللعب، اليوم حرام فيه العلم . ورغـم أن الـتعود مـن خصائص الإنسان، وفقد الانبهار بمرور الوقت

مكـــتوب عليه إلا أنه فى كل مرة يذهب إلى مكتبه يقف أمام المبنى العظيم متطلعاً بإعجاب وافتخار، من هنا يخرج النور وأنا أحد الشموع .

لم يمكث فى مكتبه طويلاً، فالأوراق عليه أضحت قليلة . فى طريق انصرافه تأكد أن كلماته النارية ستظهر على الملايين صباح الغد، ردد فى سره إن شاء الله .

غادر قدس الأقداس وهرم الزمان إلى ما هو أقدس، تلك كانت أهم ســماته، ومصدر النقار الوحيد مع الزوجة، استغراقه فى صلة الرحم، من وصـــل رحمه وصله الله وأطال عمره، فى كل مرة يزور والديه يتأكد لديه أن الله سيطيل عمره، لهما ثلث الدخل وربع الوقت وعناية تفوق الوصـف .

* ادعى لى يا أمى بأن أصل إلى قمة الهرم .

– حب الناس يا ابنى أبقى وأنفع .

* ادع لى يا أبى بالرفعة والمجد .

– التواضع يا ابنى يرفعك .

يخرج من عندهما منشرح الصدر، مطمئن الخاطر قوى النفس .

عـــاد متشوقاً إلى البيت، مازالت رائحة الطلاء توحى بأنه جديد، يا فرحـــتى ببيتى وسيارتى واسمى الرنان، اجتاحته نشوة وهو يعتلى الدرج، كان يدب بقدمين واثقتين، لم يكن يقلقه شئ إلا حساسية الزملاء، هذا شأن صناع الكلمة، بل حتى صناع الطوب والكباب، وأسوأ منهم صناع الطرب وهز البطون، ولكن لكل أمر حلاً ولكل خطب نهاية ولعل الصلح قريب .

ما أن دب المفتاح فى الباب حتى توقف صياح كان يسمعه فى أول الدرج، الأم تصرخ فى أبنائها الذين يرفضون الاستذكار، وصلته الشكوى،

ولكـنه انحـاز لصف الطفلين، اليوم خميس، وفى الخميس يحرم العلم ولا يكون إلا اللعب، واللعب يجلب الفرح والخميس جعل للأفراح وبداية الليالى الملاح.

غضـبت الزوجة غضباً مصطنعاً لانحيازه، والغضب يوم الخميس لابد أن يكون مصطنعاً حتى لا يفسد الليلة، ليل الخميس يعد دائماً بالحرائق الـتى تمسك بالقلوب والأبدان . هو يفهم وهى تفهم من نبرة صوت أو من نظرة عين، ليس من الضرورى أن تصاغ الدعوة فى كلمات مباشرة يكفى لمحـة تكاد لا ترى على وجه أحدهما، ليس مهماً من يبدأ بتوجيه الدعوة، المهـم أنها تلقى استجابة فورية من الطرف الآخر، والذى يساعد على ذلك أن اليوم خميس .

وقـبل الحب تحلو مشاهدة فيلم، وفى السينما وليس فى التليفزيون، واليوم بالذات سيكون الطفلان معهما لطرافة الأمر، فالفيلم الكوميدى يحمل اسـم أبـيهما، تصور الطفلان وبالروعة التصور أنهما سيران أباهما على الشاشة، وشعرا بالفخر أن اسم أبيهما مكتوب على الجدران، لقد ورثا التيه من الأب .

والعشاء بعد الفيلم كان لذيذاً فى أحد المطاعم الشعبية، فالانتقال إلى الطبقة الأعلى يأخذ بعض الوقت ويكون بالتدريج .

أما بقية ليلة الخميس فكانت مثلما تصورنا، إنه شئ متوقع، والتوقع فى هذه الأحوال يزيد المتعة ولا ينقص منها .

صباح الجمعة لم يكن يرغب فى ترك الفراش لولا أن الموعد مهم، على مدى أربعين عاماً أو أكثر لا يتذكر أنه استيقظ صباح أى جمعة بدون هذا الشعور بالانقباض، إنه كالاكتئاب يا ستار يارب .

الطفـــلان نائمان والزوجة تصطنع النوم، أعد القهوة لنفسه، انتظر الصـــحف بصبر كاد يفرغ، قفز مباشرة إلى الصفحة المتوقع أن ينشر فيها المقال، سعد كطفل، وفرح كمبتدئ ينشر له مقال لأول مرة . قرأه مرتين، هذا يعد من أهم مقالاتى .

وكعادتـــه أخـــذ يتصل تليفونياً ببعض الأصدقاء، هل قرأتم مقالتى، أتوقـــع أن يحـــدث رد فعل خطير . يؤيده البعض ويجامله البعض الآخر، أصر أن يوقظ زوجته، قرأته بنصف وعى، فالنوم لم يغادرها بعد، أرادت أن تداعبه فقالت أتوقع أن يجلب عليك بعض المتاعب، انتشى أكثر لقولها، فجأة انطفأت، فاليوم جمعة ولقد أصابتها عدواه فلم تعد تبتهج لهذا اليوم .

وعلى الباب وقبل أن يغادر شقته تذكرت بعض الأمور كانت تريد أن تحدثـــه فيها طلب منها أن تقتصر، أخذت منه بالتحديد أربع دقائق، لم تلحظ هى أنها أربع، لم يرقب هو ساعته، وإنما حسبها القدر بدقة متناهية، أربـــع دقـــائق فـــى هـــذا المكان لا ثانية أقل ولا ثانية أزيد، لا يمكن أن تكـــون ثـــلاث دقـــائق ونصـــف الدقيقة، ولا يمكن أن تكون أربع دقائق ونصـــف، يـــاه، نصـــف دقيقة كان من الممكن أن تصنع مثل هذا الفرق الهائل!! وأى فرق!!

وعلـــى الـــدرج قـــابل جاراً من السكان الجدد أراد أن يتعرف إليه ويهنـــئه علـــى مقاله الذى انتهى لتوه من قراءته، يا للحظ، ألم تجد إلا هذا الوقـــت يـــا رجل لتحدثه عن المقال فتأخذ منه خمس دقائق، آه لو لم يقابل جـــاره، آه لو كانت أربع دقائق وليست خمسا، يا أيها القدر الذى يحدد كل شـــئ بالـــثوانى، أو هـــى أجزاء من الثانية، أو هى أجزاء من المليون من الثانية .

ويستمر القدر فى لعبته فيتعطل فى الطريق بسبب مرور موكب، يا أيتها المواكب التى تستغرق الكثير من أوقاتنا، ارحمونا، ولأن اليوم جمعة والـــناس فى بيوتهم والطرق شبه خالية فإن الموكب مـــر سريعاً، استغرق ســت دقـــائق ونصـــف الدقيقة، ولماذا النصف، هذا أمر عجيب، كان من الممكن أن تكون ست دقائق فقط، ويا ليتها كانت سبعاً .

نعـــود فنحسبها من جديد، فالزوجة عطلته أربع دقائق، وجاره أخذ مـــنه خمـــس دقـــائق والموكب المهيب اقتنص ست دقائق ونصف فيكون المجموع ست عشرة دقيقة ونصف الدقيقة .

الآن اعتلى الكوبرى الذى يوصله فى وقت أقل لمكتبه حيث الموعد المهـــم، ربما لم يقل إن شاء الله، زحف الضيق أكثر إلى صدره، من وقت لآخـــر يـــتذكر مقالـــته الخطيرة ويتصور الكبار وهم يقرؤنها، ينظر إلى ساعته، لقد تعطل كثيراً تذكر أنه لم يمر بحجرة الطفلين حين غادر البيت . طالعـــته صورتهما، تثبتت أمام عينيه، شعر بحنين دافق، تيقن أن الحياة لا تســـاوى شيئاً بدونهما، وقفزت زوجته بينهما، فضحكوا ثلاثتهم لغيرة الأم ظلـــت الصـــورة ماثلة أمام عينيه، ربما لم يعد يرى الطريق، تبقت ثلاث دقـــائق، دقيقـــتان ونصـــف الدقيقة، المقال مرة أخرى ثم الصورة . باقى دقيقتيـــن، مـــاذا سيقول فى جلسة المصالحة، تبقت دقيقة ونصف الدقيقة، أتمنى شراء شقة على شاطئ البحر، متى سأكون الرجل الأول، كم بقى من الســـنين، لمـــاذا مـــدوا سن المعاش، بقيت دقيقة، ياه، هذه السيارة البطيئة أمامى أود لو أقفز من فوقها بعصبية بالغة لم يرفع يده عن الكلاكس، ذعر الـــرجل وأفســـح لـــه الطريق. تبقت نصف دقيقة، إنها نصف الدقيقة التى استهلكتها الزوجة لا بل التى أخذها منه جاره، لا بل الموكب هو السبب .

يــا لله، نصـــف دقيقة وبعدها ينتهى كل شئ، نصف دقيقة كان من الممكن أن تختصر أو يزيد عليها نصف دقيقة أخرى، نصف دقيقة وتغلق صفحة، هكذا ببساطة تغلق أى صفحة، كفى، لم تعد مطلوباً، انتهى دورك، شكراً أفسح الطريق، باق ثوان غير معروف عددها، ولكنها سمحت بتتابع ســريع لعدة صور استغرقت كل منها ثانية، أبى وأمى، طفلاى، زوجتي، جــريدتى، الثانية الأخيرة، عبر الجنون من الناحية الأخرى، الحساب هنا يكــون بأجــزاء مــن الثانية فهكذا علمونا كيف تصعد الروح إلى بارئها، أطبقت سيارة الأمن والأمان – ياللقدر – فوق سيارته فهشمت عظام رأسه تماماً، بالذات الرأس!

(٢١)
العدالـــــــة

تتشـــقق الأرض حيـــن لا تجود السماء بالماء . إذا تكاثفت السحب فـــوق مدينة فإن العارفين يبشرون بأن الخير وشيك وأن الغيث سينزل لا محالـــة . ولا تهـــبط قطرة إلا بعد أن تتواصل قطع السحاب فيما بينها فى شـــبه مظلـــة تحجب ضوء السماء وتخنق الأرض وقد تكتئب نفوس بعض البشـــر بسبب القتامة المفروضة، وترتعد قلوب البعض الآخر حين تصطك أســـنان الكون رعداً مخيفاً، فإذا أبرقت اكتمل نشيد الأمل وإن كانت ألحانه تحمل غضباً مكتوماً . ولكن الأمل قد يتبدد حين تتصرف السحب بلا قطرة ويخيـــب ظن العارفين . وحينئذ ينبرى الحكماء قائلين: لا ترج كثيراً، ولا تـــثق إلا فيما تقبض عليه بيدك، والسماء ليست على ود دائم مع الأرض . فهـــى تمنح وتمنع وفق برنامج سابق على الوجود مخطوط بحكمة ولحكمة فلا نملك أن نعترض.

ورغـــم صغر سنها فإنها كانت تمتلك ضمير حكيم . وأنا هنا أشير إلـــى فتاة قد تعدت الثامنة عشرة بعام أو عامين وهى حتماً دون العشرين ولكـــن نظـــرات عينـــيها الثابـــتة وابتساماتها المحدودة وتعبيرات وجهها المـــتحفظة وعزوفها عن المرح، يجعلها تبدو دون الثلاثين بقليل . وبدون أســـباب نرجعها إلى أسلوب تنشئتها أو إلى خبرات صارمة مرت بها فإن

هــذه الفــتاة كانت غير متحمسة للحياة مما جعلها تسئ الظن بأى معطيات مبشرة بخير أو سرور .. ولهذا انطوت على نفسها واكتفت بصديقة نصف مقــربة . أما عن شكلها فإن جمالها كان أيضاً انطوائياً لا يفصح عن نفسه بســهولة، والأمر يحتاج إلى أن تقترب منها أكثر وأكثر لتدرك هذا الجمال بشكل تدريجى فهو أيضاً لا يفصح عن نفسه دفعة واحدة . ولهذا لم ينشغل بهــا أحــد من الشباب الذى لا يقوى عقله إلا على السهل من الأفكار ولا تقــوى روحه إلا على ما هو مبهر من السطح، تماماً مثلما لا تقوى أمعاؤه إلا على الوجبات السريعة.

إذن لم تلفت نظر أحد وهى أيضاً لم يجذب انتباهها أحد وهذا جنبها كثيراً من المشاكل والصراعات المتوقعة فى هذه السن داخل وخارج نطاق الجامعـــة مما ساعدها على أن تبدى الاهتمام المعقول بدراستها وأن تنتظم فـــى محاضراتها وإن كان ذلك بنصف اهتمام بسبب حماستها الفاترة تجاه كل الأشياء .

أمـــا عـــن أخلاقها فلا أحد يستطيع أن يخمن شيئاً نظراً لغموضها وعـــزوفها عـــن الـــناس وبالتالى لم تختبر فى مواقف إنسانية تكشف عن حقيقـــتها الداخلـــية . إلا أن صـــديقتها الوحيدة قالت عنها إنها مؤمنة بالله وإن لـــم تـــؤد العبادات المفروضة عليها، أمينة فى تعاملاتها، تكره الظلم، ويـــرق قلـــبها بتحفظ للمريض والمنكوب ولا تحجم عن مساعدة من يلجأ إليها.

وإذا فتشـــنا عنها فى بيتها، وبين أفراد أسرتها، فالمحيط العام شديد التواضـــع والبســـاطة . والـــدان تعديـــا ثلاثة أرباع العمر المتوقع وأشقاء وشقيقات كثيرون وهى تتوسط العقد دون أن يكون لها تميز خاص .. تحب

والديها وتحترمهما، وإن كان إشفاقها على والدها أكثر لأنه كان رجلاً شديد التفاؤل والتسليم بل الرضا رغم غلظة الحياة .

ونعــود بها مرة ثانية إلى الجامعة لنكشف عن حدث قد يكون مهماً فى حياتها ولكنه غير مؤثر على الإطلاق فى السيناريو سابق التجهيز ولم يلعــب أى دور فى مسار الأحداث أو فى قلب الموازين أو تغيير المسار . وبلغــة أهل الأدب هو حدث هامشى ليس له أى وزن درامى . وذلك أنها أحبــت أحــد أساتذتها وهذا يحدث كثيراً من الطالبات تجاه أساتذتهن ولكن حينما يكون الحب صادراً عن قلب متحفظ، فإنه يكون حباً ذا طبيعة خاصة ولــه جــذوره العميقة المتشعبة بين خلايا هذا القلب . كانت تحرص على حضــور محاضـــراته . والإنصات له بآذان متصلة بالقلب والعقل معاً .. كانــت تعجــبها ركائز فكره التى حملت ثلاثة مشاعل يحاول أن يضئ بها عقــول الشــباب ليهدى طريقهم وهى العدالة والصدق ومساندة الضعفاء . وحيــن أحبــت هــذا الأستاذ انكشفت تماماً الملامح الأساسية لشخصيتها المتســقة مع سلوكها الذى عرف عنها . هذه الفتاة بعقلها البرعمى اكتشفت أن الســحب لا تعنى دائماً نزول المطر، وأن مجئ الرزق محكوم بعوامل خارجة عن إرادة الإنسان، وأن التوزيع قد يكون أحياناً غير عادل، وأن يد المساعدة قد تمتنع عن مساندة الضعفاء .. ولم يكن ذلك عن شك أو تجديف وإنمــا بســبب طبــيعة البشــر التى تتسم أحياناً بالميل إلى الظلم والكذب والتخاذل .

أحبت أستاذها لأنه كان يحمل فى ضميره بعض ما يفتقر إليه كثير من البشر .. ولم تفصح له عن مشاعرها وذلك لعدة أسباب ربما من أهمها أنها لم تكن تجيد توصيل أحاسيسها ولأنها لم تكن تؤمن بجدوى ذلك ولأنها

كانـــت تؤمـــن أيضاً – وهذه نقطة مهمة – أن أى حب لابد أن يرتبط بقيم المجتمع أى يكون شريفاً ومفضياً إلى زواج .

وبذلك نكون قد اقتربنا كثيراً من فهم هذه الشخصية والتعرف على معظم مفاتيحها ..

ولابـــد من الاعتراف بأن هذه مقدمة طويلة . وربما يظن أن طول المقدمة يتيح تفسير الأحداث بعد ذلك، إلا أن هذه المقدمة ستضعنا فى حيرة أكـــثر لأنهـــا ستتناقض مع الأحداث أى مع سلوك هذه الفتاة الذى سيشكل صدمة حقيقية .

نعـــود قلـــيلاً إلى الوراء فى بداية أيامها الأولى فى الجامعة حيث مظهـــرها المتواضـــع جداً الذى يتناسب مع المستوى الاقتصادى المحدود لأسرتها . هذا المظهر أغرى زميلة أكبر منها أن تقترب منها متصورة أن ضـــعفها المـــالى قـــد يخلق لديها جوعاً يجعلها تتنازل عن بعض قيمها . وتمـــارس الـــرذيلة مقـــابل مال غير قليل . وهذا أمر بات معروفاً فى كل الـــتجمعات إذ نظـــراً للظروف الاقتصادية نشأت وظيفة القناصة لاصطياد بعض الفتيات .. ولنا أن نتوقع أن فتاتنا صدمت بعنف وابتعدت بعد أن زاد تشاؤمها وعدم ثقتها بالناس .

وحيـــن اقتربـــت مـــن نهاية الدراسة الجامعية مرض الوالد الفقير بمـــرض خطير استحال أن يجد معه الرعاية الصحية الحقيقية عن الطريق المجـــانى . إمـــا المـــال أو الموت . وتفجر لديها الغضب والتقزز معاً .. الغضـــب بســـبب الظلم . والتقزز بسبب قناع الرحمة الكاذب الذى يرتديه الأطباء . صاحب ذلك نوع من الرفض والاعتراض على سوء التوزيع .. وتعالت فى داخلها صيحات: إذا مات أبى فيجب أن يموت الناس جميعاً ..

الموت للجبناء .. الموت للكاذبين .. لا خير فى حياة يموت فيها الضعيف سحقاً وكرهاً .

اختل التوازن وتفككت أواصر الشخصية فتفتق العقل عن حالة من الجــنون جعلتها تبحث عن صديقتها القناصة .. خطت بلا وعى وفى حالة هذيــان إلــى ســوق النخاسة. واكتشفوا فيها موهبة فكانوا كرماء معها .. وتجمــع المال سريعاً، وابتسم الأطباء فى مودة وتعاطف وأجريت جراحة ناجحــة مات بعدها المريض بأسبوع واحد لسبب مجهول وبعيد عن أصل المرض .

ولم يحتمل عقلها الصدمة فصامت عن الطعام والحركة شهراً ظلت فــيه ممــددة على الفراش متحجرة العينين شاحبة الوجه، كالموتى وإن بدا الغضــب فى عينيها واضحاً دالاً على أن شيئاً ما فى داخلها مازال يتحرك ويتفاعل أى لم تكن فى حالة ذهول وإنما رفض .. وهنا نسأل الرفض لأى شئ؟ رفض للموت أم رفض الحياة أم رفض للسيناريو .. ومن المهم أيضاً أن نعــرف كــيف تــرى نفسها .. كيف تبرر سقوطها .. كيف تختل قيم الإنسان وتتأرجح من النقيض للنقيض؟!

كيف فى لحظة ينبثق عن الجنون فعلاً إرادياً؟ وهل كانت فعلاً حالة جــنون وهل كان فعلها إرادياً؟ وكيف يكون للإنسان إرادة وهو غارق فى يأســه. وهل اليأس مبرر كاف للإنحراف وهل كان ما فعلته انحرافاً؟ وهل لابــد أن نقــدم مبرراً لكل سلوك؟ وهل ننظر إليها مثلما ننظر إلى أى فتاة ســاقطة "مومس" تسعى إلى المال مثلما يسعى له أى لص أو نصاب؟ وهل فى داخل كل امرأة بل داخل كل رجل أيضاً مومس كامنة تخرج إلى الحياة سافرة تحت ضغوط معينة . وأى ضغوط!! إنه المستحيل .. المستحيل فى

هذه الحياة .. الطريق المسدود .. الحائط الخرسانى الذى لا يسمح بالعبور .. إنــه الموت الذى يُحدق بالأحباب ولا نملك درأه إلا إذا كان هناك مقابل مــادى .. إنه المستحيل الذى دفع إلى التمرد وإلى نزع كل الأغطية وكل الأقــنعة فأسقطت كل تاريخها النظيف، وهل هذا التحول يكون مؤقتاً؟ هل لــنا أن نــتوقع أن تعود كما كانت نظيفة أى تستحم وتسقط عن جسدها ما علق من آثار الرجال الذين دفعوا لها .. أم أنها ماتت حين سقطت كالفدائى الذى يلتف بالديناميت ويحتضن عدوه ليقتله ويُقتل معه فى نفس اللحظة .. وهــل من الإنصاف أن نشبه المومس بالفدائى .. عن أى قضية ومن أجل أى مبدأ كانت تناضل؟ أم أن التشابه فى إرادة الموت التى تسيطر على كل منهما!! الفدائى يموت دفاعاً عن الوطن وهى تموت دفعاً للظلم .

جاءوا لها بطبيب فأشاحت بوجهها بعيداً عنه . كرهت من أعماقها كل الأطباء . فجاءوا برجل دين، تصور أنها حزينة لفقد الأب فحدثها عن الحكمــة من الموت فلم تستجب .. اعترفت له .. فقال لها لتعلمى أن المال لا يدفــع موتــاً ولا يطيل عمراً . فسألت وهل كان المال الحرام سبباً فى موت أبى .. فقال: تحدد موعد موت أبيك قبل أن يولد .. ولا ذنب له فيما أتيــت بــه من مال حرام .. ولكن الله أراد أن يلقنك درساً . فسألت وأين العدالــة؟ قــال: هــذه هى قمة العدالة .. أراحتها كلمات الرجل فنهضت واستغفرت ولكنها لم تتحجب .

ولأنهــا فقيرة فقد رضيت برجل فقير زوجاً لها وعاشت فى سلام بصــراعات أقل وبدت القشرة هادئة ثابتة لا تكشف عن حقيقة ما تحتها .. وأنجبــت طفلاً ذكراً وحيداً ترضية لزوجها إذ كانت لاتزال تعتقد أن الحياة مؤلمة فلا داعى أن تطعمها بضحايا جدد .

وعـند السادسة مرض الطفل واحتاج إلى جراحة باهظة التكاليف . ودون أن تنـتظر البحـث عن وسائل طبيعية لتوفير المال لعلاجه – وكان هذا ممكناً – اتصلت بالقناصة .. وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة أخرى .. أى دافـع وأى مبرر!! ألم تتعلم من التجربة السابقة!! ألم تستغفر وتتوب!! أم هـو تمن لا شعورى للموت لها ولابنها!! هذا سلوك إنسانة تريد أن تنتحر .. والأم قـبل أن تنـتحر تقـتل ابنها لتجنبه مرارة الحياة .. أم أن روح المومس مازالت تستولى عليها وتتجسد إذا احتاج الأمر .

وقـبل أن تزاول النشاط طلبت الطلاق .. وأمام إصرارها الحديدى الـذى لا يليـن طُلقت .. ثم جمعت المال اللازم للجراحة التى تمت بنجاح وشفى ابنها وعاد إلى حالته الطبيعية .. وبعد عام بالتمام وفى نفس التاريخ الذى أجريت فيه الجراحة مات ابنها فى حادث سيارة .

فـى هذه المرة تقبلت الأمر بثبات خارجى وداخلى .. ربما لم يعد هـناك مكان من روحها يسمح بالحزن .. ربما لأن روحها سبقت ابنها فى المـوت .. كانت تبدو طبيعية للغاية .. وتوقع البعض أن الانهيار قادم لا محالـة .. ولكـن لـم يحـدث .. ظلت منتصبة القامة جامدة الوجه ثابتة الـنظرات .. لـم تحاول أن تبحث عن تفسير لأى شئ .. تعطل تفكيرها تماماً .. لماذا سقطت للمرة الثانية .. ولماذا طلبت الطلاق .. ولماذا توقفت عـن الرذيلة بعد جمع المال اللازم للجراحة.. ولماذا رفضت أن تعود إلى زوجهـا بعد أن شفى ابنها .. ثم لماذا نجا ابنها من الموت بفضل جراحة معقدة ولماذا يموت بعدها بعام فى حادث طائش .

وحاولوا أن يقنعوها بالعودة إلى زوجها بعد موت الابن فرفضت .. نصحوها بالحج فأبت .

وفـــى يوم من الأيام التقت مصادفة بالقناصة فسألتها ألا تفكرين فى معاودة النشاط مرة أخرى فالرزق وفير هذه الأيام .. تطلعت إليها باهتمام وقالت: ربما .

(٢٢)
حين يموت الأسد

للذكـــر مـــثل حـــظ الأنثيين، هل كان ذلك تفضيلاً أم مسئولية؟ هل مكافأة أم تكلفة الأعباء الملقاة على عاتقه لتظل له القوامة التى ترفعه درجة لـــيظل مســـيطراً ناشراً الظل وفارداً جناحيه حول زوجه وصغاره . مثبتاً للوتـــد المركـــزى الـــذى ترتفع عليه جدران سكن محكم الأبواب. يفحص الداخـــل بعـــناية فيمـــنع الباطل ويطرد المسئ؛ ولا يعبر النوافذ إلا الهواء الطيب، وبذلك يكون مثل الأسد فى الذود عن عرينه مادياً ومعنوياً .

بـــل فـــوق الأســـد وأقوى منه، قوته فى أصالته وضميره ليس فى صوته وعضلاته، وإذا مات الأسد هوى العرين واستباحته الحشرات، وإذا مـــات الـــرجل ترهلـــت الأبـــواب ويصبح دفعها هيناً، لا تقاوم الحيوانات الضالة، وتتشقق النوافذ فيتسرب عبرها الهواء الفاسد والنيات الآثمة.

الـــرجل هـــو الحصن ضد الإثم والعدوان، فإذا هوى الحصن تمت الاستباحة . ومات رجل فعلاً كان فى حياته أقوى من الأسد، لم يمت بفعل الســـهام والنـــبال ولكن مات بفعل الغرق، فالأسود لا تجيد العوم، وطفت الجـــثة مؤكدة النهاية وهذا من حظ الزوجة إذ تظل معلقة إن لم تتأكد الوفاة مدعومـــة بشهادة طبية، هذه الشهادة الطبية تكون عند بعض النساء شهادة

ميلاد لحياة جديدة، والجديد لابد أن يكون مختلفاً أى عكس ما هو قائم أو ما كان قائماً .

كانـــت الأرملـــة صـــغيرة حسناء ولديها ثلاثة من البراعم المؤنثة وســبحان الخـــالق فـــى كرمه مع بعض الوجوه، كثف لديها جمالاً بشرياً يمـــنحها ملاحـــة وســـماحة ووداعة فتنشر السرور وتبهج النفوس وتبعث بالنشوة فى كل الشرايين إلى أطرافها .

واعـــتادت الأرملـــة الحسناء أن تسحب بناتها الثلاث فى كل مكان تذهـــب إلـــيه فـــتكون فريقاً رباعياً اشتهر بالحسن والترحيب وبالمؤانسة وسهولة التعارف وتلقائية التواصل .

وعـــرف أن أسدهن قد مات فأصبح الاقتراب مأمون العواقب دون خشية أنياب لا تغرس إلا فى عنق الشيطان .

وعرفت الأرملة الحسناء بما تملكه من فطرة الأنثى – التى تعرف حجـــم لعاب الرجل دون أن تنظر إلى داخل فمه – قدر ما تملكه من ثروة طائلـــة مجســـدة فى بناتها الثلاث فنشطت لديها غريزة البغاء حيث تصبح مـــتعة الـــرجال مدفوعـــة الأجر، واشتعل ذكاؤها مواكباً لنشاط غرائزها وفطـــرتها فأدركـــت أنه من الأفضل أو من الأكسب أن تتولى هى منصب الإدارة والتوجـــيه والتنمية الحسية والمعنوية، وشئون العرض بدلاً من أن تـــنزل هى بنفسها إلى سوق العمل فإدارة شئون الحب لثلاث بنات تحتاج إلى جهد وعرق.

لـــم تـــأت لها هذه الأفكار بشكل مباشر، أى لم تفكر أبداً أن تعمل قوادة لبناتها الثلاث، وأن تقدمهن إلى الرجال وتتقاضى الأجر فى علاقات بغائـــية واضحة، فالبغاء الفعلى قد يتأخر بعض الوقت ولكن تسبقه وربما

بوقت طويل إرهاصات ومقدمات، كما أن القوادة ليس بالضرورة أن تكون مكشوفة بمعنى عرض الثمن والتفاوض عليه وإنما أريحية القوادة تعلن عن سرورها بالهدايا المقدمة والمجاملات المادية الكبيرة بدون مناسبة ودون اتفاق مسبق أو شروط.

هكذا كانت الأرملة الحسناء أو هكذا بدأت تتفتح مواهبها بعد موت الأسد وتكشف عن نفسها وفكرها وفلسفتها دون كلمات معلنة، بل دون أن تدرك هى ذاتها حقيقة التغيرات التى انتابتها، فهى لا تعرف أنها ستمتهن عن قريب مهنة القوادة، وأن بضاعتها الوحيدة ستكون بناتها الثلاث أى لن توسع دائرة نشاطها فتشمل أخريات ولن تسمح لأحد بأن يتولى إدارة شئون البغاء لبناتها الثلاث .

المدهش فى الأمر أن سيرتها الذاتية السابقة على وفاة الأسد لم تكن توحى بشئ فى هذا الإتجاه، كانت محافظة وملتزمة ومنطوية ذات دين وإن لم تكثر من الص[illegible] وقوره فى ملابسها وإن لم تتحجب، عازفة عن المكياج وكل أمور الزينة التى لم تصنع إلا لجذب أنظار الرجال من غير الأزواج، كان كل شئ هادئاً فى حياتها وكان آخر حدود أمنياتها أن تشب بناتها الثلاث على الفضيلة وأن يقرن فى بيوت أزواجهن لينعمن بالاستقرار مثلها فى ظل رجال أسود، ولا نستطيع أن ننكر أنها تشربت هذه الأفكار من زوجها رحمة الله عليه والذى حرص على أن يبث قيماً معينة تعكس فلسفته فى الحياة خاصة فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة على كل المستويات .

ولذا اندهش الجميع للتغيير الذى أصاب الزوجة الأرملة بعد وفاة زوجها، والعارفون بأمور الحياة وبعض العارفين بعلوم البيولوجيا أكدوا أن

هــذه الــزوجة كـــان لديها الاستعداد الشخصى الموروث والمسجل على الجيــنات، وأن هذه الجينات كانت محتاجة إلى الظروف المواتية لتعلن عن نفسها وتبدل سلوك هذه المرأة، وتكشف عن مواهبها فى حب المال الحرام وكيفية الحصول عليه من استعداد آخر محبب لنفسها وهى أن تكون قوادة، وفـــى مهـــنة القوادة بالذات يعرض القواد كل من عنده سواء بضاعته من صلبه أم بضاعة آخرين.

كان لابد من الإطالة لنجد تفسيراً لانقلاب هذه المرأة.

ونمـــت الـــبراعم بســـرعة بحكم إطراء الرجال والنظرات النارية والعـــبرات الـــندية بلعاب ذكورى كثيف فاستطالت القامة وتقدم الصدر مع تغـــيرات فســـيولوجية أخرى ظاهرة وخافية تعلن المولد الأنثوى المستعد للتلاقى على أى مستويات العلاقة بالجنس الآخر.

والغريـــب فـــى الأمـــر أن البنات الثلاث قد اكتسبن مهارات تفوق مهـــارة الأم، عرفـــن أن التمـــنع يزيد من السعر، وأن التجاهل يزيد من السعير، وأن الرجل كلما زاد عمره زاد سخاؤه وأن نظرات الوله أشد عند كـــبار السن وأنهم لا يستطيعون إخفاء لهفتهم وأنهم يصبحون كالأطفال فى تشبثهم بالحصول على شئ مهما كان الثمن.

واكتشـــفن أن الكشـــف عـــن الســـاق هو أسرع وسيلة للكشف عن اســـتعدادات الـــرجل للعطاء حيث لن يحاول إخفاء اتجاه عينيه نحو الساق المكشـــوفة وإطالة النظر ثم تبدو على وجهه تغيرات صارخة وكأنه يعانى ألماً.

واســـتمرت اللعـــبة بهـــذا الشـــكل المحافظ إلى دون العشرين من أعمارهـــن، مجرد جلسات طرية وضحكات ومؤانسات ونكات ذات معنى

وطعـــام جـــيد وخمور خفيفة وشديدة، وكشف أجزاء مهمة من الجسم عن طـــريق ملابـــس غالية الصنع، وكشف الجسم يكون إما بتعريته أو بإحكام الملـــبس، وكانـــت استجابة البنات تجمع ما بين الذكاء والبراءة، فإذا كان الـــرجل كريماً أغدقن فى إسعاده، وإذا كان شحيحاً أظهرن البراءة بمعنى حجب ما يهوى.

وتعـــددت الهدايـــا مـــا بين شقة فاخرة وسيارة ومجوهرات ثمينة وملابس غالية ومال نقدي.

وحـــتى ذلك الوقت لم ينكشفن بالكامل على رجل، إلا أن الأمر كان آخذاً فى التطور التدريجى وخاصة أمام الإغراءات الآخذة فى التزايد كلما زادت، علاقاتهن الاجتماعية.

واضطررن عن طيب خاطر فى النهاية إلى أن يتنازلن بعض الشئ – وبـــناء على نصيحة الأم – فسمحن بالقبلات والملامسات، ويبدو أن هذا القـــدر كـــان يسعد معظم الرجال من كبار السن وكانوا يعتبرونه منتهى ما يتمنون أو ما يستطيعون.

ولكـــن الأيـــام لا تمضى على وتيرة واحدة رغم ثبات حركة الليل والـــنهار، وتـــتابع الفصول وهرم الإنسان حتى موته فى النهاية فى نفس اللحظـــة الـــتى يولد فيها إنسان جديد بنفس الطريقة من جراء التقاء خلايا الحيوان المنوى بخلايا البويضة.

فســـبحان مثبـــت القلوب وسبحان مغيرها ومبدلها، حدثت الكارثة، البنـــت الكبرى أحبت وياللغرابة فقد أحبت رجلاً وظيفته الرسمية محاربة الـــبغاء، ولكن الحقيقة أن بغاءها كان مختلفاً ولا يدخل ضمن دائرة شئون الـــرجل الـــذى أحبها والدليل على ذلك أنها كانت عذراء فى ليلة دخلتها،

إنهــارت الأم وحزنــت الشــقيقتان الأخريان، ولكن العاشقة أصرت مثل إصرار العاشق الذى صعقه جمال الفتاة فلم يهتم بالسؤال عن أى شئ آخر رغــم أن موهبته كانت تتركز فى الفحص والمراقبة والسؤال، كان اشتغاله بمهــنة محاربة ومتابعة البغاء يشل قدرات ذهنه فى إمكانية أن يتزوج بغياً ابــنة قوادة، كان يشعر بأنه فوق ذلك وأنه من المستحيل أن يضحك القدر بهــذه الطريقة، فيزوجه من فتاة مشكوك فى سلوكها، ولذلك توكل وتزوج وأنجــب، ولا نــدرى بعد ذلك عن زوجته شيئاً إلا أن كل الظواهر كانت تؤكد استقرار حياتهما.

ثم حدثت الكارثة الثانية حين أحبت الفتاة الوسطى رجلاً وظيفته أن يــترافع ويدافع عن المشتغلين بالبغاء، وضحك القدر ضحكته العالية دون ســخرية من مشاعر الإنسان، ولكن للتدليل على إمكانية الإنسان فى خداع نفســه وتضــليلها والشــعور بالقوة التى تعميه عن رؤية الواقع، فتصور صــاحبنا الــثانى أنــه فوق هذا الخطأ بالذات، وتحجبت البنت الثانية بعد زواجها وانقطعت أخبارها حتى عن أمها وشقيقتيها.

أمــا الكارثــة الثالثة بالنسبة إلى الأم فكانت غير متوقعة إذ قررت ابنــتها الصــغرى أن تلــبس الخمار وأن تتفرغ للصلاة ودروس الوعظ، وســرعان ما اختطفها أحد أساتذتها فى العلم الدينى لتصبح الزوجة الرابعة عــن رضى وحب منها وإيمان بأن هذا من حق الرجل وأن عليها الطاعة والتفانى فى إسعاده تحت المظلة الربانية. وقد ينشغل المتابعين لهذه القصة بحــال الأم التى صارت وحيدة، قد يخمن أحد انها ستتزوج، قد يعتقد آخر أنهــا ســتتوب وتتديــن، وقد يتصور ثالث أنها ستنزل سوق البغاء بذاتها فمازالت مرغوبة أو أنها لن تتخلى عن مهنة القوادة.

الحقــيقة أنها كلها احتمالات واردة ومعقولة فليس من المعقول مثلاً أن نتصـــور أنهـــا ستعانى الاكتئاب لما أصابها وقد تنتحر، فمثل هؤلاء لا يكتئبن ولا ينتحرن، بل سرعان ما تنمحى آثار الكوارث ويطوين الصفحة ويبدأن من جديد.

ماذا فعلت هذه الأم؟

ســنؤجل ذلك إلى بضعة سطور حتى نكشف عن نهاية هذه القصة الواقعية جداً والتى مازال جميع أفرادها أحياء.

فـــى يـــوم مشهود اتصلت الأجهزة المعنية بالأزواج الثلاثة لقد تم ضـــبط الشـــقيقات الـــثلاث مع الأم فى آن واحد فى قصر أحد الضيوف الأثـــرياء، إحداهـــن كانت فى أحضان الرجل، والأخريات يتلهين بالطعام وحمام السباحة، وأن المراقبة تمت للنساء الأربع وثبت عليهن أنهن جميعاً باستثناء الأم يمارسن البغاء مقابل مال كثير خاصة مع الضيوف الأثرياء.

ليس مهماً أن نستفسر عن حال الأزواج الثلاثة بعد ضبط زوجاتهن واتهامهن بالدعارة بالرغم من أن إحدى الزوجات اتهمت زوجها بأنه كان يعـــرف كـــل شئ عن سلوكها، وأنه كان يقاسمها فى دخلها، وزوجة ثانية قالـــت إن زوجهـــا كـــان لا يسأل من أين يأتيها هذا المال الكثير، بل كان يقترض منها أحياناً، أما الزوجة الثالثة فقد شكت أن زوجها لم يكن يقربها إلا نادراً.

نعـــود إلى الأم فنكتشف أنها لم تعتزل الحياة بعد أن سقطت بناتها الـــثلاث فـــى حب الرجال المحترمين وزواجهن، ولكنها قررت أن تغسل مالهـــا فافتتحـــت مـــتجراً ضـــخماً فى أحد الشوارع المهمة التى اشتهرت بالغســـيل الجـــيد وأنفقت على ديكوراته مبلغاً ضخماً وأصبح قبلة للوجهاء

والأثرياء وكانت بناتها يزرنها من وقت إلى آخر في هذا المتجر، واعتادت البـنات نظراً لتواضع دخول أزواجهن على الاقتراض من الأم وهذا دليل على عودة العلاقات الطيبة بالأم مع التقدير لجهودها رغم اليقين بأن دخلها مشـكوك في صحة مصادره إلا أن أياً منهن لم تجرؤ على سؤال الأم عن روافد مالها وذلك حين يسألنها المساعدات المادية والتي لم تبخل بها.

كانـت هـناك لغـة غير منطوقة للتفاهم بين الأم وبناتها، وعرفت البنات أن الأم تود منهن أن يوجدن أكثر في المتجر وأن يكن أكثر رقة مع الزائرين.

وكـان لهـذه الـرقة ثمن فانهالت الهدايا والأموال مرة ثانية على البنات.

ونسـتطيع أن نـتوقع باقي القصة حيث وصلت الحال بالبنات إلى علاقات كاملة مدفوعة الأجر تحت رعاية الأم، وهي رعاية من نوع خاص تختلف عن رعاية الأب الذي مات.

(٢٣)
اللاشئ فى اللا زمن

الخـــوف الحقيقـــي ألا يكون هناك خوف، والألم الحقيقي ألا يكون هـــناك ألم، أخاف لأنني لا أتألم، والحياة عدم إذا لم يكن هناك خوف وألم، هذا يلغى التوقع، يلغى الترقب والتحفز، يميت الإثارة، يضعف القلب حتى يــتوقف، وإذا توقــف القلب مات الإنسان فى لحظة، والميت لا يخاف ولا يــتألم، وأيضاً لا يحلم، والأحلام تنطوي على خوف، وعدم تحقيق الأحلام يحـــدث ألمـــاً فيعود الإنسان ليحلم من جديد ويخاف من جديد، إنها الثلاثية النابضة: الحلم.. والخوف.. والألم.

ومن لا يحلم لا يخاف. ومن لا يخاف لا يتألم ومن لا يتألم لا يفكر أن يحلم مرة أخرى.

ولا يســـعى الإنســـان إلى تحقيق أحلامه إلا من أجل أن يشهد عليه إنســـان آخر، ولا يخاف الإنسان إلا من إنسان آخر، ولا يتألم الإنسان إلا بفعل إنسان آخر.

وهكـــذا تمضــــي الحـــياة، نخيف ونخاف، نؤلم ونتألم، فى مواجهة مســـتمرة بيننا وبين الآخرين، تحد واستنفار، حروب، ثم سلام، فلا حرب تدوم ولا سلام يدوم، يصطنع الإنسان الحروب، ثم يبحث عن السلام، ولا

خــوف يــدوم ولا أمان يدوم، يصنع الإنسان آلة الخوف ثم يدفع أي ثمن للحصـــول على الأمان، يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكة حتى يذوق الألم ثم يدفــع للطبيب كل ما عنده لتسكين الألم، وإذا فشل الإنسان فى أن يجد ما يؤلمه يوخز هو نفسه ليصرخ ويستمتع بالألم.

وبذلــك يظل القلب يعمل بكفاءة، تظل الدماء متدفقة فى الشرايين، يظل العقل متيقظاً والنفس متأهبة والروح متوثبة وتظل الحياة حياة، وفيما عدا ذلك فالموت محقق لا مفر منه.

والإنســـان إمـــا أن يمــوت غدراً، وذلك حين يأتيه الموت وهو لا يرغــب فـــى أن يمــوت، وإما أن يموت بناء على رغبته، يعلنها أريد أن أمــوت، كفانـــي حياة ليست حياة، حياة بلا خوف ولا ألم، حياة يمتنع فيها الحلـــم، فــنفقد الدهشـــة والحدس، نفقد إدراك اللحظة القادمة. تندثر تماماً اللحظـــة السابقة، فتضيع تماماً اللحظة الحاضرة، أي يختفي الزمن، نصبح بلا زمن، فيصبح أي فعل بلا معنى، كأنه لم يفعل، أو هو لا يفعل فعلاً لأن أي فعل يحتاج إلى زمن لكي يحدث فيه.

مضـــى كل شئ عكس ما توقع، إنهم يأتون عادة فى الفجر؛ لكنهم جاءوه فى وضح النهار.

يطـــرقون الباب بشدة ولكنهم كانوا غاية فى الرقة، وبتلطف طلبوا منه أن يأتي معهم وابتسامة عريضة تفرش وجوههم، فعرف أنه مقبوض عليه، أمهلوه ليغير ملابسه ويودع أسرته ثم ركب معهم عربة مريحة دون قيود تلفت الأنظار، وكأنما غادر مع أصدقاء له.

ضاع عليه جزع الأسرة وغضب الجيران وحنق المارة، ليس هكذا يقبضـــون علـــى ثائـــر مثله، المشهد من أوله لا يليق به، إنه مناضل من

الطـــراز الأول، اغتال العشرات وتآمر على المئات وتعرض للموت ألف مرة.

هــتف فـــى ســـره والسيارة تمضى بهم: قاتل الله الجبن والجبناء، ومازالــت نفـــس الابتســـامة تملأ وجوههم ولكن لا أحد ينظر إليه، تركوه يـــتأمل الطـــريق كيفما يشاء، لابد أنهم سيأخذونه إلى مكان معروف وإلا كـــانوا قـــد غموا عينيه أو على الأقل وضعوه فى سيارة لا ترى النور من داخلها.

ظل متابعاً للطريق وكان يعرفه إلى أن ضاع منه، لابد أن السيارة خرجــت من المدينة، بدليل التواضع المتدرج فى حال البيوت والطرقات، أدركه السأم من تشابه البيوت، وتدريجياً ظل الطريق يقفر من الناس رغم بعدنـــا عن الليل، وإذا بالسيارة تمضى على طريق ضيق يشق الصحراء، ملســـاء تمامـــاً صفراء تماماً، لا هضاب ولا تلال، لا كلأ ولا مرعى ولا بـــيوت ولا بشـــر، ولا أحـــد ينظر إليه وما أغاظه أكثر أن السماء كانت صـــافية، أتاحــت للشمس الافتراش الكامل للرمال فأضاعت فرصة التباين اللونى الذى تتميز به رمال أى صحراء.

وكـــاد ينام، لكن تنبه إحساسه بانحراف السيارة يميناً، ثم انحرافها يســـاراً، ولكـــن سرعان ما ضاع هذا التأثير لأن ملامح الطريق لم تتغير، لـــم يجلـــب هـــذان الانحـــرافان شيئاً جديداً، فلا شئ يبدو على خلفية شئ آخـــر، ولا شئ يقاس إلى شئ آخر، إنه التتابع بلا معنى، وكأنه لا هدف، وكأنهـــا ضلوا الطريق، ياليتهم يضلون الطريق حتى يتبدد الملل، ولكن لا يـــبدو علـــى وجوههم أنهم ضلوا الطريق. نفس الابتسامة، ونفس الهدوء، ونفـــس النظرة المثبتة إلى الأمام، بل سرعة السيارة نفسها لم تتغير، وحتى

وإن أبطـــأت أو أســـرعت، لمـــا شعر بها، ففى الصحراء تفقد الإحساس بســـرعة الســـيارة إذا لـــم تكن هناك أهداف أو علامات، إذا لم تكن هناك بروزات وانثناءات.

فكـــل شـــئ كان مسطحاً أملساً، والنتيجة الطبيعية هى الشعور فى النهاية بأن السيارة لا تتحرك، لا شئ على الإطلاق يشير إلى حركتها، لا نقطـــة تصـــل إليها، أو تبتعد عنها، لا سحابة فى السماء تلاحقنا ونسبقها، شـــعر بـــالقلق وتصبب العرق منه، ليس بسبب المصير الذى ينتظره، فقد تعـــود سيناريو القبض عليه عشرات المرات، وإنما قلق بسبب الحالة التى هم عليها والتى لم يتعرض لها فى المرات السابقة.

وتطور القلق إلى شعور حاد بالغضب، ولكن الغضب من أى شئ!! وضـــد مـــن؟ وليس من وسيلة يعبر بها عن غضبه، ثم تحول الغضب إلى حزن وكاد يبكى لولا كبرياؤه الذى عرف عنه، ثم استحال الحزن إلى حالة مـــن الـــبلادة، وتمنى الموت الفوري، تمنى أن تنقلب بهم السيارة ليموتوا جمـــيعاً ويمـــوت معهـــم أو حـــتى يموت هو وحده، تمنى أن يطلقوا عليه الرصاص، وفرح لهذا الخاطر وراوده الأمل، ربما يقودونه إلى مكان بعيد لـــيفرغوا فـــى رأسه عدة رصاصات. الموت بالرصاص أكثر رحمة من الموت بفعل الضجر. وفجأة لاح مبنى من بعيد، فهتف من أعماقه: هذه هى الرحمة بعينها، ولكن لم يلتفت إليه أحد.

اقـــتادوه بنفس الرقة إلى الداخل، عجب أنه لا يبدو كالسجون التى تعـــود عليها، المكان يلوح بالنظافة والإشراق الضوئي، الابتسامة تنير كل الوجـــوه التى قابلته، الرجال فى ملابسهم المدنية، لا جنود ولا أسلحة، ولا أسلاك شائكة. اقتادوه إلى حجرته وكأنها كائنة فى فندق إلا أن الأثاث كان

بسيطاً يحمل نفس لون الجدران، مساحتها محدودة إلى حد ما ولكن السقف شـاهق الارتفـاع. كانت مضيئة دون أن تكون بها نافذة واحدة، ورائحتها تشير إلى أن هواءها متجدد بالرغم من عدم وجود أى منافذ.

أغلقـوا الباب من خلفهم ومضوا فقفز مباشرة صوب الباب محاولاً فتحه، فاكتشف استحالة ذلك، بحث عن أى أدوات تعينه على ذلك فلم يجد، أبعـد عن ذهنه فكرة محاولة الهروب، وأخذ يدور فى الحجرة متأملاً. إنه مكان يتيح النوم المريح ليس كمثل الأماكن السابقة التى اعتادوا أن يأخذوه إليها، الحمام نظيف. عجيب أمر هؤلاء الناس أأنا سجين أم ضيف عليهم؟! وفـى أحـد الأركـان اكتشف صندوقاً فى داخله طعام مجفف يكفى عاماً، ولكـنه مـن نوع واحد، أكل بنهم وكان الطعم لذيذاً، وشعر بالحاجة للنوم فاستلقى على السرير المريح.

اسـتيقظ بمشاعر محايدة ولكن جسمه كان مستريحاً، لم يدر كم من السـاعات ذهـب عن الدنيا، اغتسل وتوضأ وصلى دون أن يعرف حقيقة الوقـت، فالحجـرة مازالت على مستوى الضوء الذى استقبلته به كما أن الساعة فى يده أصبحت غير ذات فائدة.

دار مـرة أخـرى بالحجرة، لم يكتشف شيئاً جديداً، كل شئ أملس ناعم، ذو خطوط مستقيمة دون بروزات. كل شئ يحمل نفس اللون، حاول أن ينصـت لعلـه يسمع صوتاً آدمياً ولكن يبدو أن الحجرة كانت معزولة عزلاً تاماً عن العالم الخارجي، ألصق أذنه بالحائط ولكن يبدو أنه كان فى سـمك جـبل، ولكـنه طمأن نفسه أنهم لابد قادمون ليحققوا معه، بالتأكيد اكتشـفوا تآمـره الخطـير وخطته الجهنمية التى من أجلها لن يكفوا عن تعذيبه، وربما محاكمته وإعدامه.

لا يمكــن أن يــتركوه يهرب بجريمته، إنهم قادمون قادمون، ولكن أحــداً لــم يأت، قال لنفسه ربما لم يمض وقت طويل منذ مجيئى إلى هذا المكـــان، أو لعــل الـــيل هـــبط، والتحقيق معى سيكون صباحاً بإذن الله، واستعصــــى علـــيه النوم بعض الوقت لتلهفه عليه ثم نام واستيقظ قام على شعور بالابتهاج لتوقعه أنهم قادمون فالصبح قد جاء حتماً، وربما يأخذونه إلى حجرة التعذيب مباشرة.

ولم يقشعر بدنه لفكرة التعذيب هذه المرة، ولكن أحداً لم يأت، فظل ينادى ولكن أحداً لم يستجب، وكان من ضمن ما هتف به أنه هدد بالانتحار وليــتحملوا مسئولية موته، بالتأكيد لم يسمع أحد.. أين ذهبوا وتركوه، وما هذه الحجرة التي لا ينفذ منها صوت، شعر ببعض الجوع فتوقع أن الوقت ظهراً.

أكـــل بنصف شهية، وشعر برغبة في النوم، ولكنه عادة لا ينام إلا بعــد منتصف الليل، فهل جاء الليل!! احتار فى الوقت أدرك أنه فقد القدرة علــى تقدير الزمن تماماً حيث لا توجد أى علامات أو مؤشرات وهذه هى بدايـــة فقد الزمن، أى أنه يعيش فى اللازمن وأرعبته الفكرة، جعلته يشعر بالضـــياع، حـــاول أن يبحث عن طريقة يحسب بها الزمن، يكفى إحساسه بمـــرور الزمن، ليس مهماً الآن أن يعرف التوقيت، هو فقط يريد أن يشعر بحـــركة الزمـــن، حركته للأمام، فيصبح هناك زمن مضى وزمن حاضر وزمن فى المستقبل.

وهـــداه تفكـــيره إلى أن يتحسس نبضه. معلوماته أن قلب الإنسان ينـــبض مـــا بيـــن ٧٠ إلى ٩٠ مرة فى الدقيقة، وهذا معناه أنه إذا عد ٧٠ نبضة فهذا معناه مرور حوالى دقيقة وأن يدرك ساعة كاملة فهذا معناه أن

يعـد ٧٠ نبضة ستين مرة، وإذا أراد نهاراً كاملاً أو ليلاً كاملاً، فليضاعف ذلك ١٢ مرة، أما إذا أراد يوماً كاملاً بليله ونهاره فعليه أن يضاعف العمل ٢٤ مـرة، أى ٧٠ نبضـة ٦٠ مرة فى ٢٤ مرة، هكذا يعرف أن يوماً قد مضى، ومن خلال ذلك يتعرف على الأسبوع ثم الشهر ثم السنة.

واكتشـف استحالة أن يقوم بذلك، ثم ما فائدة ذلك إذا كان لا يعرف إذا كان الوقت ليلاً أو نهاراً. هل سيخمن؟

ما قيمة التخمين والتقريب فى حساب الزمن، لقد جعل الزمن ليكون شاهداً على عمل الإنسان وشاهداً على عمر الإنسان، ومفهوم الدقة عرفناه منذ تعرفنا على الزمن، وما قيمة زمن لا يقاس بدقة.

, عـند هذه النقطة كاد يفقد عقله، وانتابته حالة هياج، وقرر أن يقتل نفسـه، وحين وصلته هذه الفكرة هدأ، ولكن كيف ينتحر بينما لا توجد أى آلة فى الحجرة، ولا يوجد ما يخنق به نفسه.

ولكن هيهات أن يجد إنساناً مثله صعوبة فى قتل نفسه وهو المدرب علـى القـتل بشتى الطرق، الحل الوحيد هو أن يندفع جرياً صوب الحائط لـترتطم بـه رأسه فتتفتت الجمجمة ويتهتك المخ. وبكل ما أوتى من قوة اندفـع كثور هائج صوب الحائط، وتحقق له الاصطدام وفقد وعيه، ولكنه أفـاق بعد مدة، دقيقة أو أسبوع لا يعرف، لكنه أدرك أن محاولة الانتحار فشلت.

ولاحـت للبقـية الباقـية من عقله فكرة كان قد تعلمها أثناء فترات تدريبه لإعداده لمواجهة مثل هذه المواقف وهى أن يستعيد ذكرياته السابقة لـيظل عقلـه يعمل، وليتذكر أحداثاً معينة وارتباطها بالوقت، تذكر بعض انتصـاراته، لكـنه لم يهتز، تذكر بعض أحداث فى طفولة أبنائه ولكنه لم

يـتحرك، فشـلت الـتجربة لم تفلح الأحداث السعيدة فى تحريك مشاعره، وإبقـاء ذهـنه مرتبطاً بالزمن، فهداه تفكيره إلى أن يتذكر الأحداث السيئة لعلها تهزه، حاول أن يستعيد يوم موت أبيه وهزيمة الوطن ويوم أن اقتادوه لإعدامـه، لكنه استطاع الهروب، تذكر كل صنوف التعذيب التى تعرض لهـا، حـاول أن يتشبث بذكريات الحرب وموت أصدقائه، لا شئ، لا شئ بالمرة عقله توقف تماماً، إحساسه مات.

فقدت الأحداث معناها بعد أن فقد الإحساس بالزمن، إن قيمة الحدث مرتبطة بالزمن الذى يقع فيه، لا أهمية ولا قيمة ولا تأثير لحدث لا نستطيع أن نحـدد له زمـناً وحيـن يفقـد الإنسان الإحساس بالزمن تصبح الحياة كـالموت، والفـرح كالحـزن، والإخـلاص كالخيانة، والحب كالكراهية، والخوف كالأمان، والحرب كالسلام.

يصـبح كل شئ بلا معنى، بلا قيمة، بل يصبح كل شئ بلا وجود، بل يصبح لا شئ، اللا شئ في اللا زمن.

وبالجزء الخير المتبقى من عقله أدرك لماذا يحارب الإنسان!! لماذا يخـون!! لمـاذا يغـدر!! لماذا يسرق!! لماذا يكذب!! لماذا يخدع!! لماذا يغـش؟! إنـه يفعـل ذلـك لأنه يريد أن يخلق زمناً من خلال حدث، لأن اسـتمرار السلام والأمان والإخلاص والحب والصدق سيخلق حياة ملساء خاملة يصيبنا فيها الضجر إلى حد الموت، الخير سيقضى على الزمن، أما الشر فبالتعاون مع الخير سيدفعان عجلة الزمن إلى الأمام.

وحيـن فقد عقله تماماً تمدد جسده على الأرض دون حراك مفتوح العينيـن فـاقد الإحساس ثم جاءه ملك الموت فقبض روحه، مات دون أن يشكر ربه على نعمة الموت.

(٢٤)
القطـــــــار

القطـــار لـــيس له هوى، لا يحيد ولا يضل الطريق، يفى فى معظم الأحيان بما يعد ميقاتاً واتجاهاً، إذا اتجه إلى الشرق ولى ظهره إلى الغرب وإذا وعد بالوصول فى المساء حمل الشمس على ظهره طوال النهار، من ركـــبهُ فهـــو آمن، ما أن تطأه قدماك حتى يزول عنك القلق وتنشرح ثنايا النفس إما فرحاً بلقاء مرتقب، أو لقضاء حاجة.

وإذا رصـــدنا مشاعر مرتاديه وجدنا أن محصلتها مزيج من النشوة والترقـــب فهـــو يحملهم فى يسر دون أنين وينقلهم حيث يريدون دون أن ينشـــغلوا بطـــريق ويتيح لهم لحظات ليست قليلة للتأمل الداخلى ولحظات أخـــرى لمراقـــبة من ركبوا معهم فى محاولة لسبر أغوارهم والكشف عن نفوســـهم بمطالعـــة تعبـــيرات الوجوه، وتأليف سيناريوهات مستعينين بما يلـــتقطونه مـــن حوارات تتلقفها الأذن بجهد لامتزاجها بالضجيج الأثيرى الناشـــئ عـــن احتكاك عجلاته بالقضبان، احتكاك لا يقوى على استمراره بعنف إلا الحديد.

وإذا كنت من عشاق المدن مثلما يعشق الرجل امرأة أو تعشق امرأة رجـــلاً، فإن رحلة الذهاب بالقطار تكون راقصة ولا تشغلك كثيراً أحاديث

الــناس ونظــرات عيونهم، أما فى رحلة العودة، فالنفس تغلفها رقائق غير مرئية ولكنها محسوسة من الحزن ولا تملك إلا أن تطالع الوجوه من حولك لعلك تنشغل فتهرب من الفتور الذى علق بروحك.

طلب من سائق التاكسى أن يمضى من طريق البحر ليودعه وواعداً بلقــاء قريب وليملأ صدره برذاذ يسكره، ويحشو أنفه برائحة تصل به إلى أقصى درجات اللذة.

لحــق القطــار بالكاد، أسف على أن لم تتح له فرصة التجوال فى المحطــة بعــض الوقت فهى جزء من غرامه، ورغم أن الكراسى تحمل تذاكــر أصــحابها إلا أن الــناس كانوا يتدافعون خشية أن يسبقهم أحد إلى أماكــنهم، أما هو فقد تحرك بتأن كعادته إلى كرسيه فى الدرجة الثانية ولم يكــن مــتاحاً غــيره بسبب ازدحام الصيف، فوجده محتلاً بأحد المسافرين فاستأذنه فتركه على مضض، وما أن جلس حتى أخرج كتاباً دس فيه وجهه ليتقى أعين الناس التى كانت تقلقه فى بداية أى مواجهة.

تحــرك القطــار علــى مهل فمد بصره عبر النافذة الزجاجية ملقياً النظرة الأخيرة على مدينته المحبوبة ومتابعاً الأضواء المنبعثة من البيوت المتناثرة على جنبات الطريق، فتسلى باستدعاء بعض الصور إلى ذهنه عن الحــال الــتى يكون عليها أهل هذه البيوت فى هذه اللحظة، فتصور رجلاً يضــاجع زوجــته، وأباً يستذكر لأبنائه، وأماً تعد العشاء للزوج والأبناء، وأســرة ملــتفة حــول التليفزيون، وفجأة انبعث من جانبه وقريباً من أذنه اليمــنى صوت أجش لرجل يتحدث باللغة الفصحى فانتفض لعلو الصوت، ولأول مرة ينتبه إلى من حوله فوجد كل العيون تتجه حيث جلس، واكتشف أن الصــوت ينبعــث من جهاز تسجيل يحمله جاره على فخذيه، ولم يركز

فيما يقوله شريط التسجيل بقدر ما ذهل لهذا السلوك الغريب وغير المتوقع مـن ركـاب هـذا القطار بالذات، وعلى خلاف ركاب الدرجة الثالثة فى القطـار المـتجه إلـى الصـعيد حيث يحمل كل مسافر جهازه ليسمع ما يشـاء وتخـتلط الأصوات فى فوضى سمعية ويخال لك أنك فى حلبة أحد الموالد.

زال عـنه قلـق مواجهة العيون فأخذ يتأمل فيمن حوله، كان جاره رجـلاً فـى منتصـف العمر ذا لحية قصيرة هى مزيج من الشعر الأسود والأبـيض، يضـع علـى رأسه طاقية بيضاء ومرتدياً بدلة صيفية زرقاء ممسـكاً بمسـبحة بـإحدى يديه وسانداً باليد الأخرى جهاز التسجيل الذى وضـعه على أعلى فخذيه، وجلس على الكرسى المقابل رجل وزوجته أو هكذا يبدوان وقد تعديا منتصف العمر، وكان مظهرهما يدل على أنهما من الطبقة فوق المتوسطة، وعن يمينه مباشرة وعلى مقعدين متجاورين جلس شاب وفتاة شديدى التشابه مما يدل على نوعية القرابة. وواضح أنهما على صلة بالرجل وزوجته لتشابه البنت الشديد مع المرأة الكبيرة فضلاً عن أن الأربعـة لـم تـنقطع تواصلهم بالنظرات، وعن يمينه أيضاً وفى المقعدين المقابليـن للفتى والفتاة رجل شكله يوحى بأنه مهم ومظهر زوجته ينم عن ثـراء معقـول ويبدو أنهما مثله لم يوفقا فى الحصول على تذاكر بالدرجة الأولى بسبب الصيف.

وبعـد هـذه الجولة الاستطلاعية التى استغرقت دقيقة أو أقل قليلاً وجـه انتـباهه إلى الصوت الصادر عن جهاز التسجيل والذى كان يصل بسـهولة إلى طرفى عربة القطار وبوضوح شديد رغم العجلات واحتكاك مصدات العربات.

فإذ هى خطبة دينية إسلامية تتوعد أصحاب الديانات غير الإسلامية وتعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة.

وأول مــا تــبادر إلــى مشــاعره هو الحرج خشية أن يكون أحد المســافرين مــن الأقباط فتجرح مشاعره، وصدق حدسه إذ لأسباب كثيرة عددها لنفسه تأكد أن الرجل وزوجته اللذين يجلسان أمامه مسيحيان، وكان أول الأدلــة أن الابن انتفض من مكانه واتجه إلى حامل المسجل طالباً منه بــأدب ولكــن بحــزم أن يخفض من صوت جهاز التسجيل، تطلع جميع المحيطيــن صــوب الرجلين، ارتعشت القلوب بفعل موجة كهربائية عمت الجــو، توقعــوا مواجهة ساخنة قد تنقلب إلى معركة، لم يعد هناك شك أن الشــاب مسيحي، رفع حامل الجهاز عينيه إلى الشاب وابتسم وأومأ برأسه وفعــلاً خفــض مــن صوت الجهاز، ثم أغلقه تماماً فارتاحت كل النفوس وشعروا بالامتنان للرجل صاحب الجهاز واتجهت إليه العيون تحية وتقديراً ولكنه لم ينظر إلى أحد وأسند رأسه إلى ظهر المقعد وغفا.

عــم الهــدوء إلا من صوت القطار، وجاء مفتش القطار وفهم من حديــثه مــع بعض الركاب أن هذا القطار سيتجه إلى الصعيد مباشرة بعد مــروره بالعاصمة، وهنا تأكد له أن الأسرة إياها هى أسرة مسيحية جاءت من الصعيد لقضاء عطلة الصيف على البحر، وهى الآن فى رحلة العودة، ومــن غير المسيحيين يدرك أهمية عطلة الصيف وضرورة قضائها على البحر مثل الخواجات، وهذا سبب ثالث يؤكد أنها أسرة مسيحية.

أمــا الســبب الــرابع فهــم يركبون الدرجة الثانية ومعروف عن المسيحيين وعيهم وحرصهم واهتمامهم بالمال، وهذا الحرص بدا أيضاً فى أن السيدة أخرجت من حقيبة خاصة بعض الطعام والشاى لأسرتها لارتفاع

أســعار هذه الأشياء بالقطار، أما آخر هذه الأسباب فهو ذلك الشكل المميز لمعظم المسيحيين لامتزاجهم الشديد ببعضهم البعض.

ردد لنفســه أكــثر مــن مرة: هذه أسرة مسيحية وعجب من نفسه لانشــغاله بهــذا الأمــر، وقال لعلى مازلت أشعر بالحرج لسلوك جارى الغريب. وفجأة ارتفع صوت المسجل أكثر مما كان وكان الرجل قد صحا من غفوته وبدت على وجهه هذه المرة أمارات التحدى ناظراً أمامه مباشرة إلى الشخص بقسوة تقول أنه مصر بشدة ولا يقوى أحد على منعه.

تبادلــت الأسرة المسيحية النظرات، بدا الرعب على وجه الأم، أما الأب فتــبادل الــنظرات مــع ابنه أن يسكت ولا يقوم من مكانه، أما الفتاة فأطرقــت مــن الخوف، واشرأبت أعناق الناس ناحية الرجل الغليظ، ولم ينبس أحد، وكان من بين الجلوس قسيس لم يرفع رأسه من الكتاب المقدس، وفعل مثله شيخ معمم كان يقرأ فى كتاب دينى.

أمــا هو فقد امتلأ قلبه بالغيظ، وفكر عشرات المرات فى أن يطلب من الرجل أن يغلق جهازه ولكنه لم يستطع ربما ليس خوفاً وإنما خشية من انفجار الموقف بما يسئ إلى جميع الأطراف، وربما يورطهم فى معركة لا تحمد عقباها.

وعــند هــذه اللحظة الساخنة تأكد له تماماً أن هذه الأسرة مسيحية بســبب الــتوتر العنــيف الذى أصابهم، وتطلع فى النهاية إلى عنق المرأة وابنتها فوجد كلا منهما جرداء من أى حلى وهذه هى عادة بعض السيدات مــن المســيحيات، أمــا البعض الآخر فيضعن صليباً ضخماً، ومثلما يدل الصــليب علــى نوعــية الديانة فإن خلو العنق تماماً يدل أيضاً على نفس الديانة وهى المسيحية.

وامتلأ قلبه بالإشفاق على هذه الأسرة وشعر بحنق شديد تجاه حامل الجهـــاز الذى هو أكبر مسئ للإسلام، شعر بأنه ابن لهذه الأسرة المغلوبة علـــى أمرها، وحانت منه التفاتة إلى الفتاة وكانت فى عمر الزواج فوجدها تـــنظر إلـــيه مـــن طـــرف خفي، لعلها تستنجد به، أو لعلها لاحظت تأثره وتعاطفـــه فأرادت أن تظهر له امتنانها أو لعلها وهذا احتمال غير مرفوض أنها معجبة به.

وبـــدون تمهـــيد منطقـــي، وبدون تطور موضوعى للأحداث فليس إلا حـــدث واحـــد، وبـــدون حـــبكة درامية امتلأ قلبه بفيضان عاطفة تجاه هـــذه الفتاة، تجرأ أكثر فى النظر ناحيتها، فلم تمنع نفسها من النظر إليه بل كانـــت أكـــثر جرأة فى ثبات نظراتها، وعلامات التشجيع التى لا تستبين فـــلا تدرك بالعينين وإنما تحس بالداخل، وفى النهاية وبشكل لا يخطئه إلا متـــبلد لاحظ ابتسامة خافتة على وجهها وإيماءة نحيلة برأسها، فزاد هيامه وقـــال لنفسه: ربما أحببت هذه الفتاة، وكانت له نظرية فى الحب من أول نظـــرة تؤكـــد أن هذا النوع من الحب قابل للحدوث وأنه حب حقيقى وأنه ســـابق بزمـــن على تلك النظرة الأولى، فالمحبوب كان موجوداً في خيال المحـــب قبل أن يراه وحين رآه تعرف عليه من أول نظرة وكأنه كان فى انتظاره.

أفاق من سباحته فى بحر العشق إلى حقيقة أنها مسيحية، وذلك أمر لـــم يعـــد فيه أى شك، وهنا عبرت فى رأسه عشرات النماذج من زيجات تمـــت بين أبناء وبنات من ديانات مختلفة، الأمر ليس إلى هذه الدرجة من الصـــعوبة، ومادام قد حدث مرة، ولو مرة واحدة فإنه يكون قابلاً للحدوث مرات ومرات إلى أن نعود جميعاً إلى الخالق.

وأراد أن يفكر بطريقة عملية، ماذا يفعل الآن، هل يفاتحها، هذا أمر غـير معقـول، هل يكتب لها ورقة يسقطها فى يديها بطريقة ما، هذا أمر غـير مـأمون، هل يبقى فى القطار حتى المدينة التى يهدفون إليها وهى تقريـباً المديـنة قـبل الأخيرة فى رحلة القطار إلى أعلى الصعيد وبعدها يعرف أين يقطنون؟

هذه مخاطرة قد تفضى إلى لا شئ، هل يتحين الفرصة ويبدأ حواراً مع أبيها قد يتحول إلى صداقة من خلالها يصل إلى فتاته.

نظـر إلى ساعته، بقى على محطة وصوله ساعة، الوقت يمضي، لابـد أن يفعـل شـيئاً، مستحيل أن يترك حبيبته لتضيع من يديه، أثارته ضحكة صدرت عن السيدة الثرية وزوجها الأرستقراطى اللذين لم يكفا عن الحديـث والضـحك بمودة طوال الوقت ولم ينتبها إلى تكهرب الجو العام بسبب الكاسيت ومحتوياته التى سببت خوفاً وحرجاً، وعجب من اللامبالاة التى أبداها هذا الرجل وزوجته وسخط من غلظة القلوب والأنانية.

كـاد يجن والدقائق تمضى سريعة وحبيبته مازالت ترجوه أن يفعل شـيئاً، تجـرأ وابتسم ملأ وجهه، بادلته بابتسامة أكثر اتساعاً، لا شك لديه الآن أنها تريده، ولا يوجد أدنى شك فى تسامحها الدينى وأنها مثله لا تعتقد أن اختلاف الدين عائق بين المحبين.

واتجه إلى نفسه ليسخط عليها واتهم نفسه بالجبن مرتين، مرة حين لم يردع صاحب الكاسيت، وهذه المرة وهو يمتنع عن فعل شئ جرئ ينقذ بـه حـبه، إلا أن الحب يهب القلوب شجاعة الأسود، فكتب اسمه وعنوانه ورقـم تلـيفونه على ورقة مد بها يده إلى الأب قائلاً: أقدم لك نفسى وأنا أحـبى حكمـتك وصـبرك، يشرفنى أن أتعرف عليك، هل أطمع فى رقم

تلــيفونك، نظر إليه الرجل بدهشة شديدة ولم ينبس، شعر صاحبنا بالحرج الشديد، وقال لنفسه هذا سلوك آخر من سلوك الأقباط الذى يتسم بالشك.

لــم يملك إلا أن يحلق بيأس فى وجه حبيبته معتذراً عن فشله فى الذود عن حبهما.

فجــأة حــدث أمر أفقده وعيه لمدة ثوان، ثم عاد مشوشاً إلى درجة أفقدته الإدراك السليم، أخرجت الأم مصحفاً من حقيبتها، وأخذت تقرأ فيه، انهار تماماً وشعر بأن كل جسده ينتفض مع عرق غزير أسدل ستاراً على عينيه فبدا وكأنه يبكى وحقيقة الأمر أنه كان يبكى في داخله.

أفاق على شعور كامل بالفتور تجاه الفتاة.

هذا أمر عجيب، المفروض أن أفرح أنها أسرة مسلمة إذ يسهل ذلك أمــر اقترانى بها، وحتى لحظة مغادرته القطار إلى مدينته لم يعرف سراً لهــذا الــنفور الــذى أصــابه، وبينما هو يترجل من القطار دفعه الرجل الأرســتقراطى وزوجــته الثرية وحانت منه التفاتة إلى عنقها فرأى صليباً كبيراً يتدلى إلى منتصف صدرها.

(٢٥)
ولم لا ؟!

يحمـــل الليـــل دعـــوة عامة لكل الكائنات الحية لأن تنام، فيستجيب معظمهـــا أما القليل جداً فيبهره الليل ويفضل أن يعيشه متيقظاً وينام بعض أطراف النهار.

وأثـــناء النوم تخمد كل الغرائز ولعل تلك هى حكمة النوم ليستريح الإنسان على وجه الخصوص من الإلحاح والمقاومة وذل الحاجة أحياناً إن كان لا يستطيع.

ولا يقطع النوم إلا شبع أو جوع.. شبع من النوم أو جوع لإرضاء غريزة ضاغطة جمعت قواها أثناء النوم ووصلت إلى الحد الذى تحدث فيه ألمـــاً يودى إلى الاستيقاظ فيبحث الإنسان عن طعام أو شراب أو ليبول أو يوقـــظ زوجـــته وتوقـــظ زوجهـــا.. وفى حالة غياب شريك الفراش يأرق الإنسان بعض الوقت ثم يستجدى النوم فيستعصى عليه فإذا استجاب له فإن نومـــه قـــد يتيح له ترضية مؤقتة ويستيقظ فى الصباح وقد بلغ الفتور منه مداه.

أمـــا هـــى فقـــد كان جوعها مختلفاً وإن كان يأخذ شكل الرغبات الجنســـية الملحـــة.. فلم يكن ما تتوق إليه هو ممارسة الجنس ولكنها كانت

مدمـــنة للحظـــات الإثارة التى تسبق الممارسة. ولم تكن أيضاً إثارة على المســـتوى الجســـدى ولكنها إثارة على المستوى النفسى أو قل المعنوى إن شئت.. إثارتها أن ترى الرغبة الملحة فى عينى الرجل. أن يبذل جهداً فى اصـــطيادها والهجـــوم عليها.. أن تدفعه رغبته فيها وجوعه إليها لارتكاب حماقـــة، إثارتها كانت أن ترى النار تشتعل وتشتعل حتى تمسك بكل كيان الرجل ولا يستطيع منها فكاكاً ولا مفر من أن يلجأ إليها لتطفئ هذه النار.

ولـــذا كانـــت تفضل سيناريو معيناً شديد الحبكة تغرى الرجل فى البداية بنظراتها الصارخة وحركات وجهها الواضحة وضحكاتها التى تزأر بالجنس وكلماتها المغطاة التى تفضح شبه دعوة صريحة للرجل لكى يتقدم حـــتى إذا اســـتبدت الرغـــبة بالـــرجل وتقدم نحوها، فإنها تثور فى وجهه وتعـــترض وربما تنهره لسوء خلقه وسوء ظنه بها، وأنها ما تبسطت معه إلا لثقـــتها فـــيه فينكمش الرجل ويعبر عن أسفه وندمه.. ولكنها تعود مرة أخرى وتظهر ميلها إليه وتدعوه ولكن بشكل أقل صراحة من المرة السابقة فيتردد ولكنها تستمر حتى يفقد مقاومته فتعيد الكرة وتصده ولكن بشكل أقل عـــنفاً مبقية على خط رفيع يمتد بينهما.. وفى أثناء ذلك تستمتع هى بحالة الجنون التى وصل إليها من شدة الإثارة التى يعانيها مع بلبلته وإحباطه.

فـــإذا وصـــل إلـــى قمة رغبته وكان على وشك فقد السيطرة تماماً تدعوه إليها فينقض عليها وتلك هى قمة إثارتها واستمتاعها وربما أو على الأرجح لا تستمتع بأى شئ آخر بعدها فجسدها فاتر.

اكتشفت فى نفسها وفى جسدها هذه الظواهر منذ أن اكتملت أنوثتها المـــبكرة فـــى سن المراهقة ومارست هذه اللعبة بتلقائية وبدون تخطيط أو إعـــداد. وعرفـــت كثـــيراً من الرجال كانت تفضل كبار السن لأنهم كانوا

مدربين على المناورة وذوى حيل كثيرة ولديهم قدرة على الصبر والمثابرة للوصـــول إلى بغيتهم ولأن هدفهم النهائى يكون دائماً الجنس للجنس وليس إقامـــة علاقة عاطفية إذ كانت تأنف من هذه العلاقات وخاصة من الشباب الرومانسى الذى كان يطمع فى الزواج منها.

وســاءت ســمعتها وتعرضــت كثيراً للعقاب الأسرى الذى لم يجد وتعرضت أيضاً لكثير من المشاكل بعد ذلك فى مجال عملها ومع جيرانها ولـــم تسترح إلا بعد أن مات أبوها ثم أعقبته أمها وكان لها أخ مدمن ابتعد عنها فعاشت وحيدة وبذلك تحقق أهم شرط كان يبحث هو عنه.

وهو زميل جديد جاء يعمل فى نفس المدرسة التى كانت تعمل فيها بالتدريس ولا أحد يعرف لماذا كان يصر على أن يتزوج من فتاة مقطوعة من شجرة ليس لها أصول أو فروع ترجع إليها.. لعله كان يريدها خالصة له.. أو لعله يريدها عاجزة أن تلجأ إلى أحد إذا قسى عليها أو لعله يريدها ضعيفة فيشعر هو بالتفوق.. أو.. أو المهم أن هناك بالقطع فكرة ما أو سبباً نفســياً يدفعه للإصرار على الزواج من فتاة وحيدة بلا أم أو أب أو شقيق وبالتأكــيد هو سبب مرضى من الناحية النفسية ولحسن حظه أيضاً لم يكن لها عم أو خال وإنما بعض القريبات من العجائز اللاتى لم يكن يعرفن لها اسماً أو شكلاً ولم ترهن فى حياتها.

ولعـــل توافر شرطه على أحسن وجه جعله يتغاضى عن الهمسات الـــتى وصـــلت إليه من هنا وهناك عن سمعتها غير البيضاء تماماً وربما فلسف الأمر بأن الفتاة الوحيدة تتعرض دائماً للقيل والقال ويكثر من حولها الطـــامعون أصـــحاب الأغراض غير الشريفة فإذا صدتهم تطاولوا عليها بالادعاءات الكاذبة.

تم الزواج سريعاً ولكى يريح نفسه انتقلا معاً للعمل فى مدرسة فى إحدى المدن النائية الجديدة حيث البشر قليلون والصمت هو الغالب والحياة هادئـــة ورتيـــبة، ومعظم الناس هناك معطلون من المواهب إذ لا يرضى إنســـان مـــتكامل العمـــل أو الحـــياة فى هذه المنطقة المزروعة فى قلب الصحراء.

استراح جداً للانتقال إلى هذا المكان واكتملت سعادته بزوجته التى أظهـــرت خضـــوعها وطاعـــتها وولاءها وأدت دور الزوجة على خير ما ينبغى وتصور أنه دخل الجنة من أوسع أبوابها.

نعمت هى بالاستقرار واختفت تماماً أعراض مرضها فلم تجع أبداً لإثارة وتصورت أنها شفيت تماماً ومضت شهور كثيرة أكدت أن القدر قد يصفو أحياناً وأن الحياة من الممكن أن تمضى بدون كدر.. إلا أن هذا ليس من طباع القدر، بل الغدر من أهم خصائصه ولابد أن يظهر الوجه الآخر.

وضـــح ذلـــك حين جاء إلى المدرسة شاب أعزب مغضوب عليه.. ومـــا هى إلا أيام قليلة حتى عاودتها أعراض المرض الكامن ولعبت معه نفـــس اللعـــبة وكـــان جنون الشاب أكثر سعيراً بسبب الصحراء والوحدة ونشـــأت علاقة فى الخفاء ولكن الحيطة الشديدة لم تمنع الزوج من أن يقلق وظـــل يراقب كل شئ دون أن يلحظ أى أمر غير طبيعى وكان قد مضى علـــى الزواج عامان دون أن تظهر أى دلائل للثمرة المتوقعة من زوجين عجبـــت هى لتأخرها فى الحمل أما هو فلم يعجب ولم يقلق ولم يبحث عن حل لهذه المشكلة.

حتى جاء يوم أقبلت عليه فرحة متهللة وأخبرته بأنها حامل.. وكان رد فعله الفورى أن قال لها: هذا غير معقول فأكدت بل معقول لأنها أجرت

الاختـبارات اللازمة فأكد لها ثانية إن هذا غير حقيقى وفسرت هى موقفه بأنه من شدة فرحه فهو غير مصدق فاصطحبته للطبيب الذى أكد قولها.

انهــار تمامــا فلا أحد يعرف السر إلا هو. إنه عقيم تماماً والأمل صفر فى المائة فى أن ينجب ونفس الصفر فيما يتعلق بإمكانية علاجه ولذا كــان امتــناعه عن الزواج فى البداية وحين قرر تحت ضغط الحاجة أن يــتزوج اشــترط أن تكــون أما سبق لها الزواج وثبت أنها عاقر أو تكون وحيدة فلا تجد من تلجأ إليه إذا اكتشفت علته وترضى أن تستمر معه.

لــم يتصور أن يواجه مثل هذا الموقف فى حياته ولم يتصور أيضاً أن يواجه أى إنسان مثل هذا الموقف وهو موقف فوق التصور.

' وادعى المرض وقبع فى الفراش مغطياً وجهه معظم الوقت بملاءة وكــان علــيه أن يجد حلاً.. لا يمكن أن تستمر الحال كذلك وإلا سيموت وكــان صعباً أن يفكر فى ظل وجودها بجواره فادعى مرة ثانية أنه مسافر لأمــر أسرى مهم وغاب أسبوعاً قلب فيه الأمر على جميع أوجهه إما أن يطلقهــا وذلك طبعاً بعد مصارحتها وإما أن يقتلها وفى هذه الحالة سيسجن أو يعــدم وإما أن يقتل نفسه وإما أن يقتلها ويقتل نفسه ولم يكن هناك حل خــامس لديــه إلا أن الحــل الخامس موجود من الناحية النظرية وهو أن يســتمر فى الحياة معها إما دون أن يصارحها أو يصارحها وتعترف وتندم وتتوب ويبدأ معها حياة جديدة وفى هذه الحالة يجب أن يحجا معاً إلى بيت الله الحــرام وأن تتحجــب وأن تستقيل من عملها وطبعاً هذا الحل لم يطرأ علــى بالــه قط.. ولأنه ليس من طبعه العنف فإن حلول القتل سرعان ما ابتعدت ولم يبق إلا أن يصارحها ثم يطلقها أو حتى يطلقها دون مصارحتها ولم ينس فى طريق عودته أن يزور طبيباً والذى أكد له مرة أخرى أنه من

المستحيل أن ينجب ثم عاد فسأل الطبيب: وإذا حملت زوجتى فماذا تقول؟ ضحك الطبيب وقال: تكون معجزة.. وبالرغم من أنه كان جلياً أن الطبيب يمزح إلا أن كلمة معجزة حركت شيئاً داخله.. لم لا ؟

وظــل عقلــه الباطــن ومن بعده عقله الواعى يردد لم لا؟ وخلص إلا أن الســؤال الــذى يتضمن معنى عدم الإنكار لحدوث المعجزة، أقوى وأهــم مــن السؤال الثانى الذى يتضمن معنى الإنكار وإمكانية حدوث أو وقــوع شــئ غير متوقع أو مستحيل حدوثه وذلك لأن السؤال الثانى معناه عدم الإيمان بقدرة الله المطلقة فهو سبحانه وتعالى يخلق ما لا تعلمون وهو قــادر على كل شئ.. أما السؤال الأول فهو يعنى الإيمان بالقدرة المطلقة للخالق.

ولــذا فــإن المؤمنين يسألون مستنكرين لم لا؟ أما المنكرون غير الواثقيــن فــى قدرة الله والذين أعماهم العلم المادى الدنيوى فيسألون كيف يحدث؟

وتأكــيداً لذلك مــــر بأحد الشيوخ وحكى له قصته فقال له الشيخ ولم لا؟ أى لم لا تحمل زوجتك بالرغم من أنك عقيم إذا أراد الله شيئاً يقول له كن فيكون.

وزيــادة فــى التأكيد مــر بأحد القساوسة فسمع من القسيس ما أكد قول الشيخ إلا أن هذه التأكيدات تبخرت من رأسه وصمم على الحل الأول وهــو أن يطلقهــا وعــاد إلى بيته.. وفاجأته بأنها تريد أن تنتقل من هذا المكان.. لقد حل بها الملل وشعر بوميض سعادة. لو أن لها عشيقاً فى هذا المكــان لما بغت تركه.. ولكن سرعان ما داهمه هاجس أنها قد تكون ملته أو أنهما اختلفا أو هو الذى هجرها.

ثــم عـــادت وطلبت منه أن يستعد للحج معها بعد أن يرزقهما الله بالطفل فشعر بوميض سعادة أخرى.. وهل يعقل أن تحن إلى الحج زوجة خاطــئة ولكـــن سرعان ماداهمه هاجس بأنها قد تكون بهذه الرغبة تود أن تكفر عن ذنبها.

ثم عادت وأعلنته بأنها قررت التحجب وهنا زادت مساحة الومضة الــتى أفعمته بالسعادة وطالت مدتها دون أن يهاجمه الهاجس اللعين وحتى حيــن ألم به هذا الهاجس بعد برهة من الوقت كان فى صورة مخفضة بل صاحبه خاطر آخر بأن الله غفور رحيم، بابه مفتوح كل الوقت للتوبة.

وبعــد أن انتهــيا من العشاء والذى لا ينكر أنه أكله ببعض الشهية التى كان قد افتقدها على مدى أسبوع سحبها من يدها ودخلا الفراش.

وفـــى الصـــباح صحا بحماسة وشعر بالدماء تتدفق إلى أطرافه من تأثــير المــياه الدافئة التى استحم بها فدفعت بالنشاط إلى جسده وذهب إلى عملـــه وكان أول شئ فعله هو أنه تقدم بطلب للعمل فى منطقة أخرى حتى ولو كانت فى جوف الصحراء وسبقت هى بتقديم استقالتها من العمل.

(٢٦)
زلزال من باطن الصمت

لــيس بالكلمــات وحدها يحيا الإنسان، ففى الصمت حياة، وبعض الكلمــات ميــتة، أو تبعث على الموت، ومعظم الصمت ينبض حياة. حتى صُمت الأموات له معنى أو لعل آذاننا لا تسمعهم.

وأى صــمت له معنى حتى وإن كان المعنى أن ليس هناك معنى، فيكون حينئذ معبراً عن اللامعنى.

وفــى الأصــل كان الصمت، فالصمت سابق على الكلام حين كان الخواء يشمل الكون، حين كان هناك لا شئ، اللامكان واللازمان، ثم خلق شــئ وأعقــبه خلق شئ آخر، وحين وجد شيئان، وحدث بينهما احتكاك تم خــرق الصــمت الكوني، سُمع أول صوت، وكان المعنى هنا بدء الخلق، وكــان المعنى الآخر هو أنه ما وجد شيئان إلا وحدث بينهما اصطدام ما، نــتج عنه أنات، فإذا لم يحدث الاصطدام عاد الصمت مطبقاً. إذن الصمت يقــول شيئاً، الصمت ينفى حدوث التصادم، لكنه لا يستطيع أن ينفى وجود الأشياء، حين تعددت، فبعض الأشياء كتب عليها التصادم، وبعض الأشياء الأخــرى تــباعدها عن بعضها البعض يعوق التصادم، فتظل مشتركة فى مؤامــرة الصــمت، لكــن فكــرة احتمال التصادم تظل قائمة فتبعث على

الخــوف، ففى بعض التصادم فناء، وأى مخلوق يخشى الفناء، فناء الشيء يلغى الكيان، أى عاد إلى اللاوجود، أى لا يشغل مكاناً، فيفقد كل تأثيره.

وأى إنســـان حتى وإن كان يئن من صخب الحياة فإنه يرتعب من صـــمت القــبور، فأذنــاه لا تسمعان تحاور الأموات، ولا تسمعان مع من يـــتحاورون، وذلــك إذا مـــا كانوا أصلاً قادرين على التحاور، أو إذا كان تحـــاورهم عن طريق الكلمات، ويطمئن الإنسان المرتعب نفسه بأن الموت لـــيس فناء، بل هو وجود من نوع آخر، وجود نحن نجهله، وجود له حيزه المكـــانى وــله زمــنه الخاص، ثلاثية الخلق تظل موجودة وهى الوجود، والمكـــان والـــزمان، إذن لا عجــب أن تعـــج القبور بالصخب، وإذا كان الهـــروب مـــن صخب الحياة ممكناً عن طريق الموت، فكيف الهروب من صــــخب الموت. مرت بخاطرها هذه الأفكار وهى تقود سيارتها عائدة إلى البيت بعد أن أسلمت نفسها تماماً للرجل الذى تعرفت إليه منذ أيام قليلة فقط فى حفل خاص.

حالة الاسترخاء النفسى والجسدى التى كانت عليها سمحت بالتأمل النافذ، وتوارد الأفكار التى تدور حول الحدث المهم، الذى عبرت به لتوها، وتـــدور أيضــــاً حول حياتها قبل وبعد الزواج وصولاً إلى الحاضر، وهى تقود سيارتها فى هذه اللحظة عائدة إلى البيت، ساعدها على ذلك الموسيقى الســـاحرة الـــتى كانت تنبعث من راديو السيارة مصحوبة بأصوات غنائية بلغـــة لا تفهمهـــا، وكأنها ترانيم صلاة فى معبد تنتشى بها روحها المشوقة دائمــــاً إلـــى الموسيقى. وقبل أن نسمح لها بأن تدب مفتاح شقتها فى الباب لـــتدلف إلى حيث تلتقى عيناها مع عينى زوجها الجالس خلف مكتبه يطالع كتاباً، فلنسترجع معها الحدث المهم والأول من نوعه فى حياتها.

مــنذ أربعــة أيام تحديداً، كانت في حفل صغير في مكان مغلق في أحــد الفــنادق بمناسبة توقيع عقد تجاري للشركة التي تعمل بها مع شركة أخــرى. لم يصاحبها زوجها كالعادة إلى مثل هذه المناسبات، وبالمناسبة لم يكــن قد مضى على زواجها أكثر من خمس سنوات، أو بعبارة أدق توحي بمعــنى معيــن لم يكن قد مضى على زواجها ليس أقل من خمس سنوات، وصــلت إلــى الحفل متأخرة، بينما كان الرجل الآخر من الشركة الأخرى يلقي كلمة ترحيب، سمعت صوته قبل أن تراه، وللوهلة الأولى شدها شئ؛ وفي الوهلة الثانية بينما هي تبحث عن مكان لتجلس فيه، وصل إلى عقلها بعــض كلماتــه تحمــل معــنى بليغاً، فرفعت رأسها إلى حيث يقف على المنصــة، فطالعــت رجــلاً مهيــب المنظر، ورتب القدر في تلك اللحظة الحاســمة في حياتها أن تلتقي عيناه بعينيها، ولا ندري هل لفت نظره إليها جمالها، أم لأنها كانت آخر القادمين؟ وأثارت جلبة وهي تبحث عن مكان، لكن الأهم أنه أمعن النظر ناحيتها بشكل لافت تسبب في إحراجها، فأدارت وجههــا تفادياً لنظراته، وفي أثناء تناول الطعام اقترب منها، وفي دقيقة أو أكثر تبادلا وسيلة الاتصال بينهما، وكأنهما كانا قد اتفقا على ذلك في أثناء تبادل النظرات الأولى، لم يمهلها الليل لتقرر أمراً، فاتصل بها وتحدد موعد اللقاء الأول.

وقد نتسرع فنتهم هذه المرأة بأشياء جسام أبسطها أنها امرأة سهلة، لكنــنا يجــب أن نتريــث بعض الشيء، فهذه المرأة التي وصلت إلى سن الثلاثيــن لــم تعــرف في حياتها رجلاً آخر غير زوجها، كان الزوج هو الــرجل الأول في حياتها، وكان بديهياً أن يكون الأخير مع مثل هذه المرأة المحافظة التي نشأت في بيت متخم بكل ما هو طيب، وظلت خمس سنوات

بعد زواجها ملتزمة بكل ما هو طيب رغم الظروف التى سنكشف عنها بعد لحظـــة واحـــدة، حيـــث نرى الدهشة على وجه الرجل الآخر رغم خفوت الضـــوء، لأن المرأة المتزوجة التى كانت بين يديه مازالت عذراء، وكان هـــو أول من فض بكارتها، وكان هذا واضحاً حتى لمن لم يكن خبيراً، إنه أمـــر لا يخطئه حتى من كانت هذه هى المرة الأولى فى حياته. نظر إلى وجهها فلم تنبس وعادت إلى إغماض عينيها حتى لا يتوقف استمتاعها.

الغريب أن هذا كله حدث فى الموعد الأول، حيث أخذها فى البداية إلـــى مكـــان عام، لكنه بعيد عن الأنظار، ثم اقترح عليها الانتقال إلى بيته الذى صنع لمثل هذه الأغراض، فلم تمانع، والذى أدهش الرجل أيضاً أنهما لـــم يتكلما إلا قليلاً، كان الصمت هو الغالب معظم الوقت، لكن كان هناك نـــبض قوى يكشف عن حيوية بالغة، أحس بإعجابها به، وسرورها للقائه، ومتعـــتها بين أحضانه، وقبل أن يفترقا، تحدد موعد اللقاء الثانى فى نفس المكان مباشرة.

نحـــن نعود معها الآن فى سيارتها التى تضعها فى زمرة الأثرياء بتعقل، كانت هادئة تماماً بلا قلق أو ندم، وكأن ما حدث أمر معتاد أو أمر منطقي، أو أمر حتمى طال توقعه وانتظاره، حتى وقع فلم يحدث أى جلبة، وإنمـــا تم فى هدوء غلفه الصمت معظم الوقت، كان الصمت يعنى أن كل شـــئ كـــان متفقاًعلـــيه، دونما كلمات، وكأنه سيناريو تحددت فيه خطوات الممثلين والكلمات التى تصدر عنهم والمختصرة إلى أدنى حد إذ كان يكفى ما توحى به الوجوه ناقلة ما تعتمل به النفوس.

نعود خمس سنوات إلى الوراء حين طرق باب أسرتها شاب سبقت سمعته وشهرته مجيئه إلى الدار خاطباً الابنة الوحيدة. كانا متساويين، وإن

كان يفوقها فى علمه وشهرته كعالم، أضاف إلى فهمنا لحقائق الكون، وكان ســخياً، وكانوا أكثر سخاء، وتم الزواج سريعاً، وفى الليلة الموعودة أغلق دونهمـــا الباب، واضطرب قلبها لما هو قادم، حيث كانت معدومة الخبرة، ولــم يحــدث شئ، فاطمأنت حيث كانت متعبة، وجاءت الليلة الثانية مثل الأولى، حتى وصلنا إلى الليلة العاشرة، وقلقت الأم، وكذبت الابنة. إن كل شـــئ قد تم، لكن شيئاً لم يحدث، لم يقربها على الإطلاق، وإنما كان يقبلها فى جبهتها ثم ينام، ولم تنطق، لم تسأله، وتصارحا بالنظرات، هذا هو كل شئ، هذا هو كل ما أستطيع أو أنا لا أستطيع.

وحين يئست بادلته نظرات من نوع آخر، عتاب شديد.. لماذا؟ لماذا أقدمــت وأنــت لا تستطيع؟ فأنت حتى لم تحاول، إذن كنت تعرف، كنت تعــرف أنك لا تستطيع. مقبول أن يحاول رجل فيفشل، المحاولة تعنى أنه كــان واثقاً من أنه يستطيع، ولأسباب ما لم يستطع، إذن هو رجل صادق، يســتحق شــرف المحاولة، وليس ذنبه أنه فشل، لكنك لم تحاول لأنك كنت تعرف، إذن لماذا أقدمت على الزواج؟

فهــم كــل نظــراتها، وبادلها نظرات اعتذار، لكنه لم يقدم تبريراً لفعلــته. لــم تقبل نظرات الاعتذار، وغضبت لأنه لم يقدم التبرير، حملت نظــراتها إلــيه أقصـــى درجات الغضب، قالت له فى نظراتها: لا يهمنى عجــزك، لكن الذى يهمنى أنك كذبت، والغريب أنك تتمتع بصفات جميلة عديــدة، ولا يمكــن أن يتفق معها أن تكذب، إذن أنت كذبت على نفسك، كذبت على نفسك وأنت تعرف أنك تكذب.

نظــر إليها باستسلام وكأنه يقول لها: افعلى ما تشائين، لك الخيار، لــك الحق فى أن تتركيني، لكن أرجوك لا تفعلي، ابقى معي، أنا أحتاجك،

أنا أحبك، ألا يكفيك حبى لك؟ سأفعل كل شئ لإسعادك. وفى نظرة جانبية يائســـة قالت: سأبقى، ثم قالت لنفسها: فلتكن حياة بلا جنس، فأنا أصلاً لا أعــرفه. ومضت الحياة، عاماً تلو عام، واتسعت شهرته، حتى وصلت إلى أماكن عديدة فى العالم.

كـــان يجلس إلى مكتبه ساعات، وفى معمله ساعات مضاعفة، كان وســيماً ومهذباً، ورقيقاً وحنوناً وودوداً، لكنه كان عاجزاً، ولم تكن تحظى مـــنه إلا بقـــبلة ما قبل النوم، وفى العام الأخير السابق على الحدث المهم، رفضت قبلته، ففهم، فهم أن غرائزها تزأر، وتأكد له ذلك، حين قررت أن تنام فى غرفة منفصلة، وفى صباح أول ليلة لها فى غرفتها تلاقت أعينهما وقتاً أطول مما ينبغى دون أن يرمش أحدهما، لكن هذا أخطر لقاء لهما منذ أن تزوجا. فهم من عينيها أنها متعبة.

وفهمـــت مـــن عينيه أنه يسمح لها، لكن بشرطين: ألا يعرف وألا تتركه.

وكـــان كـــل يوم ينتظر عودتها فى البهو الكبير ويطالع عينيها عن بعد، فيعرف أنه لم يحدث شئ، فيبادلها نظرة الامتنان أنها مازالت صابرة.

إلـــى أن جـــاء الـــيوم الموعـــود، وسألت نفسها: لماذا هذا الرجل بـــالذات؟! هل صوته؟ أم أفكاره؟ أم هيئته؟ أم جرأته؟ أم شدة احتياجى فى هذا الوقت بالذات؟ أم شدة اليأس فأردت أن أنتحر؟

فالخـــيانة انتحار، الخيانة تلويث إرادى للروح، الخيانة عقاب للذات الآثمـــة. أن أخون أم أقتل نفسي، فالأمران يستويان. حجبت الدموع رؤية الطـــريق، لكنها استمرت فى قيادة السيارة، وحين واجهته وهو خلف مكتبه فهم كل شئ، وأطرق..

وبينما هما يجلسان إلى مائدة العشاء، استفزها الصوت الناشئ عن احـتكاك أدوات الطعام بالأطباق، وفجأة رأت المائدة تهتز بعنف، وتنحدر من فوقها الأطباق، وتتساقط قطع الأثاث، فأمسكت بذراع زوجها، بينما هو يحملها رأت الثريا تسقط فوق رأسيهما وراحت في غيبوبة.

وحين أفاقت في المستشفى عرفت أنه لم يكن هناك زلزال، فعجبت كيف يضطرب باطن الأرض دون أن يدرى بذلك أحد غيرها.

(٢٧)
حلم اللقيط

فــى الأصــل كان السكون.. اللاشئ.. واللامنتهى والمطلق.. ولا مجــال لمقارنــة شئ بشيء فلا شئ أصلاً ولا وجود لما يسمى بالنسبية.. وحيــن لم يكن هناك شئ لم أكن أنا شيئاً.. فوجودى فى اللاوجود مستحيل ولو كنت أوجدت فى اللاوجود لصعقنى السكون.

وحيــن ضــلت قدماى فى الصحراء، شعرت أن الزمن قد عاد إلى الــوراء، إلــى نقطــة اللاوجود، بينما أنا موجود.. ولولا الرمال والسماء لتلاشــيت. لكــن الســكون عطل عندى كل الحواس. فلا ضرورة لحاسة اللمــس، لأن أحداً لن يلمسنى. ولا ضرورة لحاسة النظر، فكل الاتجاهات واحــدة. ولا ضــرورة لحاســة السمع، فاللاوجود أخرس.. وحاسة الشم ضــمرت، لأن العدم بلا رائحة، وحاسة التذوق تعطلت، لأنه لا توقع ولا حاجة لطعام أو شراب.

.. إذن أنــا ضائع فى الضياع. وأينما توغلت لا تفضى بى قدماى إلــى اتجــاه.. حتى الصراخ لا جدوى منه، لأنه لا رجع لصدى يثبت أن الصــوت قد اصطدم بشيء وعاد، ولا شئ يؤكد أن الصوت قد انبعث من حــنجرتى أصلاً.. ومن أنادي!! أأصرخ يا أبي؟! أأستغيث يا أمي؟! ومن

أبـــى ومـــن أمـــي؟! لقد اختفيا بعد أن ولدانى.. أو كأنما ماتا مباشرة بعد ميلادى.. أو كأنما ولدت بلا أب وبلا أم.. نطفة تخلقت من ذرات الهواء أو مـــن طيـــن الأرض، فصارت طفلاً تدحرج إلى باب الجامع، فالتقطه أحد المصـــلين إلى حيث أودعه دار الأيتام.. وهناك نمت الشجرة بلا جذور أو بجـــذور مصـــطنعة لا صلة لها بالساق الممتدة والأوراق التى لا لون ولا رائحـــة لها.. ووجدت معى فى نفس المكان مئات الأشجار الشيطانية، التى لم يرتب لمجيئها أحد، وإنما هو عبث الأقدار التى شاءت لها الوجود.

وكثـــيراً ما رددت نفس السؤال الذى ردده كل الأطفال من حولي: أيـــن أبـــى وأين أمى.. فيقال لي: إن أبى قد سافر، وتنبرى سيدة لا أشعر نحوهـــا بشـــيء، وتقول أنا أمك. تقولها بصوت أجوف صدئ بلا رنين أو قـــرار يـــنطقه لســـان انفصل عن القلب، مؤكداً الكذبة الكبرى.. فأبكى ثم أثور.. ثم أحطم ما حولى.. فينزل بى العقاب.. فلا أتألم لا أحمل عواطف للضارب، فألم الضرب مرتبط بحجم مشاعرك نحو الضارب.

والضارب جلاد يدعى أنه أب الجميع صوته بارد ووجهه مقفر..

.. وأســـلمتنى طفولـــتى الجرداء إلى مراهقتى واستوعبت الحقيقة كاملـــة.. أنـــا ابـــن حرام، أى ابن زنا.. وفى هذا الأمر أنا متشابه مع كل أقرانى فى هذا المكان، لكننى مختلف عن كل إنسان خارج أسوار المكان.. فإذا خرجت إلى الطريق فليس كمثلى أحد رغم أننا جميعاً نسير على نفس الأرض وتظلـــنا نفـــس الســـماء، ونســـتدخل فـــى صدورنا نفس الهواء، وتســـتخلص أمعاؤنا نفس العناصر من الطعام حتى وإن اختلف.. ومعظمنا ابن تسعة، وقليل منا ابن سبعة، واستوعبتنا أرحام متشابهة إلى حد التطابق الشـــكلى والوظيفـــي، ثـــم لفظتـــنا إلى هذه الدنيا.. وعند هذه اللحظة بدأ

الاختلاف.. ففى حالتى هرب رحمى وألقيت إلى الأرض، وفى حالة أخرى ارتفع الوليد من بعد خروجه مباشرة من الرحم إلى حيث الصدر فاشتم أول رائحـــة حـــنان وسمع دقات قلب تهتف به وتناهى إليه صوت مرحب، بل أصوات صاخبة متداخلة تتماوج بالفرحة، فتبدو كأنغام ويعرف بعد ذلك أن ذلك هو الغناء.. ولا يعرف وجهه إلا لمسات الشفاه وهى تفرقع ولا تعرف عينه إلا قسمات وجوه تتشكل بشيء واحد هو الابتسام.

.. ذلـــك كان الفرق حين جئت إلى هذه الدنيا، وحين جاء أى طفل آخر.

.. فى مراهقتى لم يؤلمنى اشتياق إلى ما يسمى بالأب أو الأم.. ثمة إحســـاس آخر فوق الألم، وأشد فتكاً من الألم، لكنه ليس من فصيلة الألم.. إحساس يصعب وصفه ولا يدركه أحد آخر إلا إذا كان فى نفس الموقع.

إنه إحساس يشابه من يتدحرج بشدة وبسرعة على سطح الهواء بعد أن أُلقـــى من مكان شاهق الارتفاع.. يمرق كالصاروخ هاوياً إلى الأرض، وفى داخله شعور بحتمية ارتطام وشيك بالأرض، فتتطاير عظامه كشظايا يصـــعب تجميعها بعد ذلك فى صورة إنسان.. هذا هو الشعور الذى أصفه بأنـــه فـــوق الألم.. ذلك الشعور بأن الارتطام ثم التطاير وشيك.. ولا شئ ســـيوقفه.. إذن هـــو شعور عن شئ سيحدث فى المستقبل. لكنه المستقبل الوشيك.. ذلك هو ما كنت أشعر به بعد أن أدركت حقيقتى.. بعد أن دخلت فى قاموسى كلمات مثل يتيم، لقيط، حرام، زنا...

وعرفت مع هذه الكلمات مشاعر لم تكن لها كلمات مقابلة وقتئذ مثل الظلـــم والخزى والذل، ثم اجتاحنى ذلك الشعور الرهيب بأننى على وشك الارتطام والتبعثر ثم الإفضاء إلى لا شئ.. وحاولت أن أوقف هذا الشعور

فلــم أستطع.. حاولت أن أسترجع وأستجمع أى لحظات أمان مرت بى فلم أجد.. الشيء الوحيد الذى يوقف هذا الشعور الجهنمى هو تذكرك للحظات، الضـــم إلى صدر أمك مستنداً بكليتك إلى ذراعيها، واثقاً أنه حتى لو فقدت وعـــيها لن تتركك تقع من بين يديها.. وهذا هو فى تقديرى معنى الأم.. أو هـــذا هـــو مـــا ترسبه الأم فى أحاسيسك وفى وعيك وفى لا وعيك، وفى جهـــازك العصبى.. الإحساس بأنك لن تقع مهما حدث. لن تهوى أبداً.. لن تســقط.. الإحســاس بــأنك ترتكــز على أقوى ساعدين.. الإحساس بأن مغناطيســاً هــائل القوة فى قلب هذه الأم يشدك، ويكاد يدخلك فى قفصها الصـــدري، فمـــن المســتحيل أن تقع.. هذه هى الأم.. آخر حدود الأمان وأقصـــاها.. الأم ليســت طعاماً ولا شراباً ولا دفئاً.. بل هى كل مضادات الخوف والقلق والترقب والتحفز والتوقع السئ.

.. وخرجــت من مراهقتى إلى شبابى صفر اليدين.. ودفعتنى عدة غرائـــز مجتمعة ناحية امرأة.. كان أهمها غريزة أن أعيش مع إنسانة هى الأخــرى ترغب فى أن تعيش مع إنسان بكامل رغبتها وحرية اختيارها.. أن نكون معاً بناء على اختيار حر مبنى على رغبة متبادلة وتقدير متبادل.. أن أشـــعر أنـــنى مختار.. وأننى مفضل.. وأننى أختار من أفضلها.. لعلها كانت محاولة لأن أمنع ذلك الشعور المضنى بوشك الارتطام والتفتت.

.. ومـــن ضـــمن آلاف الوجوه التى عبرت فى خيالى وفى واقعى اســـتوقفتنى.. كانـــت عبقرية جمال وجهها تكمن فى شئ واحد هو وكأنك تعـــرفها مـــنذ آلاف السنين.. واستوقفتها مثلما استوقفتنى. وقالت لى قولا أذهـــب عـــنى فى لحظة ذلك الشعور الرهيب الذى لازمنى بأن الارتطام وشيك.. قالت لى قولاً جذبنى إلى أعلى بدلاً من أن أهوى إلى أسفل.. وإذا

بمقعـدى فى السماء وليس الأرض.. السماء التى دخلتها من باب الرحمة، ومتشـوقاً إلـى المودة.. قالت لي: وكأننى أعرفك منذ آلاف السنين.. ياالله علـى عبارات تعيد خلقك من جديد.. ياالله على عبارات تمسح عنك أحزان العمر كله.

.. لقـد وجدت الكنز الذى كنت أبحث عنه. وهتفت من أعماقى يا أمـى.. ووجدتنى محمولاً بين يدى حبيبتى تقربنى إلى صدرها، وتحركت شـفتاى توقعاً للغذاء مقطراً من ثديها.. وفيما أنا مغمور بالنشوة تصورت أنـنى وصلت إلى سر الوجود، وبلغت قمة الحكمة، فصرت فيلسوفاً، فقلت إن الإنسان يولد لأم وأب يختفيان مباشرة بعد مجيئه.. فإذا كبر واكتمل نمو قلـبه، يقـابل امـرأة ويحبها، وتكون هى أمه أعادها الله فى صورة شابة صـغيرة.. ويـتزوجها.. فإذا أنجب طفلاً ذكراً يكون ذلك الطفل هو أبوه، يبعـثه الله فـى هـذه الصورة.. وبذلك يلتقى الإنسان مع أمه وأبيه اللذين فقدهمـا مـنذ يومه الأول.. فإذا لم يتزوج الرجل فلن تكون له أم، وإذا لم ينجب ذكراً فلن يكون له أب.. وإذا لم تتزوج الفتاة، فلن يكون لها أب، وإذا لم تنجب أنثى فلن تكون لها أم.

.. ذهبـت إلى أسرتها لإستئذنهم فى أن أشرع مع ابنتهم فى تكوين أسرة جديدة.

.. سألنى أبوها: أين والدك؟ فقلت له لم يولد بعد.. فسألنى أين أمك؟ قلت له سأعقد قرانى عليها إذا وافقت أنت.

.. نظـر إلى الرجل بقلق وإشفاق وفر من وجهى وتبعته حبيبتى.. وعدت من حيث أتيت!

(٢٨)
عشوائيات

تتساقط العصافير من عليائها صرعى بفعل قلوب غليظة لم تعرف الـــرحمة إليها طريقاً. وهل يمكن لقلوب رحيمة أن تفعل ذلك؟! ولا يرحم الضعيف غير الله.

طارت الرصاصة الطائشة من يد لاهية، طفل يلعب أو رجل يتسلى أو امـــرأة تلهـــو، القتل يسلى والموت ترفيه، ولون الدماء يذهب الضجر، والعصافير المطبوخة فواتح للشهية.

لطالمـــا شاهد هذه المذبحة، لأن أضخم شجرة فى القرية كانت أمام مـــنزلهم، وأكـــثر ما كان يحيره لماذا تصيب الرصاصة عصفورة بعينها؟ ولمـــاذا تـــنجو عصـــفورة أخرى تقف بجوارها؟! وحينما كبر عرف أن الأعمـــار بـــيد الله، ولكـــل أجل كتاب، عصفورة قدرها أن تموت فى هذه اللحظـــة، وعصـــفورة أخرى قدرها أن تعيش، إذن فهذه ليست إرادة من أطلـــق الرصاص، فمعظمهم من هواة القتل العشوائي، أى لا اختيار إرادياً مســـبقاً. إلا إذا أراد القاتل أن يزيد من الإثارة والمتعة فيختار ضحيته من بيـــن عصـــفورتين متجاورتيـــن، فيقول لنفسه سأطلق على من تقف إلى اليســـار، وسأترك الأخرى لتنجو. وكأنه يقول: أنا الذى حددت من يموت. أنا الذى حددت نهاية العمر.

وما كره فى حياته شيئاً مثل قتل العصافير بهذه الطريقة، فالقتل مع سبق الإصرار أهون من القتل العشوائى. القتل مع سبق الإصرار له هدف، لـــه دافع، ووراءه سبب محدد، انتقام، ثأر، سرقة، أى شئ. المهم أن هناك تحديداً لمن سيتم قتله، أما القتل العشوائى فهو قتل للقتل.

إنه إرضاء لشهوة العدوان والعنف داخل الإنسان حتى ولو كان قتل عصـــفورة. ورغـــم ثـــراء مشاعره، إلا أن طموحاته كانت محدودة، فقنع بوظـــيفة مـــدرس "ديـــن" فى إحدى المدارس الابتدائية على بعد محطتين يقطعهما القطار من قريته، يغادر فى الصباح ويعود بعد الظهر بقليل وفى المســـاء يشـــارك شـــباباً فى مثل عمره متابعة الأفلام المحرمة فى إحدى المقـــاهى الكائنة على أطراف القرية، ثم يتمشى وحيداً على ضفاف ترعة ذات طـــول وعرض يوازى نصف نهر، كان يحقق أقصى درجات المتعة النفســـية فـــى هذا الوقت، حيث كان يحلم إذ لم يكن لديه شئ آخر غير أن يحلـــم، وذلـــك لتواضـــعه فـــى كل شئ، خاصة من ناحية شكله وإمكاناته الماديـــة، وكانـــت أحلامه تتركز فى إمكانية إنشاء علاقة بفتاة جميلة تحبه وترضى به زوجاً.

وفى اليوم الموعود ركب القطار فى اتجاه المدرسة التى يعمل بها، وكانـــت هى قد سبقته فى الركوب من محطة أخرى قبل قريته، دهش فى الـــبداية لجمالها الفائق، ثم دهش مرة أخرى لأنه يراها للمرة الأولى. فهو يعـــرف كل من يتخذون هذا القطار وسيلة لانتقالهم. جميع الركاب ثابتون ويعرف بعضهم بعضاً. وتلاقت عيناهما وشعر كأنها تمعنت فى النظر إليه، بالـــرغم مـــن أن نظـــرتها لم تزد على ثوان محدودة، ربما ثلاث أو أربع ثـــوان، أى أزيـــد من النظرة العابرة بثانية أو ثانيتين، والنظرة العابرة هى

الـــنظرة غير المتمعنة أو النظرة التى لا تخلف أى ذكرى أو أى معنى أو أية فكرة أو إحساس من ورائها، سواء إذا نظرت إلى إنسان أو نظرت إلى حجر مهمل ملقى على الأرض.

وتـــأكد مـــن تمعنها فى وجهه حين بادلته نفس النظرة وهى تغادر القطار بعد أن توقف فى المحطة التى تلى مدرسته. وأدرك أنه عن تعمد لا شـــعورياً أو قدريـــاً فوت على نفسه مغادرة القطار حين توقف فى محطة المدرسة.

تـــبعها إلى حيث ذهبت، وحين دلفت إلى أحد البيوت، رمقته بنظرة متمعنة ثالثة. وفى هذه الليلة فوت على نفسه أيضاً مقابلة الأصحاب وذهب مباشـــرة إلى طريق الأحلام على جانب الترعة، وبعد حلم واحد طال أكثر من المعتاد، قرر أن يتزوج من هذه الفتاة الرائعة التى فتحت الطريق أمامه بنظراتها ذات المعنى.

افتقدها على مدى أسبوع كامل لم تركب القطار، فتشجع وذهب إلى مـــا كـــان يظـــنه منزلها، فلم يعثر على أثر. فاستمر يترقب ظهورها فى القطـــار. وتعـــذب شهراً، وبدأت الأحلام تستعصى عليه، حتى رآها ذات صـــباح. ومـــن آثار الحرمان وفقدان الأمل والخشية من فقدها مرة ثانية، اتجـــه إليها مباشرة وقال لها : أريد أن أتزوجك. وكالمعتاد طلبت منه أن يقابل أباها، وعرف منها العنوان، وحدد موعداً فى نفس اليوم.

ظهر فى أبهى صورة ممكنة تسمح بها إمكاناته، وجلس فى الدرجة الأولـــى حفاظاً على أناقته. جلس بجوار الشباك يتابع بدون تركيز الحقول الممـــتدة. وفجـــأة شعر بألم شديد فى جانب من وجهه. ألم لا يحتمل جعله يشـــعر باليأس الشديد. ورفع يده إلى حيث الألم فأحس بملمس سائل ساخن

فطالع يده، فرأى بصعوبة دما يفترش راحته، وراح فى غيبوبة، أفاق منها وهــو مازال فى القطار وأكثر من يد تحاول أن توقف النزيف المتدفق من عينه.

اســتغرق الأمــر وقتاً غير قليل حتى استطاع أن ينتقل من عيادة طبيــب إلــى المستشفى العام ثم إلى مستشفى متخصص فى العيون، حيث أخــبروه بأن إحدى عينيه قد صُفيت تماماً بفعل جسم صلب اصطدم بعينه، والمــرجح أن يكــون حجــراً، أو أن أحــداً دفع بإصبعه فى عينه. وكان الاحــتمالان غــير قابلين للتصديق، لأنه كان واعياً تماماً حين شعر بالألم الشــديد، فلم يكن هناك حجر، ولم يكن هناك إصبع إنسان. ومن أين يأتى الحجر؟! ومن ذا الذى يريد أن يصفى عينه بإصبعه؟!

حققــت النيابة فى الأمر، ولم يكف هو عن التحقيق شهوراً طويلة، لكــنه لم يهتد إلى سبب معقول، الاحتمال الأوحد والأضعف أن طفلاً على جانــب القطار المسرع قذفه بحجر، هكذا يفعل بعض الأطفال أحياناً، هكذا عشــوائياً ودون ســبب محدد، نوع من اللعب واللهو والتسلية، لا يقذفون شخصــاً بعينه، لكن أى شخص، والإثارة الكبرى تتحقق حين يتمكنون من رؤية الحجر وهو يصطدم براكب، وفى الغالب لا يستطيعون أن يروا ذلك لســرعة القطــار، وبالتالى فهم يتصورون الإصابة ولا يرونها رؤيا العين فتــتحقق نصــف المتعة، قذف عشوائى مثل إطلاق رصاصة الرش على العصافير دون تحديد الهدف.

أصــرت أسرته على أن الفتاة التى كان سيخطبها شؤم، لكنه أصر علــى معاودة الاتصال بها، فرفضته، كما أن المدرسة التى كان يعمل بها نقلــته إلــى عمل إداري، لكنه لم يستطع أن يواصل العمل. فقبع فى بيته

حزينـاً يائســاً آسفاً على عينه التى فقدها. وحاول أهل القرية إخراجه من أحـزانه، فدفعـوا إليه ببعض أبنائهم ليعلمهم القرآن. وتدريجياً خرج من عزلـته واجتهد أكثر وكسب مالاً ساعده على أن يستمتع أكثر، ورغم أنه نســى أنــه يعـيش بعين واحدة، إلا أنه لم يستطع أن ينسى كيف أن رمية عشـوائية مـن الممكـن أن تقـتل مخلوقاً أو تفقده إحدى عينيه، لماذا هو بالذات؟ ولماذا عينه؟ ولماذا فى هذا التوقيت وهو ذاهب ليكمل نصف دينه؟ وللإخلاصـــه ذاع صيته بين القرى الأخرى وبين الأسر صغيرها وكبيرها، أفقرها وأثراها.

ورضيت به إحدى شقيقات أحد تلاميذه، وطلبت منه أن يتقدم رسمياً إلــى أســرتها، وكان منزلها على بعد ثلاث محطات بالقطار، لكنه أبى أن يركب القطار واستعان بسيارة، بينما السيارة تنهب الطريق شعر بألم شديد ناحـية عينه السليمة، وفى هذه المرة لم ير يده التى رفعها أمامه ليتحسس مكان الألم، وعاوده الشعور باليأس الذى ألم به فى المرة السابقة.

أظلمــت الدنــيا تمامــاً وأخذوه إلى مستشفى العيون وصفيت عينه الثانــية مــن أثــر ارتطام جسم صلب بها، عاد إلى بيته مسحوباً من يده، واعتصـــم بحجــرته عامــاً كاملاً، وصام عن الحديث مع الناس، إلا أمه العجــوز - رحمة بها - شئ واحد واظب عليه وهو ترديد ما كان يحفظه من آيات القرآن حتى لا ينساه، خاصة أن فرصة القراءة قد انعدمت تماماً، وفــى يوم كان يرتل القرآن بصوت مسموع، فانتبه إليه من كانوا بجواره، واكتشــفوا جمال صوته، واستعادوه مرة ثانية، فتأكدوا من موهبته، وسمعه آخــرون فدهشــوا فشــاع الخبر، وأخذ الناس يدعونه فى مناسبات مختلفة لتلاوة القرآن. وأكد كثيرون أن صوته يفوق جمالاً الكثير من مشاهير من

يـــتلون القرآن الكريم. وبالغ البعض قائلين: إن صوته يفوق أصوات كبار المطربيـــن، وكسب كثيراً من تلاوة القرآن ووصل إلى العاصمة، وارتفع أجـــره من عشرات الجنيهات إلى المئات، وقبل أن يصل أجره إلى الألف اقـــترح علـــيه أحـــد الملحنين أن يغني. فصوته قد خُلق للغناء، فانتقل من صـــفوة المقرئيـــن إلـــى صفوف المطربين، وذاع صيته كمطرب. وكسب الآلاف. وتغـــيرت حـــياته تماماً. وتزوج امرأة جميلة معروفة سعت إليه، وصادق كبار القوم، واستمتع بمذاق الخمر، وأشياء أخرى ذات تأثير طيب علـــى مـــزاجه. ورغم سعادته الزوجية فإنه استمتع أيضاً بعلاقات محرمة كانت تشعره بالزهو أكثر مما تمنحه من لذة حسية.

ولـــم يعـــد يجهد ذهنه فى كيفية فقده لعينيه، بل تمعن فى حكمة الله كـــيف أن هذا الفقد هو الذى جعله يكتشف موهبته، ويدر عليه سعادة غير محـــدودة – شهرة ومالاً ونساء وملذات أخرى متعددة – وعجب من قصر نظر الإنسان حين يكره ويغضب من أجل مكروه أصابه وهو لا يعرف أن هذا المكروه قد يجلب عليه الخير كل الخير.

وفى يوم كان يجلس أمام كاميرات التليفزيون وسألته المذيعة ضمن مـــا سألته عن كيفية فقده لبصره، فحكى لها الحادثين، مؤكداً أنه لم يعرف حتى الآن الكيفية التى جعلت جسماً صلباً يرتطم بعينه فى كل مرة "لم يكن أحد حولى ليقذفنى بشيء، بل لم نعثر على هذا الجسم الصلب" وهنا انبرت المذيعـــة قائلـــة بل إن السبب معروف ويحدث أحياناً لبعض الناس، فسألها بدهشة عما تعتقده من سبب.

بـــدأت المذيعة تشرح له الكيفية التى جعلته يفقد عينيه، فشعر كأنه على وشك أن يفقد وعيه، فصرخ، فأوقفوا اللقاء الذى كان يذاع على الهواء

مباشرة. وتناقلت الصحف بإسهاب ما حدث له فى أثناء اللقاء، فبمجرد أن انتهــت المذيعة من كلامها، حتى أصابته حالة هياج، وحاول أن يخرج من الأســتوديو فاصــطدم بإحدى الكاميرات ووقع على الأرض مغشياً عليه. حاول استعادة ما حدث، فلم يتذكر شيئاً، ذهبت إليه المذيعة لتعتذر، فسألها عمــا قالــته له، فأبت فأصر، قالت له: حاولت أن أفسر لك ما حدث، لقد حققَــت موضــوعاً مــثل ذلــك من قبل. يقول العارفون: إن حجراً كان موضــوعاً فى طريق عجلات القطار، وآخر أمام عجلات السيارة فتحطم بالمرور عليه، وتطايرت شظايا منه.

ويــتحدد اتجاه الشظايا حسب قوة اندفاع القطار أو السيارة، وحسب اتجــاه الرياح وقتها، وحسب حجم الشظايا، ولهذا فلا يستطيع أحد أن يتنبأ باتجاه هذه الشظايا، وبأى شئ ستصطدم. وهذا فى الأغلب ما حدث لك فى الحالتين.

فى هذه المرة لم يفقد وعيه، وإنما طلب منها أن تكف عن الحديث، وأن تغــادر المكان. وعاودته ذكرى العصافير التى كانت تسقط قتيلة بفعل ضربات عشوائية. لكن العصفورة كانت تموت مرة واحدة، ومن المستحيل أن تمــوت مرة ثانية بنفس الطريقة، وأنا قد مُت مرتين. وبنفس الطريقة. ضــربتان عشوائيتان، حجران عشوائيان، ضربات من غير رام. حجر فى طــريق قطار، ثم فى طريق سيارة، ليتفتت الحجر. ثم تجتمع كل الظروف وتــتحدد لتقط أو تنط أو تقفز شظية فى اتجاهى ونحو عينى بالتحديد. مرة فى اتجاه عينى اليسرى، والمرة الثانية ليس فى اتجاه عينى اليسرى، وإنما فى اتجاه اليمنى. وتكون الإصابة فى كل مرة بنفس الدرجة والقوة والنتيجة واحدة. أن أفقد فى كل مرة عيناً.

بعـــد لقاء المذيعة أصيب بالاكتئاب لمدة عام، هجر الغناء والشراب والنساء والصحاب، ثم أعلن لزوجته بأنه سيعود إلى القرية، فرفضت، فعاد وحـــيداً. لـــم يبق فى البيت القديم أحد، فأصر على أن يعيش بمفرده، وفى الصـــباح الباكر يخرج وفى يده عصاه ويجلس تحت الشجرة ليضرب بشدة فـــى أى اتجاه كل من يحاول أن يصطاد العصافير، ورغم عدم قدرته على الـــرؤية، إلا أن الـــناس جميعاً صغاراً وكباراً كانوا يخافون بطشه، حتى امتنعوا تماماً عن الاقتراب من العصافير التى ظلت تحط على الشجرة فى أمـــان، حـــتى بعد موت الرجل بفترة ليست قصيرة، حيث عادت بعد ذلك الغلظة إلى مكانها الطبيعى فى قلوب الناس.

(٢٩)
حين لا تطلع الشمس

حاولــت الشــمس أن تجــد لها مكاناً تتسرب منه من بين السحب المتراكمة فلم تستطع.

ضـــغطت بكــل ما عندها من قوة إلا أن محاولاتها باءت بالفشل. هــددت بصهر السحب وإشعال الحرائق فاستُهزئ بها، لم تطلع شمس هذا الــيوم، كانت السحب كثيفة حقاً، طبقات فوق طبقات، متراصة متلاحمة لا يســتطيع العفريت أن ينفذ من بينها. تأخر المؤذن فى الصعود إلى مئذنته، إلا أن الــناس كانوا قد صحوا بفعل العادة، تردد الشيخ فى إقامة الصلاة، حيــث لم يرد بعد ولا خيط واحد من الضوء ليعلن بزوغ الفجر. ومما زاد الأمر سوءاً أن السحب كانت داكنة تكاد تكون سوداء اللون، فبدا الحى كأنه مــازال يسبح فى الليل، إلا أن جميع الساعات كانت تشير إلى عكس ذلك. وقلق الناس. انهار بعضهم.

الــتقوا جمــيعاً بــدون اتفاق أو دعوة فى الجامع. إنه الملجأ وقت الشدائد. تعددت الاجتهادات فى تفسير الظاهرة. لكن تفسيراً واحداً كان هو الغالــب، وإن لم يفصح عنه وهو أن غضب الله قد حط بالحى. ولدرء هذا الهــاجس المميــت قــرروا إرسال من يجوب الأحياء الأخرى فى المدينة

لاستطلاع الحقيقة. فإذا كانت الظاهرة عامة انتفى احتمال غضب الله عليهم ولا يبقى إلا أن القيامة على وشك الوقوع، وأن تقع القيامة خير من الغضب الإلهي، لكن هيهات أن يسمح الوقت المتبقى بالاستغفار وطلب الرحمة، واطمأنت القلوب حين عاد الرسل مخبرين بأن الظاهرة عامة، وأن المدينة كلها امتنعت عنها الشمس عنوة بفعل مصدات النور التى غطت السماء بإحكام يبدو منه التصميم وتفوح منه رائحة الغدر بأهل المدينة. "ولا تلومن إلا أنفسكم" ارتفع صوت الشيخ بهذه العبارة. فتوقع أهل الحى أنه سيصب عليهم اللعنات، ويكشف الغطاء عن فضائحهم. غير أنه رد الظاهرة إلى تلوث البيئة بسبب المفسدين فى الأرض وهم كثر، ولم يفصح عن أى نوع من الفساد وفهمها كل واحد على طريقته، وهو ينظر إلى جاره ملقياً عليه اللوم، ومبرئاً نفسه.

لكن الجميع كانوا يشعرون بطريقة ما بأنهم مسئولون عما حدث، فلم يحدث أن غابت الشمس عن أى مكان فى الأرض، ولم يحدث أن انتصرت سحب مهما كانت كثافتها على الشمس، فالشمس أقوى المخلوقات، وقادرة على الفتك بأى مخلوق، وهى بأمر الله تمنح الضياء لأهل الأرض، بقدر معلوم يفى بحاجتهم وتتناغم فى حركتها مع حركة الأرض، فيختلف الليل والنهار، آيتان بليغتان بإذن الله الذى محا آية الليل، وجعل آية النهار مبصرة لدعوة الناس من أجل العمل والرزق، وبدون الشمس لن يكون هناك نهار، ولن يكون هناك عمل أو رزق، وإنما بلطجة وانتهاك للحقوق، وأيضاً للحرمات، ستعم الفوضى وتنتشر الأمراض، وتمتلئ الأرض بالحشرات وتموت الأوراق الخضراء وتتجمد الأنهار. وبينما هم وقوف حيارى فى انتظار الموت، علا صوت مصحوب بصداه

لم يُعرف له مصدر، قائلاً : إن الخلاص فى التوبة بشرط أن تكون علنية، فيتقدم فرد تلو الآخر معترفاً بذنوبه، مستغفراً ربه، متذللاً بالتوبة من أجل الرحمة، وأصاب الجمع وجوم.

كـيف تكون التوبة علنية ؟ ومن ذا الذى يفضح نفسه على رءوس الأشهاد ؟

ويـا للكارثة حين تكون الذنوب من الكبائر، فتلك الزوجة زنت مع صـديق زوجهـا، وذاك الرجل تاجر فى عرض ابنته، ورجل آخر أهلك الـناس بالسموم التى يتاجر فيها، وتلك السيدة حملت من سفاح لتأتى بوليد يرث الثروة.

يـا للمصيبة وارتفعت أصوات معترضة. واستشهدوا بأن الله ستار ولا يرضـى لعـباده بالفضيحة، إلا أن الصوت وصداه عادا يؤكدان على ضـرورة التوبة العلنية، وظل الجدل قائماً. إما الموت أو الفضيحة، إلا إذا نزلت رحمة الله بدون شروط، فسألوا الله الرفق بهم، لأن الإفصاح عما فى الصـدور يكفـى لخـراب المدينة بأكملها، عاد الصوت مجهول المصدر وصـداه مبشراً بنزول الرحمة الجزئية على أن يتقدم ثلاثة فقط إلى التوبة العلنـية، بشـرط أن تكون ذنوبهم أكبر من الكبائر ذاتها، وحار الناس فى تفسير معنى أن يكون الذنب أكبر من الكبائر، وماذا أكبر من الزنا أو القتل ؟ الـزانى جـزاؤه الرجم والسارق تقطع يده، أما القاتل فيقتل. وهذه أشياء تحـدث فـى كل لحظة ولا يمكن أن تغيب بسببها الشمس، وهناك الكاذب والمنافق، وشاهد الزور، وتارك الصلاة، وشارب الخمر، والغشاش الذى لا يوفـى الكيل، والممتنع عن الزكاة، ولا يوجد ما هو أكبر من ذلك، إلا إذا كانـت هـناك جـرائم مستحدثة لم يسمعوا عنها. ويستطيع كل واحد من

الواقفيـــن أن يشـــير بوضوح وثقة إلى كل خاطئ وعاص، لكنها هى نفس المخالفات التى يرتكبها الإنسان منذ أن وجد على الأرض، تُرى ماذا يكون أكـــبر مـــن الكبائر ؟ ومن يكون مرتكبو هذه الجرائم التى عُوقبت بسببها المدينة ؟

وها هو الصوت المجهول وصداه يؤكدان على أن ثلاثة على الأقل مـــن بين الوقوف قد ارتكبوا هذه الجرائم الشنيعة. وعليهم أن يتقدموا إلى الاعـــتراف لمحـــو ذنـــب المدينة فتعود إليها الشمس. ساد الصمت وطغت الحـــيرة، واشـــرأبت الـــنفوس كل يطل داخله ويسترجع أفعاله ويستجمع شـــجاعته للاعتراف العلني، لكن أحداً لم يتقدم، وتأزم الموقف أكثر، فهذا معناه استمرار غياب الشمس، واقتراب الموت الجماعى. ولم يكن الإحجام عـــن الاعتراف بسبب الجبن والحرج والخوف من الفضيحة، لكن لأنهم لم يكونوا يعرفون أى الجرائم يقصدها الصوت المجهول وصداه. تجرأ الشيخ بعـــد أن ابـــتلع ريقه عشرات المرات موجها السؤال المتوقع إلى الصوت مجهول المصدر :

وما أكبر من الكبائر ؟

رد الصوت بحزم وأعقبه الصدى وكأنه يؤكد على المعنى : إنه من باع آخرته بدنياه ؟

طلب الشيخ من الصوت أن يزيده إيضاحاً.

قال الصوت : إنه من باع نفسه للشيطان.

فظلـــت حيرة الشيخ كما هى فقال الصوت دون أن يُسأل : إنه من تخلى عن مبادئه.

وعجب الوقوف وسألوا في صوت واحد: وهل يُعد ذلك من الكبائر!!

أجـــاب الصـــوت بحزم أكثر يقترب من الغضب : نعم.. لأن من يفعلـــون ذلك هم المفسدون في الأرض، وهم المنقلبون على أعقابهم، وهم المنقســـمون على ذواتهم، وهم المثل السيئ والقدوة الضالة وهم المطفئون لنور الله وهم الحاجبون لشمس الحق. ومن يدعم الشر هو أكثر شراً. ومن يـــرافق الشيطان هو شيطان أكبر، ومن يؤيد الباطل هو أكثر الناس ضلالاً وهو المضل للبشر.

بات الأمر واضحاً، وامتقعت بعض الوجوه. صارت كلون الدم.

وعلى غير توقع تقدم شاب ليعترف بينما الجميع غرقى في ذهولهم.

قـــال : كرســـت وقتى لمحاربة ذلك الشيخ الضرير، فلاناً ابن فلان لأحمى أهلى وجيرانى وبقية سيدات الحى من ضلاله وانحرافه. كان يدعى أنـــه يعين العاقر على أن تحمل بتعاويذه وخزعبلاته. كان تجيئه نساء من كل أقطاب الأرض. والعجيب أن بعضهن كن يحملن فوراً. كان يختلى بكل امـــرأة بعض الوقت. وتخرج النساء من عنده صامتات مخرصات، وكأن الطـــير حط على رءوسهن وكان بعضهن يعدن أكثر من مرة ليتحقق لهن الأمـــل فى الحمل. وكنت أنا الوحيد الذى أشك فى الأمر، وربما كان هناك آخـــرون يشكون، لكن لا يجرءون على المجاهرة بأفكارهم. وكان أكثر ما يؤجـــج النيران فى صدرى هو أن البعض أو ربما الكثيرين، يرون التشابه الشديد فى الشكل بينى وبينه، وكانت أمى تعاتبنى كثيراً على هجومى عليه، وتتوعدنى بغضب الله.

لكننى لم أتوان ولم أهادن، واستمر القتال بيننا. وحين تأهلت للزواج أردت أن أحقـــق حلمـــى الأكبر لأظفر بمن أحببت سنوات طويلة. جارتى

الحسناء التى بادلتنى حباً بحب. وفجعت إذ رفضت أسرتها خاصة أمها، بل وأسرعوا فى إتمام خطبتها إلى شاب آخر يمتاز عنى فى أنه من المؤيدين الداعمين للشيخ الضرير، وبذلك يعتبره الناس، خاصة أسرة فتاتى أنه أكثر أدباً واحتراما وإجلالا للصالحين النافعين للناس.

وجاءنى من يهمس فى أذنى بأن الحصول على موافقة أسرة فتاتى علـــى الـــزواج منها مرهون بمباركة الشيخ الضرير. عليك أن تذهب إليه وتسترضـــيه وتعتذر وتكفر عن ذنبك وتتعهد له بتأييده ودعمه بالثقة ونشر كل ما هو طيب عنه. ثم إنه على صلة طيبة بأم الفتاة التى يعد زمام الأمر فى يديها

صمت الشاب بعض الوقت وكأنه يستجمع أشياء من ذاكرته أو هو يعـــانى بعـــض الـــتردد فـــى الـــبوح ببقية حكايته أو أنه أحجم أخيراً عن الاستطراد

قلق الناس وحشوا صمته، فاستحثوه دون رفق ليكمل حديثه.

قـــال: عانيت صراعاً رهيباً. إما أن أستمر فى حربى ضد الباطل فـــأفقد حبيبتى، وإما أن أهادن وأدعم الباطل فأظفر بها. والثمن هو التخلى عـــن مـــبادئى وأن أصـــير شيطاناً أكبر من الشيطان ذاته، وأكون مضللاً للناس، مضللاً للحقيقة، ومساعدا على أن يعم الفساد فى الأرض.

ولم أقو على مغالبة عواطفى تجاه فتاتى.

ذهبت إلى الشيخ الضرير تائباً وواعداً بالدعم.

وما هو إلا يوم واحد حتى وافقت أم فتاتى على زواجى منها.

ومن بعدها صرت من أتباع الشيخ الضرير الذى ساعدنى بعد ذلك على شفاء عقم زوجتى فحملت فوراً بعد طول انتظار.

ابتعد الشاب المعترف إلى ركن بعيد وأخذ ينتحب.

وإذ بشـــاب آخر يتقدم مكانه. أطرق طوال الوقت فى الأرض وهو يعترف.

قـــال : علمت أن صاحب القهوة الكائنة فى أول الطريق يتاجر فى المخدرات. وأن كثيرين من شباب الحى وقعوا صرعى للإدمان بسبب هذا الـــرجل، ولأن حلـــم حياتى كان أن أصير فى المستقبل حامياً للحقوق بعد تخـــرجى فـــى الكلية التى تحمل هذا الاسم، فلذا قررت أن أبدأ حربى ضد صـــاحب القهوة الذى يتاجر فى المخدرات، كانت حرباً بلا هوادة، كم من مرة أفشيت إلى الشرطة بأخبار عنه. ثم إننى منعت – كثيراً من الشباب – من الذهاب إلى مكانه. وتوليت حملة توعية ضد المخدرات، وحذرت أهالى الحـــى منه، وفى الحقيقة كنت مؤثراً رغم ضعف إمكاناتى فى محاربة هذا المجـــرم.. ولقـــد حـــاول أكثر من مرة أن يفتك بي، لكن إصرارى هزم الخوف.

وتخرجـــت فـــى كليتى واقتربت من تحقيق حلمى بأن أكون رجل العدالـــة. وتقدمـــت إلـــى المسابقة المعلن عنها. لكننى رسبت رغم تفوقى المشهود به.

وجاء من يهمس فى أذنى : من ليس له ظهر لا يحصل على شئ.

سألت : إلى من ألجأ ؟

قال : إلى من يملك مالاً كثيراً بلا حساب يضغط به فتُقبل.

لم أكن أعرف أحداً يملك مالاً كثيراً بلا حساب، فيئست وانطويت.

لكـــنه عـــاد وهمس لى : إن الرجل الذى حاربته طويلاً، يملك من المروءة ما يجعله يتسامح معك، ولقد أفصح عن استعداده لمساعدتك بشرط أن تكف أذاك عنه.

حطمنى الصراع، إذا أحجمت عن طلب مساعدته فلن أحصل على الوظيفة التى تمكننى من محاربته، وإذا قبلت صرت عبداً معاوناً له، وذلك يتـــناقض مـــع حلمى ويتناقض أيضاً مع طبيعة الوظيفة التى أود الحصول عليها بمعاونته.

وأخـــيراً اهتديت إلى الحل، فلأحصل على الوظيفة بمساعدته. وبعد ذلـــك أحاربـــه. ولجأت إليه فعلاً. وظفرت بما كنت أطمح إليه، وأدركت التـــناقض الـــذى وقعـــت فيه. وبعد وقت قليل ذاب هذا التناقض فى بحر الانشـــغال، ولم يعد بينى وبين الرجل إلا كل مودة والتى بنيتها على مفهوم احـــترام خصوصية كل إنسان وحقه فى ممارسة حياته بطريقته الخاصة. وتراجع الشاب وهو ينتحب. وحل محله الشاب الثالث، واختلف هذا الشاب عـــن اللذيـــن سبقاه فى جرأته ووقاحة نظراته رغم ما كان يعرف عنه فى الســـابق من حياء وأدب وخُلق، واشتهر بأنه هو الذى كان يقف بالمرصاد لجاره الذى كان بيته قبلة الطامعين فى اللذة والترويح. رجال كثيرون كانوا يؤمـــون بيـــته، كان يقيم سهرات لها صوت ولها رائحة، وبضاعته كانت زوجته وابنتيه، وأشيع أنه يتقاضى مالاً كثيراً ثمناً لهذه السهرات الممتعة، وحيـــن أحـــب الشاب الصغير إحدى الابنتين أراد أن ينقذها. ورغم صغر سنه إلا أنه تجرأ على الأب أكثر من مرة وناداه بأقطع الألفاظ التى توحى بوظيفـــته. وفـــى مرات أخرى اعترض الزوار بالسب، وفى أحيان أخرى بالضرب. وتعرض هو ذاته كثيراً للضرب، إلا أنه كان مصمماً على طرد

هــذا الــرجل من الحى. وجاء وقت الاختبار الصعب. أتم دراسته الثانوية وأراد الالــتحاق بالكلية التى تحقق حلمه فى محاربة الانحراف. وجاء من يهمــس فــى أذنه باستحالة قبوله إلا بواسطة شخص له نفوذ وله علاقات قويـــة. وبحث فى ذاكرته عن مثل هذا الشخص فلم يجد. إن معظم معارفه إن لــم يكــن جميعهم من الفقراء الشرفاء. ثم إن حداثة سنه لم تتح له إلا دائرة محدودة من العلاقات غير المؤثرة.

شعر باليأس وفقد كل أمل.

وجاءه من يهمس فى أذنه ثانية وقال له : إن من تود الزواج بابنته والــذى حاربته طويلاً قادر على كل شئ ما عليك إلا أن تعتذر له وتبدى ندمك. وإن أردت ثقته الكاملة فتردد على ندواته الممتعة وشاركه الاحتفاء بضــيوفه. انهرت تماماً وبسرعة فقدت السيطرة على أفكارى ومشاعري، ثــم أصـــابنى الذهول. أصبحت كالمنوم. وبنصف وعى ذهبت إلى الرجل فرحب بى وكأنه كان يتوقع زيارتى. وبفضله التحقت بالكلية. وفى الحقيقة أن زوجته هى التى توسطت لدى أحد المسئولين من المترددين على البيت. وصرت نجماً فى الحى. وازدنت بالنجوم بعد تخرجى. وتزوجت فتاتى ابنة هذه الأسرة، وصرت واحداً منها، راعياً وداعماً. بكى الشاب وانسحب إلى الخلــف. اختلطــت لــدى الواقفين فى صحن الجامع مشاعر شتى رفعوا رءوســـهم إلى السماء، فوجدوا أن سقف الجامع يقف حائلاً، دعاهم الشيخ إلـــى الصلاة فتذكروا أنه فى غمرة اندفاعهم إلى الجامع نسوا أن يتوضأوا ولا تجوز صلاة بغير وضوء. حاولوا أن ينصرفوا فسد الظلام عنهم الباب ووقع بعضهم فوق بعض. فدعا كل بقلبه :

"يارب ارفع مقتك وغضبك عنا

يارب ارفع مقتك وغضبك عنا

يارب ارفع مقتك وغضبك عنا"

وهــنا استســلمت السحب، وأفسحت مكاناً للشمس لتنفذ منه، ونزل أول شعاع نور إلى الأرض.

(٣٠)
الرجل الذى تزوج قطة

الربـــيع يحقـــن الحب فى الأرحام فتمتلئ بالأمل والحماس، وتتفتح الزهور على سيقانها المنتصبة، فتزدهى الأرض بألوان عجاب صبغها الله، وتفعم القلوب البضة بأحاسيس مشبوبة تستجيب لها الأجساد الشابة باهتزاز واندهاش. يا أيها النائم أصح، يا أيها الحزين أفرح، يا أيها الغائب عد، ويا كل العيون اكتحلي، ويا أحباب تناجوا، فهذا فصل الوصال.

ومـــاذا يفعـــل الوحـــيد بأيامه غير التأمل ومتابعة الناس واستراق أحاسيســـهم الـــتى تستبين على وجوههم، فيعيش معهم أفراحهم وأحلامهم. ويشاركهم أحزانهم.. هكذا من بعيد، فقد اختار لنفسه أن يكون وحيداً.

عـــاد فـــى المساء مكدوداً يحمل سمكاً اشتمته القطة الحبيسة وهو مـــازال بعد فى أول الدرج، وصاحبه فى الصعود قط آخر اعتاد أن يحييه حيـــن عودته. وما أن دس المفتاح فى الباب حتى تصاعد مواء قطته والقط المصاحب الذى قفز إلى الداخل قبل أن يخطو هو خطوته الأولى.

جلســـوا ثلاثـــتهم حول المائدة، كان السمك شهياً ذا نكهة تدل على إتقان الطاهى. أكلوا بالتساوى. وجلس قبالة التليفزيون يحتسى الشاى بينما تـــرك القط والقطة يلعبان ويتضاربان، ثم ينعس حينا، ويصحو وقد انتهى

الفيلم الذى كان يشاهده، فيودع القط الزائر وقد بدا عليه الرضا لما أكل من سـمك ومـارس من حب. يذهب إلى فراشه وقد سبقته قطته وتنام لصق قدميه ويغيب هو عن الوجود فى لحظة.

كـان الصباح صحوا يحث على التفاؤل. تناول خبزاً وعسلاً وقهوة ذات تركـيز مضـاعف، وأفرغ حليباً لقطته. قرأ الصحف بتراخ، فاليوم اجازة. واحتار ماذا يفعل بيومه. غسل بعض الأطباق ورتب فراشه وأزال الـتراب عـن كتبه المكشوفة فى العراء التى لفظتها مكتبته المتضخمة. ثم أخـذ حماماً شاركته فيه قطته على غير استحياء. ثم تابع أغانى الربيع فى التليفزيون.

ثم أخذ يدور فى شقته المكونة من حجرة نوم وصالة وحمام ينحشر فـيه حشراً، ومطبخ أكثر رحابة، ثم جلس يكتب ولم تكن لديه رغبة فشعر بفراغ عقله وجفاف إحساسه فتوقف. لم يدر ماذا يفعل بعد ذلك، ولم يكن قد مضى من النهار إلا ربعه.

قرر أن يخرج فاليوم عيد. شده حنين غامض أيقظه انتشار الأطفال فى الطرق إلى حديقة الحيوان. فرح لهذا الخاطر. زيارة هذا المكان تبعث فـى نفسـه الفـرحة والذكريات، كنا أسرة سعيدة حقاً. هكذا همس لنفسه، فليرحمكما الله يا من وهبتانى الحياة. كم من عشرات المرات اصطحبتانى وأشـقائى إلى هذا المكان. الشاى والراديو والسندوتشات، والكرة والكاميرا والفـيل وبيت الثعابين، وجبلاية القرود، والفول السودانى. يا أيتها الطفولة اللاهـية التى لم تكن تدرى ماذا تخبئ لها الأيام. مات الأب ثم تبعته الأم. وتزوجـت الشـقيقة وهاجـر الشقيق. خلت الدنيا من الحب الطبيعى فأخذ يبحث عن الحب الحقيقى. مرة ثم مرة ثم أقلع. تمضى بضع سنوات فيقلق

فــيحاول فلا يوفق. ثم يحاول فييأس فيرضى بوحدته. ألفها واعتاد عليها. خف حنينه إلى الأنثى إلا فيما ندر.

اســتعاض بالخــيال والكتابة وصداقات لا تدوم إلا ساعات. وكف المحــيطون عــن حــثه على الزواج فأيقن أن الوقت قد فات. اقتنى قطة لتصدر صوتاً وحركة وتحدث أحياناً جلبة حين تجوع لطعام أوهب. اعتنى بطعامها، ولكنه أبى أن ينضم إليهما قط ذكر، واستعاض عنه بقط يتخذ من مدخل البيت مأوى ليسمح له بزيارة قطته حين الحاجة الملحة.

ونشــأت بيــنه وبيــن القطة علاقة غير لفظية تعتمد على نظرات العــيون والتلامس، فيمسح على ظهرها وتقفز إلى فخذه وهو جالس وتنام لــيلاً تحــت قدمــيه، ولم تكن زيارات القط تعوق أن يشعر هو باستلطاف لقطته في الحدود المعتادة للعلاقة بين الإنسان والحيوانات الأليفة.

ازدحمــت الحديقة وغطت الأجساد كل المساحات الخضراء وغير الخضــراء. لــم يكــن هــناك موضـــع لقدم، وكان من المستحيل تحاشى الاصـــطدام الجسدي، صخب ومرح وغناء ولعب ومشاجرات وتدافع. وفي غمــرة متابعــته لكل ما تقع عليه عيناه بنهم تنبه إلى شئ عجيب، كان هو الشخص الذى يمشى وحيداً في هذه الحديقة التى تزخر بعشرات الآلاف من الــناس، بل من المستحيل أن ترى شخصين فقط معاً. إما أسرة مجتمعة أو مجموعــات مــن الأصــدقاء، بــل من النادر أن تكون أسرة واحدة، بل مجموعــات مــن الأسر تتلاحم مع بعضها البعض. وصمم أن يعثر على شخص وحيد مثله. وظل يجوب كل جنبات الحديقة، وبعد أن أعياه البحث طــرد هــذا الخاطــر من ذهنه وأخذ يتأمل الأسر ليتعرف على حدود كل أسرة. البطانية تفترش الأرض. الزوج يلتهم الطعام المطبوخ بنهم وتركيز.

الــزوجة ممسكة بكوب الشاى وتعبث بجهاز التسجيل. وأطفال يجرون من حولهمـــا، قـــال لنفسه : هذا أمر يدعو للتفاؤل، مازال فى الدنيا حب، قام بجولته المعتادة حيث توجد حيوانات بعينها يحرص على مشاهدتها، عاوده خاطر أنه هو الإنسان الذى يمشى وحيداً فى هذه الحديقة. ثم قفز فى ذهنه خاطـــر غريب. تـُـرى هل يوجد حيوان وحيد فى هذه الحديقة ؟! مــــر ببيت الأسود ثم النمور ثم الفيلة ثم النسانيس، ثم القرود. أبداً لم يجد حيواناً وحــيداً الكـــل اثنان اثنان، أو مجموعات. وفى بعض الأحيان ذكر وأنثى وأطفالهما، كما شاهد فى بيت الأسود.

عاد من الحديقة مغموماً، فكر أن يتزوج. رسم السيناريو فى رأسه. تصور امرأة تشاركه فى شقته.. تنام معه فى فراشه. تستخدم حمامه. تأخذ جــزءاً مـــن دولابـــه. تســـأله أين سيذهب ولماذا تأخر. تحاسبه عن دخله ومصروفاته.

أزعجـــته هذه الأفكار وأرعبته. طرد فكرة الزواج من رأسه فشعر بالارتياح.

لـــم يجـــد القط منتظراً كعادته. دخل شقته وحيداً فجرت القطة نحو الـــباب جزعة لغياب القط. امتدت غيبته أياماً وأياماً، حتى أصابهما اليأس مـــن عـــودة ظهـــوره. يبدو أنه رحل أو مات، امتنعت القطة عن الطعام. أصـــابها الهـــزال. تقطع قلبه من أجلها. أسرف فى مداعبتها ليسرى عنها. تدريجـــياً استجابت للمساته، واعتادت عليها. وفى إحدى الليالى وجدها وقد انتقلـــت من تحت قدميه إلى صدره حين أخذ فى النوم، وفى هذه الليلة حلم إنه تزوج القطة.

(٣١)

مسيح ٢٠٠٠

مطالعـــة التليفزيون مثل مطالعة ملك الموت. غير أن ملك الموت أرحم إذ يقبض الروح مرة واحد أما التليفزيون فيقبض الروح بعدد مرات مطالعـــته. ورغـــم ذلـــك نستمر فى مطالعته رغبة فى عقاب الذات وتلبية لدوافع مازوخية قد تكون مختبئة فى الأعماق.

وإذا أردت أن تـــنكل بإنســـان، اجعلـــه يموت ثم يصحو.. العذاب الحقـــيقى فـــى أن يصحو وليس عندما يموت.. إذ يصحو ليكتشف أنه قابل للموت مرة أخرى.. عذاب الموت فى انتظاره أو توقعه.. وألمه الحقيقى لا يتكبده إلا من عاشوا بعد موت إنسان عزيز. إنه فراق الأحباب.

والخوف من الموت هو الخوف من المجهول ومعلوماتنا عن عذاب القبر غير موثقه.. بل ياليت هناك عذاب قبر.. فهو دليل حياة أخرى.. أما إذا لـــم تكـــن هناك حياة أخرى فما جدوى الحساب والعقاب. لا يعذب من يقضى بعدمه..

ومـــاذا يضـــير سلخ الشاة بعد موتها.. وما أصعب تشبيه الإنسان بالشاة.. أهكذا تسقط عن الإنسان روحه وعقله ووجدانه بعد موته ليصبح، شاة تنتهى إلى الأبد بعد موتها.

الخوف ليس من عذاب القبر فالعذاب معناه استمرار حياة حتى وإن كانــت بشكل آخر. والحساب الذى يتم فى القبر معناه علاقة بينك وبين من يعذبــك..وعــذاب القــبر يعنى شيئاً آخر مهماً وهو وجود العدالة.. حيث يحاسب ويعاقب من أفلت وهو حى. أما الخوف الحقيقى هو ألا يكون هناك حســاب بعــد المــوت. فهذا معناه اللاشئ بعد الموت. الكارثة أن يفضى المــوت إلى لا شئ.. وبذلك يفلت من أساءوا للحياة والأحياء.. حقيقة إنهم يصيرون إلى لا شئ بعد الموت ولكن هذا لا يكفى ولذا فالحساب والعقاب لابــد أن يكونــا أثــناء الحياة وليس بعد الموت. ورغم أن هناك حياة بعد المــوت إلا أن الحساب والعقاب لابد أن يتما فى الحياة الدنيا.. وأن يشهد علــيه مــن تعذبــوا وتألموا. إذ من حق الضحية أن تشهد عذاب الجانى.. فاتورة الحساب لا يجب أن يؤجل دفعها.. فى التأجيل تشجيع على البغى..

ولــيس أسوأ فى هذه الحياة مثل الظلم. ويتغنى الناس بالظلم إمعاناً فــى الشــعور بالألم واستعذاباً له. ظلمونى الناس ظلمونى.. ويا ظالمنى.. وأخــى جاوز الظالمون المدى.. والسؤال هنا إلى مدى تجاوزوا ؟.. ومن سمح لهم بالتجاوز ؟

والتــباهى بــالظلم هو أشد من الظلم ذاته لأنه إذلال واحتقار وهو استهانة بما هو بعد الموت. إما لا اعتراف أو تبجح.

جلس أمام التليفزيون ليتناول جرعة سم ينام بها.. كان نصف مهتم بــالأحداث الدامــية التى تعرض أمامه.. اعتاد على ذلك وفجأة شده منظر الأب مســتنداً بظهره إلى حائط منزل قديم وقد ضم ابنه إلى صدره ووجه الابــن مــتجه إلــى الكاميرا توقع أن تنتقل الكاميرا إلى موقع آخر حيث الأحداث مثيرة والمظاهرات عنيفة والمواجهة ساخنة. أطفال وجنود حجارة

ونـيران.. مأساة أم ملهاة ؟! ولكن الكاميرا كانت مصممة على أن تصمد وقتاً أطول حتى تتثبت صورة الطفل وأبيه فى العقول.. إن دراما الكاميرا لهـا أصـولها التى يدرسها الطلاب فى معاهد الإعلام.. الدرس يقول إذا أردت أن تشـد اهتمام المشاهد فثبت الكاميرا على المنظر ثم اقترب أكثر وأكثر ويسمى ذلك بلغتهم زووم.. ثم انتقل إلى منظر آخر ثم عد مرة ثانية وهكـذا.. إن الكاميرا هنا تتكلم إنها تقول : انتبه بعد قليل سيحدث هنا شئ مهـم.. شـئ مكتوب طبعاً فى السيناريو هذا إذا كانوا يصورون فيلماً أو مشهداً فى مسلسل تليفزيونى ولكنه مختلف الآن.. أنها مواجهة بين الأطفال والجنود والأب وابنه يجلسان مصادفة على الرصيف مستندين إلى الحائط. ربما أعجب المصور بالمنظر.. ربما أراد أن يقول إن جيلين يشتركان فى المواجهـة إلا أن تركـيز الكامـيرا كان غير عادى وفعلاً حدث ما توقعه انطلقـت رصاصة صوب الطفل فأردته قتيلاً ثم أعقبتها رصاصات أخرى أصـابت الأب فانحـنى على ابنه يبكى وسالت الدماء غزيرة وقفزت إلى الوجوه والجدران وافترشت الأرض واقتربت الكاميرا أكثر وأكثر ليس من شـك أن الطفل قد مات والأب قد أصيب وصاحب الكاميرا يستحق وساماً لأن حدسـه كـان صـادقاً ربمـا كـان يتوقع أيضاً من أى اتجاه ستأتى الرصاصـات فوقف فى الموقع المناسب وسجل الرصاصات تسجيلاً دراما لا تتاح حتى فى ظل ترتيبات سابقة محكمة.

شعر بزلزلة عنيفة وبدت الأرض وكأنها تعانى زلزالاً جعل الأشياء تـتحرك أمـام ناظريه وكاد التليفزيون يقع من موضعه. ومثلما اخترقت رصاصـة قلب الطفل اخترق صدره سيخ من نار ولكن يالالعجب لم يشعل النـيران فـى جسده بل اختفى الألم بعد ثانية واحدة أعقبها إحساس شديد

بـــالجوع ورغـــبة عارمـــة فى ممارسة الحب. فأغلق التليفزيون ونهض ليمارس النشاطين : الطعام والحب.

وظل على فترات متقطعة يتابع الأحداث فى التلفزيون بنصف وعى وبنصـــف اهـــتمام وألـــم شديد لا يستمر إلا ثانية واحدة ويعقبه دائماً نفس الرغبة غير المحددة فى الطعام والحب.

إلى أن جاء مشهد جنازة الصبى وحاول أن يستجمع وعيه وانتباهه إلـــى أقصـــى حـــد. وكان مستعداً بعدها للطعام والحب وفجأة لاحظ أمراً خطـــيراً إن دماء الطفل المسجى تسيل وكأنه قتل لتوه.. تأمل فى وجهه فلم يـــر أى أثر ينم عن أن الجسد قد بقى فى ثلاجة الموت يومين قبل الجنازة كان وجهه نضراً يفيض حيويه وبشراً إلا أن عينيه كانتا مغمضتين. اقترب من شاشة التليفزيون. كاد أن يدخل فيه. تأكد من أن الدماء تسيل.. وصرخ مـــتجاوباً مع صرخات المشيعين الله أكبر.. الله أكبر. لقد بعث الشهيد حياً وما قتلوه ولكن شبه لهم إنه مسيح جديد إنها معجزة أغلق جهاز التليفزيون واستغرق مغلق العينين فى تفكير عميق.. وفى هذه المرة لم يشعر بالرغبة فـــى الطعام ولا فى الحب رغم أن زوجته كانت قد استعدت للأمرين معاً. أعدت الطعام وأعدت نفسها.

وفجـــأة شعر بالزلزلة.. وكانت عنيفة فى هذه المرة وكان الزلزال فـــى رأســـه حيث خطر له خاطر مجنون.. من قال إن هذا الطفل قد مات أصـــلاً ؟ من قال إن رصاصة حقيقية قد أصابته ؟ ألا يمكن أن يكون كل هـــذا جزءاً من سيناريو متفق عليه !! يجلس الطفل بجوار أبيه فى العراء مكشـــوف الصـــدر.. تقترب الكاميرا تأخذ موقعها الإستراتيجى تركز على الطفـــل حـــتى يرسخ فى الأذهان.. ثم تنطلق الرصاصات.. ثم يبدو الطفل

وكأنه مات والأب وكأنه أصيب ثم يختفيان ثم يتمدد على النعش المكشوف ويـــأتون بـــدم كـــذب يســـيل منه ويبدو الأمر كمعجزة وبذلك يكون طرفا المواجهة يضحكان على الناس من أجل هدف معين سنعرفه فى حينه.

كره نفسه لهذه الأفكار الدنيئة التى تكشف عن تبلد مشاعره وامتنع عـــن مشـــاهدة التلـــيفزيون إلا أنه قرأ فى الصحف أن الحرب على وشك الوقوع.

تفرغ للمتابعة أمام التليفزيون. انتقلت الكاميرات إلى ساحة المعركة قـــبلها بساعتين. تعددت أماكن الكاميرات لتصوير كل الزوايا والاتجاهات خصصت كاميرات للأماكن التى ستضرب فاقتربت منها أكثر وأكثر.. قال المذيـــع إن الطـــرف المعـــتدى أعلن أن المعركة ستبدأ بعد ساعة ونصف الســـاعة. اعـــترض الطرف الذى سيعتدى عليه لأن هذا الوقت غير كاف لجميع الاستعدادات حتى يتمكن من مغادرة الأماكن التى سيتم إسقاط القنابل فوقهـــا وحتى يستطيع أن يتخذ المواقع التى سيوجه منها بنادقه إلى السماء لمطاردة الطائرات المعتدية..

طائـــرات الهليكوبـــتر تحلق على ارتفاعات مختلفة وتعبر بالأماكن التى ستضربها لتتعرف عليها وحتى يكون التصويب دقيقاً. فعلت ذلك أكثر مـــن مـــرة وساعده ذلك كما ساعد كل المشاهدين على التصور الدقيق لما سيقع.

كاميرات أخرى كانت تنقل صوراً من مناطق أخرى حول المدينة. المدينة العتيقة. المدينة التى ولد فيها ابن بلا أب، المدينة التى بدأ من عندها المعـــراج مدينة المعجزات وحين عبرت برأسه كلمة معجزات تذكر الطفل المســـجى فـــوق نعشه بعد يومين من موته بينما الدماء تسيل حارة طازجة

مـــتدفقة من جسده. سبحان الله القادر على كل شئ إنها المعجزات التى لا تحدث إلا فوق أرض المدينة المقدسة.

تأخـــر موعـــد بـــدء المعـــركة ربما لاعتبارات فنية متعلقة بالبث التلـــيفزيونى أو ربمـــا لأن المسئولين تباطأوا فى إخلاء الأماكن التى سيتم ضـــربها وعلـــى الطـــرف الآخر كان الأطفال متجمعين يرفعون الأعلام ويمســـكون بالحجـــارة. ثم هطلت القنابل فى الأماكن التى توقعها المشاهد واشـــتعلت النـــيران واندفعـــت عربات الإسعاف والإطفاء التى كانت تقف مســـتعدة فى أماكن محددة لتنطلق فور إعطاء إشارة البدء ولتبدو واضحة فـــى التلـــيفزيون وبينما كانت القنابل تتساقط أذاع التليفزيون من حين إلى حيـــن لقاءات مع المسئولين من الجانبين : انفعال شديد كلمات نارية شعور بالأسى والأسف يكاد يدفع بالدموع فى العيون. وعود بأن كل ذلك لن يؤثر على الرغبة المخلصة فى السلام.

ثـــم تعود الكاميرات إلى حيث تتساقط القنابل ثم تدور حول المدينة لـــنرى الدبابـــات تتحرك بتؤده فى شكل بديع ونظام جميل لتحيط بالمدينة وعلـــى الجانـــب الآخر مازال الأطفال والشباب مجتمعين يحملون الأعلام والحجـــارة ولكن تبدو عليهم الحيرة لعلهم بدأوا يفهمون وماذا يفيد الفهم!! ومـــاذا تملـــك أن تفعـــل وأنـــت تشاهد مباراة لكرة القدم اتفق فيها الاثنان والعشرون لاعباً على أن يصوبوا أهدافهم فى اتجاه واحد.. اثنان وعشرون لاعـــباً يضـــحكون علـــى الملايين التى تشاهدهم وتثق بهم وتأمل فى أن يخلصوا فى المباراة ولكن يبدو أنهم اتفقوا على أن يجعلوها مباراة هزلية.

أغلـــق التلـــيفزيون لم يشعر برغبة فى الطعام لم يشعر برغبة فى الجنس ولكنه شعر بالغثيان فذهب حيث يتقيأ.

(٣٢)
الثدى يُرضع دماً

ذهب يتحقق بنفسه، عبر الحدود تحت مظلة الموت، ليس قصدي أن أموت معهم، ولكنني على استعداد لأن أموت لأعرف الحقيقة.

وحيـــن وصـــل المديـــنة طرق أحد الأبواب بعشوائية غير مفتعلة، الترتيبات المسبقة تصنع الزيف، جاءه صوت رجل من خلف الباب يستفسر عن هويته.

من أنت؟

أنا قريب وحبيب، بل شقيق.

أهـــلاً بكل شقيق، تفضل. فتح الباب فدخل، أذهله أن رأى طفلاً له صـــوت رجل، بل ملامح رجل أيضاً، قال لنفسه : هذا ما جئت أستطلعه، طفل فى ثوب رجل.. كيف؟!

قـــاده الطفل الرجل حيث الآخرين، امرأة وطفل آخر، ما إن عرفوا من أين جاء حتى تهللوا ما أروع بلدى التى تظلل الجميع.

فوجـــئ أن الطفل الآخر له صوت رجل مثل الطفل الذى استقبله، وإن كان يكبره قليلاً، قل إن أحدهما فى العاشرة والآخر فى الثانية عشرة.

سأله الطفل الرجل الثانى : هل جئت تشاركنا الجهاد؟

خجــل مــن نفســه، وأجــاب كذباً بنعم، لكنه عاد وفكر، لماذا لا أشاركهم، هذه هي خير وسيلة لأعرف الحقيقة، إنها الملاحظة بالمشاركة، عش معهم تعرفهم، شاركهم تفهمهم.

المرأة قوية البنية، مثل الهرم الذى تركه فى بلده، فارع الطول مثل نخلــة شــاهقة فــى صعيد بلده، وجهها يلوح بالبشر الدائم حتى تظن أن عضلاته قد اعتادت أن تكون مستبشرة كل الوقت استعداداً لتلقى بشرى قد تأتى فى أية لحظة كان طفلاها الرجلان مثلها، وجهين باسمين مستبشرين.

جاء الطعام وكان قليلاً، لكنهم أكلوا حتى شبعوا، أو لعلهم تظاهروا بالأكل حتى يشبع هو، ما أحلى زيتون بلد الزيتون.

وتــناهى إلــى ســمعه صوت يغنى من بيت ملاصق، كان صوت امــرأة، لــم يسمع مثله فى حياته، أشجاه الغناء، كانت المرأة تغنى بقلبها ولــيس بأحــبال صــوتها، لــم يكن الصوت يخرج من حنجرتها، بل من صــدرها، هكــذا تصــور، لم يستطع أن يصبر، سأل ما بال صوت هذه المــرأة، يهــز قلبه، أجابت المرأة الأم بصوت لونه البشر، إنها تودع ابنها الشهيد المسجى بالدار حتى يدفن فى الصباح، حاول أن يبتلع ريقه، لكنه لم يستطع حيث توقف فى منتصف حلقه فعجز عن الكلام.

استطردت المرأة تشرح معانى الأغنية فقالت: عادت أسراب الحمام مــن جولاتها تحمل حبات القمح تحت ألسنتها لتطعم صغارها التى لم تقو علــى الطــيران، فبقيــت فى أوكارها فى غيبتها هاجمت الثعابين المدينة والتهمت صغارها، فتحولت الحمائم إلى طير أبابيل، وتحولت حبات القمح فــى أفواههــا إلى حجارة من سجيل ألقتها على الثعابين فأبادتها وجعلتها كعصف مأكول.

قـرروا أن يناموا ليلحقوا بجنازة الشهيد فى الصباح ثم إلى الجهاد. لكنه لم ينم، ظل يفكر لعله يهتدى إلى السر. رجل فى صورة طفل أو طفل فى داخله رجل، امرأة فى قوة جبل، طعام قليل يشبع الجميع، أم مات ابنها فتتغـيه بصوت جميل، معانى الأغنية مستوحاة من كتاب سماوى مغزاها العميق أن الحمائم تهزم الثعابين، وأن حبات القمح تتحول إلى حجارة، وأن حـبات الزيتون تتحول إلى قنابل، لعل هذا هو السر الذى جاء يبحث عنه، هذه الأغنية هى المفتاح للحقيقة. إنها تفسر تحول الطفل إلى رجل. وتفسر كـيف أن الحجارة أصبحت أمضى من الحديد. إنها تقول إن تغيراً كيفياً قد حـدث، بيولوجـياً الـنمو تغيرت لتلائم الموقف الذى يستدعى وقوداً من الـرجال، فتحول الأطفال إلى رجال. اختصرت مراحل النمو. يولد الطفل وهـو يتكلم. وفى الثالثة يبلغ الحُلم، وفى السادسة يستطيع أن يضاجع وهذا دلـيل علـى أن أجهـزته قد اكتمل نموها، وأصبح فى أوج قوته، فاخشن صـوته وملأ الشعر جسده، واشتد ساعده، وشحن صدره بالغضب وامتلك قلب أسد، والأهم، أهم الأهم، هو عشق الموت وهذا ما لم يفهمه بعد. كيف يحب الإنسان الموت ويتمناه ويسعى إليه؟

نهضـوا قـبله رغـم أنه لم ينم، توضأوا وصلوا إلا الطفل الرجل الأصغر، سأله لماذا لا تصلى : قال لأننى مشغول بصلاة أخرى، سأله ما هى؟

قـال أصلى للوطن. وماذا يمنعك أن تصلى لله والوطن ؟ قال : أنا أصلى صلاة واحدة لأن لى قلباً واحداً انحشر فيه الوطن.

سأله الضيف : إذن لماذا تسعى إلى الموت بشغف؟

قال : الوطن أحق أن نموت من أجله.

عاد الضيف يسأله : لكن الله أيضاً يدعو للشهادة من أجل الوطن.

أجـــاب : وأنـــا أيضاً ولدوافعي الشخصية ، أود الشهادة في سبيل الوطن.

قال الضيف : الشهداء يذهبون إلى الجنة.

قـــال الطفل الرجل الأصغر : الموت فى حد ذاته هو الجنة، السعى إليه سعادة، والحصول عليه قمة اللذة.

سأله الضيف : وماذا بعد الموت؟

أجاب الصغير الكبير : أترك وطنى حراً لمن بعدى.

قال الضيف : لكنك لن تكون موجوداً.

أجاب هذه هى التضحية.

قال الضيف لنفسه : ربما هذا الطفل مشوش الفكر بسبب الضغوط الهائلة التى يتعرضون لها، وماذا أشد من الموت المتوقع فى كل لحظة ؟

ما إن انتهوا من الصلاة حتى جاءهم صديق، هو أيضاً طفل رجل، كـــل الأطفـــال هنا رجال على ما يبدو. عمره يتوسط الأخ الأصغر والأخ الأكـــبر، أفطروا جميعاً إلى حد التخمة رغم قلة الطعام، عيش ساخن خبز لتوه ولبن رائب، فهم من كلامه أنه جاء لتوه من الكنيسة، عرف أنه.. نعم أنه مسيحى، تحفظ الضيف فى البوح بأفكاره.

نهضوا لوضوء الشهادة، سأل عن وضوء الشهادة فقال له المسيحى حـــتى يســـيل الثلج بينهما : من يتوضأ للشهادة فهو ذاهب للاستشهاد، إنه يـــنوى الشهادة. ينوى ألا يعود إلى بيته إلا شهيداً، فإذا عاد حياً فإنه يأسف وينتظر الاستشهاد فى اليوم التالى.

توضأ المسيحي معهم وضوء الشهادة ورتل بعض الآيات القرآنية، تعجب إلى حد الجنون، كأنما يسمع آذان الصلاة داخل الكنيسة، أو يسمع الترانيم فى فناء الجامع.

لحقوا بجنازة الشهيد، الجسد مسجى مرفوع على الأعناق مكشوف الوجه، بل عجبى وجه الشهيد مبتسم، أم الشهيد تتقدم الصفوف، يا عجبى، نفس البشر يلوح من وجهها. ثمة زغاريد تنطلق بينما الهتاف للوطن يتردد صداه فى كل أنحاء المدينة، لا أصدق أن هذه جنازة، بل هذا زفاف، ولمن يزفون الشهيد ؟

لا أصدق أن المسجى فوق الأعناق يتغنون له وهو مبتسم، مشيعوه هم حساده، يحسدونه لأنه استشهد، يالحظه العظيم، متى نكون مثله ؟ يا قوم لقد جئت لأعرف حكايتكم، حياتكم كلها عجب، وما إن نزل الشهيد تحت الأرض انطلقوا للجهاد، أكبرهم فى العشرين، أصغرهم فى السادسة، يتنافسون من يحتل الصفوف الأولى ليحظى بالموت، يا أهلاً بالموت، كم نحبك أيها الموت، لكنه ليس كأى موت، إنه الموت فى سبيل الوطن، لنطهره من الأفاعي. الأوغاد يتحصنون، الأوغاد خائفون، ويرتعشون، يختبئ النذل خلف سيارة، أو داخل دبابة، يطلق الرصاص عشوائياً، الأطفال الرجال عرايا، صدورهم مكشوفة، يتقدمون إلى الأمام، يقذفون بالحجارة، كل حجر منقوش عليه اسم الله، الحجارة لا تقتل فالأوغاد محصنون، لكن الحجارة تدخل فى قلوبهم الرعب، كل حجر هو لفظة كراهية، الكراهية هى القنابل التى تنفجر فى وجوههم وهى الرصاص الذى يخترق صدورهم، الحجارة هى التصميم والإرادة، الحجارة هى أعظم دليل على انهم لن يستمروا على هذه الأرض وأن عليهم أن يرحلوا، الحجارة

أقوى وأمضى من كل سلاح حديدى. يسقط شهيد، يهتف الأطفال الرجال : الله أكبر، ويسقط جريح يندفع الأطفال الرجال ليبعدوه عن أرض المعركة، جســارة تفوق الخيال، لا يأبهون بالرصاص الذى يعبر فوق رءوسهم ومن على جوانبهم.

قمة الاستهانة بالعدو وبالموت، إنه شئ يغيظ، لقد فقد الموت هيبته، فلــتحزن يا ملك الموت، أنت لا تخيف حتى الأطفال، بل هم يرحبون بك بينهم.

الضيف يرقب ويسجل، الضيف يحاول أن يفهم ظواهر فوق نطاق البشــر، اندفعــت سيارة الأوغاد المسلحة واحتلت وسط الساحة، وأطلقت الرصـــاص فـــى كـــل اتجاه، تحصن الأبطال، وقف الأربعة خلف جدار، الضيف والمسيحى والشقيقان، تصور الأوغاد أنهم سيطروا على الموقف، نزل أحد الجنود يتمشى بحذر بجوار السيارة، رآها الطفل الرجل الأصغر فرصـــة. الآن يســتطيع أن ينال منه بسهولة، لكن الحجارة لا تقتل إلا إذا اقــترب مــنه، همــس للزملاء بنيته، وافقه المسيحى وشقيقه، أما الضيف فاعترض لأنها مخاطرة، قد يقتل قبل أن يقترب بالقدر الكافى من الجندى. الخطـــة كانت أنه سيندفع من خلف الحائط، عليه أن يكون فى أقرب نقطة مؤثــرة من الجندى فى ثانيتين، أو ثلاثة على الأكثر، أى تأخير ولو لثانية واحــدة ســيتيح للجندى أو أحد مرافقيه أن يقتله بسهولة من قبل أن يحقق هدفــه، حــتى إن نجح وقتل الجندى فإن الجنود الآخرين سيقتلونه بسهولة لأنه سيكون فى حجرهم، هذا معناه أنه يعرف أنه سيموت، يالله.. يا سبحان الله، يــا أعجــب قوم، قال له شقيقه الأكبر : أنا أقوم بالمهمة لأننى أسرع مــنك، فاعــترض المسيحى وقال : أنا أسرعكم، وما هى إلا نصف لحظة

حــتى انطلــق الصغير، وفى زمن لا يمكن حسابه كطرفة عين، كان فى مواجهــة الجــندى. وأصــــاب الحجــر رأس الجندى فسقط قتيلاً، وانهال الرصـــاص علـــى الصغير. اندفع المسيحى لسحبه فأصابته رصاصة فى ساقه. كان الشهيد الصغير مازال حياً. ربما فى الرمق الأخير.

لكـــن الابتســـامة لم تفارق وجهه. لا جدوى من إسعافه. نظر إلى الســـماء. سأله الضيف: لماذا تنظر إلى السماء ؟ أجاب الشهيد لأنها سماء الوطـــن، عـــاد الضـــيف يسأله وماذا بعد السماء. فقال الشهيد أخر كلمة : الصانع.

حملـــوه إلى البيت. دمعت عينا الأم بينما وجهها منفرج الأسارير، وكأنها دموع الفرح، لماذا-تفرحين يا امرأة وابنك قد مات ؟ وجاء الجيران لا ليواســـوا، لكـــن ليغبطوا، يتدافعون للنظر إلى وجه الشهيد المسجى، ما أروعـــه مـــن وجه، وكأنه ملك، وكأنه يستعد للزفاف، ومن العروس التى ستزف إلى ملك.

جلس الضيف إلى جوار الأم، سألها : كيف تصنعون الأبطال ؟

قالت : لقد أرضعته الدم من ثدى.

عجـــب مـــن قولهـــا وحاول أن يستعيد إجابتها مرة أخرى، فقالت موضحة: إذا أردت أن تصنع بطلاً فأرضعه دماً، إذا أردت أن تسبق بطفل مراحل النمو فأرضعه دماً، وإذا أردت إنساناً يتلهف على الموت فأرضعه دماً. سألها وهو فى ذهول : ومن أين تأتين بالدم ؟

أشـــارت إلـــى ثديهـــا، وقالت هنا. إنه يرضع الدم من ثدى. نساء الأرض المقدسة. ينعمون بهذه الميزة.

سألها : ولماذا نساء الأرض المقدسة ؟

قالــت : حتى يصنعوا الأبطال لتطهير الأرض المقدسة من الدنس، والبطل الذى يولد هنا لابد أن يحب الاستشهاد ويتسابق من أجله. ولا يكون كذلك إلا إذا رضع دماً من ثدى أمه، يرتوى الأطفال بالدم لترتوى الأرض بدمــائهم، ويســتوى الزرع بالدماء، فنأكل طعاماً له رائحة وطعم الدم. إن ثــدى الأرض يحتقــن أيضاً بالدماء. هكذا الأرض المقدسة حينما تدنس. وهكذا أبناء الأرض المقدسة.

وفــى الصــباح وبعد أن نزل لصغير الكبير تحت الأرض، ودعت الأم ابنها الأكبر ودعت له بالاستشهاد.

سألها الضيف : فإذا مات ابنك الثانى فماذا ستفعلين ؟

قالت فى ثقة : سأنجب آخرين.

قال الضيف : وماذا إذا مات كل الرجال ؟

قالت فى ثقة : إن نساء هذه الناحية يلدن بلا رجال أحياناً إذا دعت الضرورة.

(٣٣)

سيناريــو

المنظر الأول:

المكتب بسيط رغم أهمية الوظيفة.. والجالس على الكرسى يكتسب أهميته مما فى يده من سلطات.. واصحاب المطالب المشروعة يرجون فى أدب، أما أصحاب المطالب غير المشروعة فيكيلون النفاق ببذخ دون حياء. وعلـــى استحياء يلوحون بالهدايا. أما هو فقد كان قاطعاً، كسيف، لا يأكل حـــراماً ولا يعرف غير الإخلاص فى عمله فارتقى على رغم صغر سنه. وعـــرف عنه حبه الشديد للوطن فجعلوه أميناً للأسرار حفيظاً على الأخبار ووعـــاءً للمعلومات.. ورغم ثقل الأمانة فقد حملها على كاهله دون كلل أو تعب.. يستهل عمله مع إشراقه الصباح ويودعه بعد أن ينتصف الليل بقليل أو كثير ولذا رضى بعزوبيته ورضيت به حتى يأذن الله.

احـــتل أصحاب الطلبات جميع مقاعد الغرفة التى جلس هو فى أحد أركانهـــا خلف مكتبه. أدخلها السكرتير الخاص إلى الغرفة دون أن ينتظر خلـــو أحـــد المقاعد فأدرك الجميع أنها تحمل توصية فوق العادة. اتجهت مباشرة إلى مكتبه دون أن تنتظر دعوته فكاد أن ينهرها بحدته التى عرفت عنه لولا أنه لمح ببديهيته الصاروخية الاسم المكتوب على كارت التوصية

فـنهض مرحـباً فى الحال، وعبر التليفون وبصوت حماسى سمعه الجميع أمـر مدير مكتبه بالاستجابة الفورية لطلبها.. انسحبت من الغرفة دون أن يـبدو علـى وجهها أى تعبير مخلفة وراءها رائحة هى خليط من الزهور تتناسب مع أعوامها العشرين.

المنظر الثانى:

.. عـادت لتشكره مع أمها.. عرف كل شئ عنها دون أن يسأل بل بـتطوع مـن أمهـا.. طفلة وحيدة مدللة. تعلمت بالخارج حيث كان يعمل أبوهـا. مـات الأب فعـادوا إلى الوطن. لا تعمل حالياً، تهوى الموسيقى والسباحة، تفضل البقاء فى البيت والاهتمام بالزوج. وبدون تريث أراد أن يكـون هـو الزوج. قبلت الأم فوراً وترددت هى فزاد ذلك من رغبته. تم الزواج فى خلال شهرين.

المنظر الثالث:

أخلف كل وعوده فلم يستقطع لها وقتاً ولا لابنهما الذى جاء سريعاً ولكـن فى حدود الزمن المعتاد لتخليق طفل. بل ازداد انشغالاً حيث وصل إلـى مكانة أعلى وأكثر حساسية وخطورة. وبدون أن يدرى ازداد انتفاخاً وغلظة.. ونالها حظ من قسوته وازداد إهمالاً لها.

المنظر الرابع:

أراد أن يـتخفف من عبء الاهتمام بها فوافق أن تعمل. وبعلاقاته الدسـمة استطاع أن يلحقها بموقع متميز فى هيئة دولية لتمكنها من الثقافة الأجنبية.. برعت لذكائها وجمالها ولأنها زوجة رجل مهم.. عملت ملاصقة

للرجل الأول فى العمل. ورغم الطابع الاقتصادى للعمل إلا أنه كانت لهذه الهيئة اهتمامات أخرى تتعلق بالحياة الاجتماعية.. ازدادت التصاقاً برئيسها.

وتطايرت الأقاويل التى وصلت بسهولة إلى زوجها فأمرها أن تترك العمل فرفضت.. فقد السيطرة عليها رغم قوته، واستطاع بحكم موقعه وقوته أن يبعد رئيسها عن الوطن. فطلبت الطلاق.

وكان الابن وصل إلى الخامسة وتعلقت به روحه. رفض الطلاق، فهددت بأن تفشى بعض أسراره الحساسة، واشتكت لرئيسه الذى أمره بالطلاق الفورى.

المنظر الخامس:

استطاعت أن تؤسس منزلاً جميلاً يفوق قدراتها المالية. وعاشت فيه حرة مع ابنها لم تكف الشائعات عن لهوها. وقيل إن رئيسها السابق يجئ خصيصاً لزيارتها من وقت إلى آخر، كان الزوج المطلق يرصد كل حركاتها، نشأت نزاعات ضارية بشأن حضانة الطفل انتصرت هى فى نهايتها. كانت تملك من الأسرار ما يجعله يتراجع عن إيذائها.

وفى يوم أرسلت إليه الابن مع كل حاجياته ليرعاه هو. فرح دون زهو فالطفل قد عاد إليه بإرادتها وليس بسطوته.

أهملت السؤال عن الطفل فشعر بطمأنينة وأدرك أنها تخلت عن طفلها إلى الأبد.. ولكن فى نفس الوقت امتلأ حلقه بالمرارة فالمرأة لا تتخلى عن ضناها إلا من أجل عشيقها. مزقته الغيرة واعترف لنفسه بأنه مازال يحبها.

المنظر السادس:

لــم يعد الابن من مدرسته فى الموعد المعتاد. لم تمانع المدرسة فى اصــطحاب أمه له فهذا أمر كان معتاداً بعد أن عاد الطفل إلى أبيه وهدأت الأمــور. لــم ينشغل الأب لغياب الابن، ولكن فى المساء عرف أنه غادر الوطــن بجــواز ســفر مزور مع أمه إلى الدولة الأجنبية التى يعيش فيها عشيقها.

ورغم ما يملكه من سلطات غير محدودة إلا أنه لم يستطع أن يقتفى أثــرهما. وحــزن حزناً شديداً لفقد ابنه وحزن أكثر لهزيمته مرتين، مرة أمامها ومرة أمام نفسه. وعرف رئيسه المباشر بالأمر فطلب منه أن يصمت، فهم يعدونه لمنصب أرفع ويخشى لو عرفت الجهات العليا بأمر تهاويه أن يفقدوا الثقة به.

انطوى على أحزانه ثم حل الغيظ محل الحزن وقرر أن يدفع حياته ثمناً للانتقام حتى وإن كلفه ذلك فقد وظيفته.

المنظر السابع:

جــاء مــن يهمــس فــى أذنه بأنه يعرف مكان إقامتها فى الدولة الأجنبية. وزاد عليه أنها تزوجت الرجل الأجنبى وأنها ألحقت بعمل وتعيش سعيدة جن جنونه وتمزق من الغيظ وأعلنها أنه على استعداد أن يفقد حياته ثمــناً للانــتقام، طلب منه الصديق أن يتحلى بالصبر ويكتم الأمر حتى لا يفسد عليه خطة استعادة ابنه.

ثم جاءه بعد ذلك بصور لها مع ابنهما.. أمام البيت وفى داخله وفى المدرسة وفى الحديقة. ولم توجعه صورتها مع زوجها وهو يحتضنها وإنما

أدمـــى قلـــبه صـــورة ابنه وهو يتعلق برقبة زوج أمه والسعادة تفيض من عينيه فزاده ذلك إصراراً على استعادة ابنه.. طلب من المرشد أن يرى كل ذلك بعينه فوعده بأنه سيساعده شريطة أن يضبط أعصابه.

المنظر الثامن:

كل شئ كان يتشح بالبياض إلا قلبه. قبع فى مكان لا يراه منه أحد وكـــان قـــد اعـــتاد على مثل هذه المواقف فلم يرتجف له جفن خوفاً. سلط عينـــيه نحـــو الباب ورآه كباب الجحيم وتمنى الموت لجميع من بالدار إلا ابنه.

وخطرت له أفكار مجنونة لا تتفق مع خبرته وما تعلمه من مداهمة الأماكـــن وقتل من فيها دون أن يشعر به أحد. فكرة مجنونة أن يلقى بقنبلة علـــى البيـــت، وفكـــرة أخرى أكثر جنوناً بأن يحرق البيت. ومع كل هذه الأفكـــار تملكته رغبة غريبة عليه وغريب أن تقتحم عقله هو بالذات وهى أن يقتل نفسه بعد الانتقام.. وازداد الطقس سوءاً وفشلت كل احتياطاته فى حمايـــته مـــن اقتحام البرد حتى أحشائه الداخلية وراودته أفكار معاكسة.. لمـــاذا كل هذا العناء. كم من ملايين النساء فى العالم خن أزواجهن !! كم من ملايين الرجال فى العالم فقدوا أبناءهم. أنا أثمن من الزوجة الخائنة، بل أنـــا أثمـــن مـــن الابـــن أيضاً. أنا رجل عظيم وشجاع وناجح، إن وطنى يحتاجنـــي.. وكثـــيرون تعتمد حياتهم على بقائى صحيحاً سليماً.. فلأعود أدراجـــى ولتذهـــب وابنها إلى الجحيم.. ثم أظلمت السماء وأمطرت فبكى فكـــره نفســـه. وفجأة فتح باب الجحيم فاشتعلت النيران فى جسده المتجمد ولمحها تجرى هى وابنها صوب السيارة.. ولحقها مع مرشده وعرف أين يذهب كل منهما فى هذا الوقت.

المنظر التاسع:

فـــي المســـاء أخذه المرشد إلى حيث الاجتماع المهم.. وجوه جادة وماكـــرة اعتاد هو على التعامل معها في دائرة عمله.. في هذه المرة ليس هو الآمر. بل هو المترجي.. ساعدوني لأنتقم.

أجابه رئيسهم : كل شئ له ثمن.

قال بلهفة : أدفع حياتي.

انـــبرى آخـــر قـــائلاً : حياتك أثمن عندنا.. نحن نريدك أن تعيش لتساعدنا.

قال بنفس درجة اللهفة : أفعل أي شئ تطلبونه مني.

اختـــتم الرئيس اللقاء بأنهم سيخبرونه فيما بعد بطلباتهم.. وفي نفس الليلة عاد إلى الوطن في انتظار التعليمات.

المنظر العاشر:

انتظر طويلاً ولم يتصل به أحد.. جاهد أن يبدو متماسكاً خاصة في عمله. تصور أنهم يستخدمون معه نفس الأساليب التي استخدمها كثيراً في عمله وهو أن يصل بالإنسان إلى أقصى درجات الإرهاق العصبي فيصبح بعد ذلك قابلاً للانصياع التام.. وأخيراً جاء الفرج.. ظهر مرشده فطار من الفـــرح. ثم طار معه إلى حيث الخائنة. وفي الطريق حدد له طلباتهم منه، إنهم فتية آمنوا بربهم ويعملون من أجل الله والوطن.

نريد معلومات تساعد المناضلين والمجاهدين، نريد مساعدات للذين يذهـــبون للشهادة من أجل فرض شريعة الله.. نريد مساندة رجالنا الأتقياء فـــي مهامهم الخطرة للقضاء على أعداء الدين. نريد تأثيرك الإعلامي في محو كلمات الإرهاب والفتنة الطائفية عن فكرنا وعملنا.

قال لنفسه : أخيراً وقعت فريسة لمن كنت أحاربهم. ولكن لا بأس. رغـم أنني كنت أقسو عليهم إلا أنني كنت مقتنعاً ببعض أفكارهم ومتعاطفاً معهم، إذن مطلوب منى أن أدعم الإرهاب وأن أزيد الفتنة الطائفية اشتعالاً.

على بركة الله.. وافقت.. المهم ساعدوني على الانتقام.

المنظر الحادي عشر:

رسموا له الخطة.. أعطوه المسدس.. اطرق الباب، بمجرد أن تفتح أدفعهـا للداخـل، أطلق عليها الرصاص دون التحام جسدي، غادر المنزل فوراً، في المطار ستجد ابنك. سافرا على أول طائرة إلى وطنك.

مشيت الخطة بإحكام شديد وفق ما رسموه له..وأخيراً نام أول ليلة على فراشه في وطنه محتضناً ابنه.

أراد أن يـتهرب مـن وعوده فأرسل المرشد له صورة وهو يقتل زوجـته ثم أعقبه بالفيلم الذي يصوره وهو يطلق الرصاص عليها ثم وهى تهوى على الأرض مضرجة في دمائها.

المنظر الثاني عشر:

فـي صـباح اليوم التالي ذهب إلى رئيسه مباشرة وحكى له كل ما حدث.. فأخبره رئيسه بأنهم يعرفون كل شئ وأنهم يتتبعون خطواته منذ أن بـدءوا فـي الاتصـال به. قال ببراءة تتنافى مع ما عرف عنه من ذكاء وخـبرة: إنهـم ليسـوا من أعداء الخارج. بل هم مواطنون متعاطفون مع الإرهابيين.

ضحك رئيسه من قوله : بل هم من أعداء الخارج.

ســأل بغــباء : وكــيف يدعــم أعداء الخارج الإرهاب وذلك ضد مصالحهم.

أجابـــه رئيسه بغيظ ألا تعرف أن ذلك يحقق لهم فوائد أخرى وهى ضرب الوحدة الوطنية.

نظر إلى رئيسه بخجل وعاد يسأل وماذا سيكون موقفي من جريمة القتل؟

قال رئيسه وقد نفد صبره : يبدو أنك لم تعد تصلح للعمل معنا. إنها لم تقتل، لقد كانت تمثيلية، فلقد خرجت من البيت على قدميها بعد مغادرتك للمطار.

أســقط فــي يده وعرف أنه كان ضحية رغبته العارمة في الانتقام والتي أغلقت عقله وأعمت بصره.

وفى اليوم التالي قدم استقالته.. وأخذ ابنه واختفى.

المنظر الثالث عشر:

ذات مســاء عاد إلى مخبئه فلم يجد ابنه. بحث عنه في كل مكان.. وبعــد شهر وجدوا الطفل قتيلاً فأصابته لوثة عقلية أخذ يجوب بعدها البلاد في شبه ذهول.

المنظر الأخير :

أودعــته الشــرطة مستشفى الأمراض العقلية.. وبعد شهر وجدوه ميتاً.. انتحار أم موت طبيعي أم قتل عمداً.. الله أعلم.

(٣٤)
العائد إلى الموت.. من الموت!

ما انشرح صدره لشيء في الحياة قدر انشراحه لبزوغ الشمس وما انقبض صدره لشيء قدر انقباضه لغروبها. تعلق قلبه بالشمس رمز القوة ومصدر الحياة. يلاحظ شروقها ويشيح بوجهه عن غروبها. وتجمعت عدة مترادفات للشروق وأخرى للغروب يحب الأولى وينفر من الثانية. أحب كل البدايات وكره كل النهايات.

يبتهج لمولد طفل جديد أو لبرعم غض يتشكل على فرع أخضر ويبتئس لموت إنسان أو حيوان أو لذبول وردة. وكان عشقه غير مسبوق للأمطار. ليس كمثله أحد. الناس يرونها مصدراً للخير بدونها لا يأكلون أما هو فيراها كما يراها القرآن الكريم مصدراً لكل حياة وسعد. دائماً يردد الآية الكريمة "وجعلنا من الماء كل شئ حي". وكان يقف عند كلمة "كل". النشوة كلها في كلمة "كل". أي لا استثناء واحد.. كل بمعنى الكل. كل تتضمن الجميع. الإعجاز كله في كلمة كل. كل تعني المطلق، تعني الحقيقة الناصعة التي لا تشوبها ذرة تلقي ظلاً يمنع جلاء ركن منها في حجم الذرة. ولم يكن يعجبه كثيراً ذلك التفسير القائل بأن كل شئ حي يدخل الماء في تركيبه. كان يفضل تفسيراً آخر ينسبه إلى نفسه وهو أن ما لمس

المـــاء شيئاً وتدخل فى ثناياه إلا وجعله حياً وإن لم ينبض أو وإن لم ندرك نحـــن نبضـــه. ومن أدراك أن الأرض لا تنبض ألم يقل الله عز وجل فإذا أنزلـــنا عليها الماء اهتزت وربت. أليس هذا الاهتزاز نبضاً ولكننا لا نراه. الأرض ليست جماداً. والطين ليس ميتاً.

فمـــا أن تهطـــل الأمطار وتلمس الأرض مثل تلامس شفاه العشاق حـــتى تبعـــث الحـــياة والقـــبلات وقطرات المياه هى مصادر للحياة. لهفة وذوبـــان. حركة ونشوه. وقد تغلظ المياه مثلما تغلظ الشفاه فتفيض وتغرق. وهذا الغرق ليس موتاً. ولكنه تشبع واحتواء كامل كصاحب الشفاه الغليظة حين يطبع قبله على شفاه محبوبة فتفيض مستوعبة حدوداً أكبر مثيرة لمزيد مـــن اللذة حتى وإن غطت فتحات الأنف، فلا يضيق الصدر وإنما ينشرح كمـــا ينشرح الجسد كله حينما يهتز فرحاً وطرباً استجابة لملامسة الحبيب فيهتز مثل اهتزاز الأرض.

وكان يرى أن الرقص يجسد هذا المعنى فهو اهتزاز للجسد. تصور لملامســـة الحبيـــب. هذا التلوى هو الاستجابة للملامسة فى مواقع مختلفة. ولـــذا كـــان يعتبر الرقص حياة وتعبيراً عن الحياة، أحب الرقص وحرص علـــى أن يـــراه فـــى أى صورة كلما حانت فرصة مثل حضور فرح أو المداومة على الموالد.

وحـــبه للحـــياة فـــى كل صورها جعله يستمتع بالحياة ذاتها. يحب الطعـــام الجـــيد والألـــوان الزاهية والألحان التى تطرب وزيارة الحدائق والشـــواطئ وشراء العطور مهما غلا ثمنها بما يتفق وقدراته، وكان أيضاً يحب النساء الجميلات وإن لم يخن زوجته أبداً بل على العكس كان يستمتع إيمـــا استمتاع معها. وبالرغم من أنها لم تكن على مستوى حيويته فى كل

شئ إلا أنه كان يترفق بها ويشعرها بأنها أجمل امرأة فى العالم والدليل هو إقباله عليها بشهية.

كانت الحياة تمضى بلا منغصات حتى اكتشف فجأة أنه بلغ الستين وجـاء يـوم إحالـته للمعاش والناس عادة يتحسبون لهذا اليوم قبل مجيئه بعـام أو عاميـن إلا أنـه ظل يتجاهله حتى يوم مجيئه وكأنه فوجئ به. جمـع حاجياته من مكتبه الحكومى وودعه زملاؤه كما يودعون أى زميل انتهـت خدمته. وفى هذا اليوم تصور أنهم يودعونه وداع الموت وتصور نفسـه خارجـاً من مقر عمله فى نعش ليس محمولاً ولكن له أقدام يمشى عليها.

عاد إلى البيت مغموماً. فهمت زوجته وتفهمت حذرت الابنين اللذين كبرا وتزوجا من التخلف عن زيارة أبيهما في أوقات متقاربة للتسرية عنه وبذلـت هي جهداً للتهوين والترويح، ولكن استجابته كانت مقتضبة وإن لم تمـت بالكامل وقل إقباله عليها.. ومع الشهور التي تلت لم يستطع بالمرة فتيقـن أن القدرة الجنسية مرتبطة بالاستمرار في العمل وأنهما يحالان معاً للمعاش.

لم تهتم زوجته وإن قلقت عليه وكثر تردده على المساجد وأضرحة الأولـياء وقـل ذهابه إلى الحدائق والشواطئ وكان هذا دليلاً على التغير الجـذري الـذي أصابه حيث أدار ظهره للحياة وولى وجهه نحو النهاية. والدلـيل القـاطع علـى ذلك كان امتناعه عن مشاهدة شروق الشمس كل صـباح والـذي حرص عليه طوال عمره باستثناء الأيام التي كان يمرض فيها.

واختصاراً لمظاهر كثيرة نقول إنه الآن ينتظر الموت !

وجـــاء يــوم وذهب لشراء كتاب دينى من إحدى المكتبات عنوانه "عــذاب القــبر" واعترضت البائعة الصغيرة بابتسامة صافية تطورت إلى ضحكة من القلب إن هذا الكتاب لا يلائمه فهو لكبار السن فابتسم من قولها وأخبرها بأنه تعدى الستين بعامين. فعلت ضحكتها وكأنها نافورة تشب من عين عذبة وقالت بصدق بل تبدو فى الثلاثين. وفجأة وهو فى داخل المكتبة وفى مواجهة الفتاة رأى الشمس تبزغ ورأى وجهها المتواضع يبدو كالقمر وســمع صوتها كلحن سماوى. أصرت أن تستبدله بكتاب آخر سمعت أنه جـيد وإن لم تقرأه مثلما لم تقرأ كتاباً فى حياتها إلا الكتب المدرسية حتى مســتوى المدرســة الــثانوية حيث توقفت عن التعليم لتعمل.. كان عنوان الكــتاب الــذى رشحته له "الحياة.. والحب".. وفى جرأة غير متوقعة من بائعــة دون العشرين من عمرها نصف متعلمه شديدة البساطة فى مظهرها وشكلها وضعت الكتاب بين يديه وحصلت منه ثمنه.

خرج من المكتبة غير مصدق أنه ولد من جديد. كان جسده ينتفض مــثل حــبات الأرض حين تسقط عليها الأمطار. ذهب مباشرة إلى حديقة وجلس تحت شجرة والتهم الكتاب. وفى طريق عودته مــــر بشاطئ النيل وراقــب وجــوه الــناس فوجدهــا مبتسمة راقب حركتهم فلاحظ النشاط والحماســة. أســرع الخطى حتى لا يدركه غروب الشمس وما أن وصل البيــت حتى استلقى فى الفراش نصف عار. بحث عن أغنية ليسمعها تؤكد أن الحياة حلوة استحم بمياه دافئة ونام بعمق وحلم بالجنة.. قام نشيطاً وقت آذان الفجر فصلى وتطلع للسماء مراقباً الشمس وهى تغزو وجوده بحنان.

ومن هنا تبدأ الحكاية البداية الدرامية وهى على شكل صراع يفصح عن نزاع داخلى.. أيذهب للمكتبة مرة أخرى أم لا !! ولماذا يذهب ؟ هو لا

يـــريد شراء جديد. ولكن الرغبة حارقة فى أن يذهب ولكن ماذا يقول عن نفسه ؟ إذا كنت مصراً على أن تذهب فصارح نفسك الآن وفى هذه اللحظة لماذا تريد أن تذهب ؟ بل الأفضل ألا تذهب. لماذا تكون مثاراً للسخرية إذا فهـــم قصـــدك !! طيب وما قصدى ؟ قصدك أن تراها.. ترى من ؟ ترى الفـــتاة الصـــغيرة.. يا للمصيبة أنها صغيرة وأنا كبير. وما أهمية السن إذا كان القصد شريفاً !! أنها أصغر بعشر سنوات من ابنك الأصغر. وماذا يهم !! أنـــا لا أريـــد مـــنها شيئاً. مجرد أن أراها. ولماذا تريد أن تراها ؟ هل لابتســـامتها أم لجرأتها ؟ ربما.. ولكن هناك شيئاً أهم. هو محور ارتكازى الذى فقدته فوقعت وتقوقعت وهى أنها رمز الحياة.. رمز النضارة.. رمز الطاقـــة الهائلة التى تحرك جبالاً.. إنها الماء.. نعم إنها الماء وبذلك تكون قادرة على أن تجعل كل شئ حياً. لقد بعثت فى الحياة وهذا دليل على أنها المـــاء.. وهـــو مـــاء أتـــى من السماء مباشرة لأنها كانت صافية وتلقائية وبســـيطة جمالهـــا العـــبقرى فى عفويتها.. هى حقاً بلا أى ملامح جميلة خارجية ولكنها فى تقديرى أجمل الجميلات.. فهى تملك موهبة بعث الحياة ولا يملك تلك الموهبة إلا كل جميل بل هى ملكة الجمال.. الواهبة المنعمة.

يســـتطع أن يقاوم حنينه. أوقف الجدل مع نفسه حسم الصراع ذهب إلى المكتبة.

لـــم يجدها. شعر بغصة. سقط داخله. مات كل شئ. حبس دموعه. لم يستطع أن يسأل عنها. انصرف.

عاد فى اليوم الثانى. وعلى مقربة من المكتبة رأى نوراً ينبعث من الداخـــل فتأكد من وجودها. فرح كطفل وفرح الأطفال هو أقصى درجات الفـــرح ومـــا أن وطـــأ المكتبة حتى بادرته باعتذارها عن غيابها بالأمس

وكأنهـا كانـت متوقعة مجيئه لها بالذات. نظر حوله فرأى عيون البائعات الأخـريات مسـلطة عليه. تلعثم فساعدته على أن يشترى ألبوماً للاحتفاظ بالصور وافق بلا وعى نظر إلى عينيها بإمعان لأول مرة فتبادلا رسالة.. انـتظرها علـى ناصية الطريق حتى انتهت من عملها قالت له إنها جائعة فذهـبا إلـى مكـان معروف بطعامه الجيد يطل على النيل أكلت بشراهة وامتـنان كـان يراقـبها باندهاش أعجب بإخلاصها للطعام إذ كانت تأكل بتركـيز وكأنهـا تقوم بعمل مهم. هذا مظهر آخر من مظاهر حب الحياة والاستمتاع بها. لم تشأ أن تستخدم أدوات الطعام وأعملت أصابعها دون أن تأبه لوجود أحد من حولها ازداد يقينه بأن روحه التى فقدها عادت إليه.

تكـررت اللقاءات بتتابع فنشأ بينهما نوع فريد من الألفة تحكى له عـن كـل شئ ويحكى لها عن كل شئ لا يخفى عنها شيئاً ولا تخفى عنه شيئاً.. كل شئ.. كل شئ.. لم تكن تشعر بأى حرج.. هو كذلك.. واتسعت دائرة الأماكن التى يرتاداها خاصة الحدائق والسينمات وأماكن الطعام.. لم يـتعد الأمر أكثر من ذلك وكان لا يمسك بيدها إلا حينما يعبران طريق بل لـم يشعر بالحاجة مطلقاً إلى أن يلمسها.. ورغم أن شهيته الجنسية عادت إلـيه إلا أنـه لم يوجهها ناحيتها أبداً لم تكن موضوعاً جنسياً بالنسبة له. كانـت موضوع حياة. الميت الذى عاد. ولذا كان ممتناً لها بحياته ولم يكن يـريد مـنها أكـثر من ذلك أن تكون معه بعض الوقت يأكلان. يمشيان يـتكلمان. يضحكان يتسامران. يمرحان. أكدت له فى مرات كثيرة أنه فى الثلاثين لم تكن تنافقه ولم تكن تريد منه شيئاً كانت ترفض نقوده وتقبل منه فقط أن يطعمها طعاماً جيداً.. لذتها القصوى فى الحياة أن تأكل وكان أكثر ما يمتعه أن يرقبها وهى تأكل.

حمــدت الــزوجة ربها أن الحياة عادت تجرى فى عروق زوجها والذى استرد حيويته ونشاطه إلا أنها عجبت من عزوفه الجنسى عنها. كان يقــبلها بمــودة الأخ لأخــته ويعطف عليها بحنان الأب لابنته وزاد كرمه المعهــود معهـــا إلا أن يــنام معها ولكنها لم تشك لحظة فى تعلقه بامرأة أخرى. بل هو ذاته لم يعتبر نفسه خائناً فهو لا يريد من فتاته أى شئ غير شريف بل لم يفكر على الإطلاق فى الزواج منها بل أحياناً كان يشعر أنها كابنته ولكن فى معظم الأحيان كان يشعر بأنها صديقته توءم روحه. باعثة الحياة محيية الموتى كانت تملك حيوية ألف امرأة وجرأة ألف رجل وبراءة ألف طفل وصدق ألف شيخ ومحبة ألف قسيس.

والمدهش فى الأمر أنها كانت تملك أيضاً حكمة ألف فيلسوف رغم تواضعها الفكرى لأنها كانت تقول ما تعتقد فيه.

لا تدعى ولا تبالغ ولا تذوق ولا تجمل كانت لا تراقب كلماتها وهى تــنطقها. كانــت هى نفسها، على طبيعتها على حقيقتها ولذا كانت صادقة وكلماتهـــا ذات معــنى وأفكارها ذات عمق إنسانى.. الإنسان بفطرته التى فطره الله عليها.

حــتى جــاء الــيوم الأسود وهنا يبدو التناقض الإنسانى فى أعلى صوره.. وهنا أيضاً يبدو التعارض البين بين اللاشعور والشعور، أى بين العقــل الباطن الذى يحتوى على الحقيقة المجردة ولكنها مكبوتة وممنوعة مــن الوصـــول إلـــى العلـــن وبين العقل الواعى وهنا يبدو أيضاً تعارض المواقف لصديقين. هى وهو.. أين تقف هى وأين يقف هو ؟ ماذا يعنى هو بالنسبة لها وماذا تعنى هى بالنسبة له؟ ماذا تحتاج هى منه وماذا يحتاج هو منها؟

نقــول أولاً مــاذا حدث فى اليوم الأسود ثم نجتهد معاً لنجد تفسيراً لردود الأفعال.

جاءتــه قائلــة إن رجلاً تقدم لخطبتها قالتها ببساطة مثل أى قصة عاديــة تحكــيها له.. لم تشعر بأنها تقول شيئاً له أهمية الزلازل فى حياة البشر. لم تشعر بأنها تلقى بحمم بركانية ترتفع إلى أعلى لتسقط على رأس أحد.

قالــتها ببســاطة واســتطردت تحكى عنه لتستطلع رأيه فى مدى ملائمته ولو أنها أفصحت عن موافقتها المبدائية رغبة منها فى الزواج.

قــد يكــون مــن الســـهل تصور حجم تأثير ذلك الخبر عليه ولكن، الأخطر هو رد فعله الذى سيخرج منه أمامها ماذا يقول !! وكيف يبدو !! وأى انفعــال سيظهر !! لنا أن نتصور عشرات السيناريوهات لردود أفعال مختلفة ومتباينة ومتعارضة أحياناً ونعجب لتعارضها.

السيناريوهات يقول إنه سيقفز من الفرحة ويهنئها.

سيناريو آخر سيقول إنه سيصرخ فى وجهها وينهض منصرفاً.

سيناريو ثالث يقول إنه سيلطمها على خدها ويتهمها بالخيانة.

سيناريو رابع سيقول إنه سيستمع لها بهدوء ليتعرف على صفاته ثم يبدى رأيه بنصحها بالقبول أو الرفض.

ســيناريو خــامس يقــول إنه رغم يقينه بأنه عريس ممتاز إلا أنه سيؤكد لها أنه سيئ لترفضه.

سيناريو سادس يقول إنه سينهار ويبكى ويعترف لها بحبه ويعرض عليها الزواج.

ربمـــا كانـــت من أخطر اللحظات فى حياته اللحظة التى تفرق بين الحياة والموت، إما أنه سيموت للأبد وإما أنه سيعيش للأبد وماذا تعنى أنه سيموت أو سيعيش؟ هل سيموت إذا تزوجت غيره وسيعيش إذا فضلت أن تــبقى معـــه؟ ثم يعود إلى نقطة البداية ليسأل نفسه من هى بالنسبة له ؟ أو بصراحة وبدون لف أو دوران هل هى صديقة أم حبيبة ؟

فـــى خلال هذا الخضم الصراعى الهائل نستطيع أن نتصور حالته وهو يحاول أن يحدد رد فعله.

هو ذاته لا يعرف كيف صدر عنه رد الفعل الذى يتلخص فى كلمة مبروك.. وانتهيا من طعامهما وانصرفت عاد هو إلى البيت ميتاً.. وطافت بعقلـــه الـــتائه صــــور متتابعة ليوم وفاة أبيه ثم أمه ثم مقتل صديق له فى حـــادث، ثـــم هزيمة لحقت بوطنه ثم موت زعيم يحبه ثم موت فنانة كان يعشقها ثم موت فنان كان يعبده ثم صورة حديقة أزالوها وبنوا فوقها مبنى دمـــيماً ثـــم صورة قطة دهستها سيارة. قابلته زوجته بانزعاج ولكنه ابتسم فحـــزن قلـــبها أكثر لابتسامته. كانت ابتسامة خالية من أى إحساس من أى معنى كانت ابتسامة الموت.



(٣٥)
شجرة المحبة

عند نقطة معينة فى مواجهة الشمس مع الأرض، ترسل السماء أول شـــعاع لها إلى الأرض، وعند نقطة أخرى تسحب آخر شعاع، ولا يحتاج الإنســـان لأن يرى بل يكفيه أن يسمع شدو العصافير، وهى تسبح بحمد الله مرحبة بالشعاع الأول ومودعة للشعاع الأخير.

ومـــنذ أن خُلـــق الكـــون ووضع له نظامه، وهذه المواجهة تحدث وتخـــتلف آثارهـــا من بقعة أرض إلى أخرى. يهبط شعاع ويغادر شعاع. تستيقظ عصافير وتهجع أخرى ممتثلة لأوامر كونية تنظم حركة الحياة ولا تستطيع عصفورة واحدة أن تخرق هذا النظام. الملك لله وحده وبيده الأمر.

ولا يخـــتلف شـــدو العصـــافير فى الصباح عنه فى المساء. بنفس الحماســـة تزقزق صباحاً حامدة مستبشرة، وبنفس الحماسة تستقبل المساء حـــامدة، مستســـلمة. ثـــم تأوى إلى ما صنعته بنفسها من أوكار لتنام ملء الجفون.. ليس لديها هموم الرزق، فالرزق علىَ الله، ولم تنم عصفورة فى ليلة جائعة.

ولقـــد انقسمت القرية إلى قسمين غير متساويين بتفريعة من النهر. قســـم تسكنه أغلبية قبطية، وفى القسم الآخر كانت الأغلبية للمسلمين. ولم

يكن من وسيلة للانتقال من قسم إلى قسم إلا عبور كوبرى قديم قدم القرية ذاتها.. ولا توجد ملامح معينة لتستطيع أن تميز كل قسم منهما عن الآخر، إلا توسـط الكنيسـة لأحد القسمين، وتوسط الجامع للقسم الآخر. وبجانب الكنيسـة قامت شجرة ضخمة من المستحيل تحديد عمرها، وقامت شقيقتها الـتوءم بجوار الجامع، وكان الناس يجتمعون تحت كل منهما إذا هم انتهوا مـن صلاتهم، وذلك للتداول فى الأمور التى تخصهم كجماعة، ولذا أُعتبر مكـان كل شجرة مقراً للاجتماعات الرسمية. أما بعد صلاة العشاء وحتى صـلاة الفجر فهى منتدى للصحاب ونقطة لقاء للأصدقاء، لكن أيا منهما لم تصلح أبداً لمواعيد الغرام لافتضاح موقعيهما.

ومثلما كان الناس يجتمعون تحت الشجرتين، كانت العصافير تجتمع فوقهمـا كـنقطة تجمـع وانطلاق، ومكان للراحة ومسرح لأهازيج الفجر والغروب.

وكـان الأطفـال لا يقبلون على اللعب تحت الشجرة لأنها لم تكن تجـود بـثمار تؤكل، فضلاً عن افتضاح أمرهم إذا أرادوا اللعب فى غير الأوقـات المسموح بها.. إلا أن هذا الطفل القبطى اليافع كان يحلو له من وقـت إلى آخر المرور بشجرة الأقباط كما كانوا يسمونها والجلوس تحتها لـبعض الوقـت، متجهاً بوجهه ناحية الشطر الثانى للقرية، متابعاً لحركة المرور فوق الكوبري، ومتأملاً لشجرة المسلمين متمنياً أن يتاح له الجلوس بأمـان تحتها. فى عمره الصغير، كان ذلك حلماً من أحلامه، رغم التشابه المطبق بين الشجرتين.

وحين كبر قليلاً مقترباً من مراهقته، أدرك أن تحقيق الحلم ليس من المسـتحيل، لكن كيف الوسيلة؟ فكان أن صادق زميلا من نفس عمره من

المســـلمين. وواعـــده للقاء تحت شجرتهم المسلمة. اجتاحه شعور بالفرحة وهو جالس تحتها داهلاً عن أحاديث صديقه فى ملامسة الشجرة وتحسسها والاســتناد إليها. وأصبحت بعد ذلك هى نقطة اللقاء المفضلة مع صديقه. وساعدت الشجرة على تعميق صداقته بزميله المسلم مثلما ساعد هذا الزميل علـــى تعميق تعلقه بالشجرة، ذلك التعلق الذى لم يكن له تفسير وقتئذ.. إلا أن التفسير استطاع أن يجده بعد ذلك حين أحب فتاة مسلمة رآها لأول مرة تحــت الشجرة، وكأن حب الشجرة كان مقدمة لحب الفتاة، ولم يستطع بعد ذلــك أن يفصـــل بين الشجرة وبين الفتاة، وكأنهما شئ واحد رمزاً للحياة والجمال والحب.

واعــتاد المسلمون أن يروا الفتى القبطى جالساً تحت شجرتهم. لم يعد أمراً يثير الدهشة، إلا أن أحداً لم يستطع أن يعرف سر قلبه إلا صديقه الذى أطلعه اختياراً على قصة حبه.

وبعد أن أصبح الحب متبادلاً حين خرجا نهائياً من مرحلة المراهقة إلـــى الشباب المكتمل، لم تعد الشجرة تصلح كنقطة ارتكاز لمشاهدة الحبيبة تعبر أمامه إشباعاً للروح المتشوقة، فكان أن اتفقا على طريقة للقاء خارج حــدود القــرية. إلا أن الشجرة ظلت تحتل صدارة القلب غير منفصلة عن قصـــة الحب، فحبه للشجرة سابق على حبه لفتاته. حبه للشجرة كان بمثابة الإرهاصات التى تهيئ الإنسان للحدث العظيم، أو هو التهيؤ النفسى لامتداد الحــب مـــن كائـــن حـــى نباتى إلى كائن حى إنسانى. أو أن حبه للشجرة المسلمة هو الذى ملأ قلبه بالشجاعة لحب فتاة مسلمة...فالأمر كان محتاجاً لتهيئة وتمهيد وتدرج لكسر حاجز نفسى كان يمنع الارتباط العشقى بشيء مسلم.

وحيــن تيقن الصديق المسلم أن صديقه القبطى وفتاته مصران على الزواج، تمكنت الغيرة من قلبه، وظل حائراً مشتتاً تتنازعه مشاعر مختلطة متضــاربة لــم يســتطع أن يحــدد ماهيــتها ولم يستطع بالتالى أن يحدد مصــادرها.. أهى غيرته الشخصية لأن صديقه فاز بقلب الفتاة، أم غيرته على فتاة مسلمة أن ينالها فتى قبطى، أم رفضه لمبدأ الزواج بين اثنين من دينين مختلفين..

أم أن فــى الأعمــاق مشــاعر سلبية ناحية الأقباط، رغم الصداقة العمــيقة الــتى تربطه بالشاب القبطى.. بل هى كل هذه الأسباب مجتمعه وبدرجات مختلفة!!

فــى الــنهاية أجمــع أمره وأخبر أحد زملائه المسلمين، ولم يطلع صباح اليوم التالى إلا وعرف كل الناس بالخبر مسلمين وأقباطا معاً.. ولا يطلــع صباح آخر إلا والشاب القبطى ملقى على أحد الطرق وقد تكسرت معظــم عظامــه، ولا أحد يعرف على وجه التحديد هل الضارب قبطياً أم مسلماً أم أن الاثنين اتفقا معاً على ضربه؟

ولــم يطلع صباح ثالث إلا والفتى القبطى وأسرته قد هجرت بيتها، واختفت تماماً من القرية.

أما الفتاة المسلمة فقد كسروا نفسها وأذلوا روحها، وأصبحت حطاماً لا يصــلح لشــيء، وزوجوهــا على عجل برجل سكير يكبرها كثيراً فى العمــر، حلم بالزواج منها طويلاً، لكن رُفض ليس لكبر سنه، وإنما لسوء ســلوكه.. أنجبــت مــنه ابنة وابنا، ثم مات الرجل مخلفاً ثروة لا بأس بها للــزوجة الشابة ولطفليه القاصرين فى ولاية عمهما الذى طمع فى زوجة شقيقه فتزوجها قسرا ثم طلقها بعد وقت قصير، فعاشت وحيدة مع طفليها،

وأحسنت تنشئتهما.. ورغم مرور الأيام بمحنها إلا أنها لم تتوقف لحظة عن حبها للفتى القبطى ولم تتخلف يوماً عن زيارة شجرة العشق.

وظلــت تتســمع أخبار حبيبها إلى أن عرفت أنه هاجر كلية خارج البلاد، فتوقفت عن الأمل.

أما هو فقد علا شأنه وصيته خارج وطنه، إلا أنه فى وقت الضيق كان يلجأ بخياله وكثيراً فى أحلامه إلى ظل الشجرة المسلمة، يجلس تحتها ليستريح ويطالع من بعيد وجه حبيبته.. لم تمح أى من التفاصيل الدقيقة من ذاكــرته، ولــم يحــب أبداً غربته، رغم تميزه.. وكان أكثر ما يؤرقه تلك العداوة المستترة بين الأقباط والمسلمين فى المهجر، وكان يرى أنها عداوة مُصطنعة، وأن الحب والكراهية لا علاقة لهما بالدين، فهو قد أحب فتاة من غير دينه، حيث لا توجد موانع بيولوجية أو ثقافية تمنع مثل هذا الحب.

حــتى صديقه الذى وشى به فهو ظل يحبه حتى هذه اللحظة.. إذن التســامح يمكــن حتى فى ظل الاختلاف الدينى.. ورغم تخصصه العلمى الدقــيق، إلا أنــه انشــغل بقضــية الأديان ووصل إلى قناعة أن الأسوار مصــطنعة ووهمــية، وأن هناك من يحاول تكريسها ودعمها تلبية لنداءات ذاتية تعكس إما الانتهازية أو العجز.

تــزوج من البلد الذى هاجر إليه، ولم ينجب، وطلقته زوجته فعاش وحيداً إلا مع خياله وأحلامه مستعيداً ذكرياته.

وحين ضاقت نفسه، واتته شجاعة جعلته يُقرر أن يعود إلى الوطن فى زيارة.. ورغم انتزاع كل جذوره من قريته، إلا أنه قرر الزيارة يدفعه حنين كما يدفعه أمل مبهم غامض فى شئ ما يحدث كمعجزة قابلة للتحقيق على المستوى البشرى.

وذهب أول ما ذهب إلى شجرته فوجدها قد اجتثت واستغلت الأرض التي كانت تقع عليها في توسعات للجامع.. وكذلك فعلوا بشجرة الأقباط، واستغلت أرضها في توسعات للكنيسة.. وهاجرت العصافير التي اعتادت سكن هاتين الشجرتين إلى أشجار أخرى.

طرق بابها فأجابه أبوها الضرير الطاعن في السن ولم يتذكره، لكنه أرشده إلى بيتها الجديد.

استقبله ابنها ذو العشرين عاماً.. ورغم أنه كان قد سمع بقصة حب أمه لهذا الرجل، إلا أنه رحب به وقاده إلى حيث تجلس، وقد أقعدها مرض انتشر من صدرها إلى عمودها الفقري، ففقدت القدرة على الحركة. وبعد حوار قصير قال لها: أريد أن أتزوجك فوافقت.

وفي احتفال بسيط رفض الجميع حضوره إلا أمها وابنها بينما، امتنعت ابنتها خشية من زوجها وتم الزواج.

وأخذ الزوج في إعداد أوراقها الخاصة بسفرها معه إلى الخارج للعلاج.. ورغم إتمام الزواج إلا أنه لم يستطع الاقتراب منها لضعفها الشديد.. وسافرا.. ونسى أهل القرية قصتهما أو تناسوها حتى لا تصبح مثلاً لأى شئ جميل يتحول إلى أسطورة تتناقلها الأجيال. واستمرت حركة الليل والنهار كما هي.. وظلت العصافير تصحو وتنام مع ضوء الشمس ودوران الأرض، إلا أن العصافير لم تكن تعرف إلا لغة واحدة للتسبيح.

وانقطعت أخبارهما تماماً حتى عن الأهل.. ويقال إنها عولجت وعاشت واستمتعا لفترة غير قصيرة معاً.. ويقال في رواية مبالغ فيها إنه مات قبلها وعاشت هي من بعده لعدة سنوات أخرى. لكن العلم الحقيقي عند الله؟

(٣٦)

الأب

فى أول طريقى أخذت بيدى، وفى نهاية طريقك أنت أخذت قلبى.. وستنتظرنى فى الطريق إلى الجنة لتشهد أنى كنت ابناً باراً. وسأحاول أن أكون مثلك أباً صالحاً حتى يدعو لى ابنى مثلما أدعو لك.

وإنى لأحاول فى هذه اللحظة أن أستجمع صورتك وصوتك ولفتاتك، أحاول أن أستجمع أفكارك وانفعالاتك.. فرحك وحزنك وغضبك ورضاك.

أحاول أن أستجمع كل الخيوط التى ربطتنى بك وذلك لأننى أريدك أن تظل بجانبى رغم رحيلك، ومن أنا بدونك؟

أريد للجبل أن يظل قائماً، أريد للنهر أن يظل متدفقاً، أريد للشمس أن تظل مضيئة، بل أريد للحياة أن تظل الحياة وهل هناك حياة بدونك!!

ولكن لكل شئ نهاية فسبحانك ربى يا من خلقت البرعم لينمو ويستوى على ساقه لينفرد ويصير كائناً بذاته ويتلاشى الأصل الذى أخرجه من نسيجه وأمده بالحياة.. روح من روح، وحياة من حياة ومستقبل من حاضر، ويوم يولد ويوم ينتهى، فسبحان من له الدوام.

الحيوان:

يستطيع العلم الحديث أن يثبت أننى جئت منك أنت.. من ثنايا خلاياك.. من ذلك الحيوان الذى انطلق فى لحظة ما ليظفر هو من ضمن الملايين ليبدأ تخليقى.. لحظة بعينها.. وحيواناً بعينه.. ومنذ تلك اللحظة وقلبك وعقلك تعلقا بى أملاً وانتظاراً فهل فعلاً حققت أملك!!

كنت تريدنى الأعظم والأقوى والأذكى والأتقى. لم تكن تريدنى مثلك بل أفضل منك.. وحملتنى جينات تحمل بعضاً منك. وزدت عليها من خبرتك وحكمتك وحين اشتد عودى تركتنى لأختار وأقرر تحوطنى بقلقك المستتر وشغفك الذى لا يستبين وقلبك الذى لا يكف عن الدعاء لى.. ولقد أدركت أهمية دعائك لى حين كانت تنسد أمامى الطرق فأدعو الله مستشفعاً بدعائك ورضاك، فتتفتح الطرق ويسهل الصعب.

المتكأ:

منذ أن جئت وأنا أستند عليك.. فى البداية ملتحماً بك، ولكن حتى بعد أن أردت لى الإستقلال لم أستطع الاستغناء عن مسندى ومتكأى. ولذا هويت بعد رحيلك وفقدت توازنى. وحينها أدركت المعنى الحقيقى للأبوة.. ليست طعاماً وحناناً بل هى كل عناصر القوة لمواجهة الحياة.. يتسرب هذا المعنى إلى عقل ووجدان الطفل منذ أن يستشعر اليد القوية التى تحمله، ويلمح النظرة الجادة الحازمة الواثقة التى تحوطه، ويسمع الصوت ذا الترددات العالية الذى يجمع ما بين الرفق والتصميم، ثم يتأبط ذراعاً خشنة تأخذه إلى المعترك ليرى الخطوط التى تكون شبكة العلاقات الإنسانية فى مجتمع تعقدت مساراته لاختلاف وتنوع البشر.. اصطدام ووقوع ثم وقوف

ثـم اصطدام ووقوع ثم وقوف.. خبرة وتعلم ثم خبرة وتعلم.. ولا معلم إلا هو. أو لا راعى للعملية التعليمية إلا هو.. فيتشجع القلب وتزداد العضلات صـلابة ويزداد العقل فهماً وإدراكاً. وبذا أستطيع أن أدخل الحلبة لأصارع وأستبق.. شكراً يا أبى لقد علمتنى وأوصلتنى إلى أول طريق الحكمة.. ولم أكـن أدرى أن كـل ذلـك يزرع الطمأنينة فى قلبى. وكان رصيدى أنك موجـود.. مجـرد أنك موجود وسأجدك حتى أحتاج إليك. إنهامجرد حالة نفسـية.. وحـتى بعـد ان أصـابك المرض وضعفت ووهنت كنت أشعر بالطمأنينة لمجرد وجودك على ظهر الدنيا..

كنـت عاجـزاً ولا تستطيع أن تقدم شيئاً ولكننى كنت مطمئناً وأنك تسـتطيع أن تسـندنى.. وهذا جعلنى أدرك أن القوة ليست عضلات، وأن الشجاعة ليست زئيراً وأن الأب ليس مجرد حارس مدجج بالسلاح.. القوة هى عقل حكيم، والشجاعة هى الجرأة فى الحق، والأب هو مصدر الصدق والحقـيقة.. ذلك هو المتكأ الحقيقى وتلك هى أسس التوازن والثبات، ولذا اهتز كل شئ يا أبى برحيلك ولم أستعد التوازن إلا بعد عام كامل وإن ظل الحزن مخيماً.

الحـزن:

كـان ذلك يوم أن ماتت شقيقتى. أسندت جبهتك إلى يدك وأطرقت وأخـذت تـبكى. سـمعت صـوت بكائك فانهرت لأننى لم أكن أريد أن أراك ضـعيفاً مهمـا عظـم السبب. إلا أننى أدركت بعد ذلك أن هذا ليس ضعفاً بل هو أقصى درجات الحزن. ولا يحزن أب فى هذه الدنيا إلا على فقـد أحـد أبنائه. يتحمل الأب كل مواقف الحياة الصعبة إلا فقد فلذة الكبد وهنا ينكسر ظهره.

والأب إذا اضــطرب لأى شئ آخر فإنه يخفى ذلك بل ينتصر عليه لأن دوره أن يمد الآخرين بالقوة والصبر والجلد.

واســتمر حــزنه على ابنته حتى آخر يوم فى حياته فالحزن على الضنا يدوم.

الزهــو:

لم أره يحلق إلا يوم مناقشتى لرسالة الدكتوراه.. كان وكأنما امتلك الدنــيا بل هو ملك الملوك.. وهذا معناه أن زهو الأب بإنجازات ابنه يفوق زهوه بإنجازاته الشخصية. بل لا مقارنة. وكأن لسان حاله كان يقول: اليوم حققت المعنى الحقيقى لوجودى فى هذه الحياة وما أريد شيئاً بعد ذلك. اليومَ شبعت وامتلأت وسأنعم بنوم لذيذ. اليوم لا أحمل فى قلبى ألماً أو غضباً أو عــداوة لأى إنسان.. أنا أحب كل الناس.. اليوم أتقبل برضا أى قضاء من الله حــتى ولــو كــان فقد بصرى.. كل شئ يهون لأن الله كلل سعى ابنى بالنجاح.

ما الحكمة فى ذلك؟

الإجابــة: إنــه التوحد والامتداد. إنها الخلية التى جاءت من خلية.. التماثل والانطباق.. وهذا معناه أن لا فناء بل استمرارية إلى أبد الآبدين.. الشــجرة قائمة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء تطرح وتطرح وتطرح.

الغضب:

كــان غضــبه شديداً يوم أن كذبت.. وكأنما أراد ان يكوى لسانى بخصــامه لى وحين تيقن أننى ندمت أشد الندم وتبت صفا قلبه ولاح البشر

علـــى وجهـــه مصدقاً لوعدى بعدم العودة. وظل وجهه بعد ذلك يطل على وأنا أهم بقول غير حقيقى فتظهر عليه قسمات الغضب الذى يبدو فى قسوة التعبـــير وشـــذر الـــنظرات. كراً يا أبى. إن شجرة القيم التى زرعتها فى وجدانى مازالت مورقة تطرح ثمار الخير.

الفرحة:

يـــوم أن جـــاء حفيده الأول إلى الدنيا. فى هذا اليوم شعرت وكأنما أحلـــت إلى التقاعد. لقد احتل كرسى العرش شخص آخر هو ابنى. لم يعد أبـــى يهتم بوجودى قدر اهتمامه بوجود حفيده بين يديه.. وحين كان يرفعه إلـــى أعلى مداعباً كنت ألمح أقصى درجات الفرح فى عينيه.. صلب من صلبي.. خلية من خليتى.

وتخلـــى أبـــى عن دور المعلم لحفيده فقد استغرقه الحنان الذى كان يكفى لافتراش الأرض والسماء معاً.

التطور:

حال الدنيا يا أبى غير حال الدنيا التى عشت أنت فيها.. الدنيا غير الدنـــيا.. والناس غير الناس. ولعلك عشت بعض إرهاصات هذه الأيام فى آخر أيام حياتك.. إن التطور سريعاً ومرهق ولا نستطيع ملاحقته. الإنسان يســـابق نفســـه ويـــتحدى نفسه، وكأنه يتوعد ويصارع نفسه. إنه يلهث.. يلهـــث.. يلهث.. جوع غير محدود للعلم.. وتتردد كلمة تكنولوجيا بكثرة.. ومـــثلما اســـتخدموا العلم فى وقتك لقتل آلاف البشر فى لحظة واحدة فإنهم يحاولون استخدامه اليوم لتشويه عملية الخلق الطبيعية.. ولكن حفيدك يرى أن هناك جوانب إيجابية أخرى كثيرة لخير الإنسان.

وتـــردد كثـــيراً يا أبى كلمة العولمة وغزو الثقافات وإلغاء الحدود ومـــوت الضـــعفاء والفقراء والأغبياء وسيطرة واستبداد الأقوياء والأغنياء والأذكـــياء.. ولا بقـــاء إلا للأقوى. ولذا فالناس حيارى ومكتئبون. الناس يعانون الجفاف فيما بينهم، وفى أيامك كان القتل له دوافع وأسباب أما القتل فى أيامنا فبلا هدف.

الأطفـــال فـــى أيامـــنا يمسكون البنادق ويقتلون والابن يقتل أمه أو عمته.

والفـــن يـــا أبى غير الفن.. وليس هذا تطوراً ولكنه تشويهاً.. إننى مازلـــت أحـــن إلـــى مـــا كنا نسمعه ونشاهده معاً.. مازلت أذكر رحلاتنا، وجولاتنا ونزهاتنا.. إن العالم يختنق يا أبى بالازدحام والعداوة.

الشرف:

اسمح لى يا أبى بأن أمتدحك على الملأ وأن أمتدح كل الآباء الذين كانوا مثلك.

لقـــد كنت شريفاً يا أبى. لم يدخل قرش حرام بيتنا.. نمت أجسادنا جمـــيعاً من حلال.. لقد تعبت من أجلنا بإمكاناتك القليلة ولكننا كنا سعداء. السعادة لا تأتى إلا من مال حلال. المال الحرام لا يجلب إلا الشقاء. شكراً يـــا أبـــى أن جعلتنى مرفوع الرأس. وإن كان من سبب واحد يدخلك الجنة فهـــو أنـــك عشت ومت شريفاً. رحمك الله يا عظيم، ورحم كل أب عظيم أنجب ابناً صالحاً يدعو له.

(٣٧)
امرأة صادقة حتى الموت

عـــادت من عند المأذون وقلبها قد اختفى من موضعه. تحسسته فلم تجده. اعتصره ألم الفقد فلم يقو على التحمل فتبعثرت أشلاؤه فى كل اتجاه فطــناً موت صاحبته. فطلاقها من زوجها هو الموت بعينه. أى حياة بعد الحــياة التى كانت تحياها. وحين ترتكز الحياة على مفاهيم خالدة ثم يثبت خطـــأ هـــذه المفاهـــيم وزيفها فتنهار الحياة، يكون من المستحيل حينئذ أن تخــرج حـــياة جديدة من بين الأنقاض.. لا يمكن لمفاهيم مختلفة أن تنبثق لتكون محور الارتكاز لحياه أخرى.

يحيا الإنسان حياة واحدة. تتطور الحياة ولكن لا تتغير من النقيض إلـــى النقيض. والتطور معناه اكتشافات جديدة تضيف إلى رصيدنا المادى والمعنوى. نعرف أكثر ونفهم أعمق. ولكن لا يمكن لمفاهيم أساسية ومعانى خـــالدة أن تتـــبدل. فحـــياتى مع هذا الرجل كانت تقوم على الصدق. وهو مفهوم أساسى لأى حياة حقيقية. وهو المفهوم الأول الذى قام عليه الوجود. المفهـــوم الأول الذى يقوم عليه علاقة الإنسان بربه. فلقد صدق الله وعده. وهو المفهوم الأزلى الذى تقوم عليه الحركة فى الكون. وهو المفهوم الخالد الذى يحكم علاقة إنسان بإنسان. ولا يمكن لزواج أن يقوم إلا على الصدق.

هكــذا بــدأت حياتى مع هذا الرجل الذى تزوجته. أحببته لصدقه. والحــب يبــنى على الفضائل. بل هو كل الفضائل مجتمعه.. ولكن القاعدة الأساســية هــى الصدق. ويبنى على الصدق الأمانة والشرف والإخلاص والوفــاء.. إلى آخر قائمة تشمل على كل فضائل وقيم الحياة السامية. وإذا نقص ما حجمه ذره واحده من الصدق حدث خلل فى التوازن.

أحببــته وتزوجته لأنه كان رائعاً. كان هو نفسه. كان على سجيته. تطــابق كامل بين داخله وخارجه. قلبه يسبق لسانه. وعقله يسبق قلبه. لا ينطق عن هوى. لسانه نظيف من كل معنى محور. ومن كل كلمة ملتوية. ومن كل معلومة مغلوطة. ومن كل حقيقة مزوره. ومن كل قول زائف.

كان زوجى هو الصدق يمشى على قدمين فيشيع الطمأنينة والأمان. أنــام مســترخية واستيقظ مطمئنة وأسعى راضية فرحه. كنت أستطيع أن أمشــى ممســكة بــيده وأنا مغمضة العينين.. وأجزل الله لنا العطاء. مالاً وأطفالاً وراحة البال.

وزارنــا الموت زيارة معتادة وفى موعدها وأخذ معه حماى. وكان زوجى هو ابنه الوحيد. وتولى من بعده العمل كله بعد أن كان شريكاً له.. وانشــغل زوجى إلى الحد الذى حرمنا من متع بسيطة كانت تدخل البهجة علــى قلوبــنا. لم نعد نراه على الغذاء. ولم نعد نأتنس به فى عطلة نهاية الأســبوع. وانكمشت رحلة الصيف. ولكن أصبح لدينا مالاً كثيراً وسعادة أقل. سعادة أن نكون معاً وقتاً أطول. كان أكثر ما يسعدنا فى هذه الحياة أن نكــون معــاً. ولكن بالرغم من ابتعاده بجسده ظلت أرواحنا متلاصقة. ولم تــتزحزح الطمأنيــنة قــيد أنملــة عن موضعها فكنت أنام بسهولة وعمق وأصحو متفائلة نشطة وأتحمل مسؤلياتى بحماس.

وشـــدة طمأنينـــتى جعلتـــنى لا أبذل أى جهد فى تفسير أى ظواهر جديـــدة طـــرأت على حياتنا لأنه من الطبيعى فى ظل الظروف الجديدة أن يحدث تغيير فى شكل الحياة. أى مع تحمل زوجى أعباء جديدة ومسؤليات أكثر.

وتمثلـــت هذه الظواهر الجديدة فى صورة غيابه ساعات أطول عن البيـــت. وتعدد رحلاته خارج البلاد وانصرافه عن شئون حياتنا الصغيرة الـــتى اعـــتاد الاهتمام بها. وهذه كلها أمور متوقعة لرجل شديد الانشغال. ولكنى تأثرت قليلاً حين انصرف أيضاً عن عاداته الودوده كأن يقبلنى حين خروجه من البيت وحين عودته، وأن يحتضنني قبل أن ينام. وأن يحكى لى بعـــض همـــوم عمله وقت خلوتنا الحميمة التى كانت تتكرر أكثر من مرة أسبوعياً ثم تناقصت تدريجياً إلى مره واحده كل شهر.

أســـتطيع أن أقـــول أنه بعد مرور عامين افتقدته. أصابنى العطش لأشياء كثيرة كنت قد اعتدت عليها. باختصار لم يعد زوجى قريباً منى.

قـــررت أن أكـــون إيجابـــية. ولـــم ألجأ إلى الأسلوب المعتاد وهو معاتبـــته. وإنمـــا حاولـــت أن أهيـــئ الظروف الملائمة للاقتراب. ولكنى وجـــدت مـــنه إعراضاً رقيقاً.. وهنا أدركت أن تغييراً أعمق قد طرأ على حياتنا.

وكانـــت هذه هى أول مرة يساورنى قلق حقيقى. فأنا لا أقلق على التغيير الكمى فى المظاهر ولكنى أقلق على التغيير النوعى على المستوى الأعمـــق. أى التغيـــير الذى يطرأ على الرغبة والمشاعر. هكذا انزعجت حيـــن شعرت أننى أضم جسداً بارداً إلى صدرى. لم تكن فقط أطرافه هى الباردة ولكن قلبه كان أشد برودة.

هــنا فقــط تيقظت عندى الحاسة الخفية لدى كل امرأة. وتبادر إلى ذهــنى سؤال جاء بغتة ولكنه لم يبرح عقلى من بعدها: هل يعرف زوجى امرأة أخرى؟

ولم أكن بحاجة إلى بذل مجهود كبير للوصول إلى الحقيقة.

نعم إن زوجى يعرف امرأة أخرى.

وتوقفت عن البحث لمعرفة تفاصيل أدق.

يستوى عندى أنها علاقة عابرة أم مستقرة ومستمرة.

يستوى عندى أنها نزوة أم حب.

يستوى عندى أنها خليلة أم زوجة.

المشــكلة عندى ليست أن هناك امرأة أخرى فى حياة زوجى. إنما المشــكلة أن مــبدأ أساسياً قد إنهار. أن قيمة عليا قد اندحرت. أن مفهوماً خــالداً قــد تحطم. أن محور الارتكاز الأصلب لحياتي وحياة كل البشر قد تزحــزح عــن موضــعه. إنه الصدق الذى مات. لقد حل الزيف والغش والخداع والكذب وعدم الأمانة محل الصدق.

لقد أحببت هذا الرجل لأنه صادق. وتزوجته على الصدق. وعشت معــه بالصدق. هذه هى نوعيته وهذه هى نوعية الحياة التى عشتها معه.. وهــذه هى نوعيتى التى فطرت عليها والتى لا يستقيم لى وجود تحت أى ظل غير صادق.

لم تحطمنى الغيرة. بل حطمنى إنهيار المبدأ. بل أكاد أقول أننى لم أغــر غيرة أى امرأة فى مثل هذه الأحوال. لم تكن القضية أنه فضل امرأة أخــرى أو أنــه يستمتع مع امرأة أخرى أو أن امرأة أخرى تحاول خطفه

مــنى. المسألة غير ذلك على الإطلاق. ولا أدرى هل يستطيع أحد أن يفهم ذلك!! أن يفهمني!!

ربمـــا كان الأمر سيختلف لو جاء لى وقال إنه يعرف امرأة أخرى لأســباب يســردها لى بصدق. كنت سأقول وقتها أن هذا سلوك يتسق مع تكويــنه الصادق. كنت سأنعى وقتها نفسى لفقدى لمشاعر زوجى أما الآن فأنـــا أنعى الصدق وأنعى الرجل نفسه الذى أصبح شخصاً آخر غير الذى كنت اعرفه.

وطلبت الطلاق لأنه انتهى كل مبرر للاستمرار فى حياتى معه.

وجــرت محاولات للصلح.. ولكنى وجدت أننى أتصالح مع شخص آخرْ. شخص أقابله لأول مرة. أما زوجى فقد مات.

وأنـــا مــت أيضــاً. لأن الحياة قد انتهت. أو هذه حياة أخرى غير حياتـــي. الحياة التى أعرفها هى حياة الصدق. أو هى حياة لا تقوم إلا على الصدق. وأساسيات حياة المؤمن بالله هى الصدق. فنقول صدق الله العظيم. ونقــول صـــدق رســول الله. ونقــول صدق من أحببناه. ولولا صدقه لما أحببناه.

وحصلت على الطلاق لإصرارى حتى الموت. وكنت بذلك صادقة مع نفسى حتى وأنا أموت.

(٣٨)
العاطفة هى عين العقل

أيــن الحقيقة فى عواطف الإنسان؟ أين الميزان وأين المجهر؟ وأين لى بالخبير الذى يفحص ويقرر؟ هل من خبير حقاً فى العواطف مثل خبير الذهب الذى يقرر من لمحة حقيقية مكوناته!! وبأى عين نرى عواطفنا؟ هل هى عين العقل؟ وما شأن العقل بالقلب؟ أليس فى مفهومنا نحن البشر وفى لغتــنا اليومية أنهما متعارضان دائماً بل العقل فى حالة إدانة دائمة لأحوال القلب وأهوائه إلى حد انعدام الثقة بينهما؟

ولأى مســافة زمنــية نستطيع أن نتيقن فى استمرار عواطفنا على حالها؟ آه من تقلب العواطف وانقلابها من النقيض إلى النقيض.

آه مــن حماسة تفور إلى السماء ثم تهبط فلا تتجاوز حتى قدميك.. وآه مــن دفء يشــيع فــى جسدك وتطمئن أن خلاياك قد اختزنته فإذا به يغادرك دون إنذار ملقياً إياك بين أنياب الشتاء لتنغرز فى لحمك.

فلماذا نصدق عواطفنا بشكل مطلق؟ لماذا نمضى وراءها مغمضى العــيون؟ وما لهذه القوى الجبرية تجرنا وراءها مستسلمين مسلمين؟ لماذا يختفى العقل فى لحظات معينة معترفاً بسلطان العواطف التى لا تقهر بينما نحن فى أشد الحاجة إلى أن يفحص لنا الأمر بعناية ويهدينا بنوره وحكمته

إلـــى الطريق الأصوب مجنباً إياناً صدمة الحقيقة حين نكتشف أن عواطفنا قد ضللتنا وأخذتنا إلى حافة الهاوية فسقطنا أو كدنا؟

ولا يـــتعلم الإنســـان أبداً من أخطائه إذا كان أسلم الزمام لعواطفه تهـــدى خطواته وتحركه مثل ريشة فى الهواء يحملها فى كل اتجاه كما لا يســـتطيع الإنسان أبداً أن يدين عواطفه بالزيف فهى جزء منه، بعض من ذاتــــه، هى استحساناته واستساغاته، هى اللون والطعم والرائحة والملمس التى تسبغ على الأشياء ماهيتها فنميل وننفر، ونحب ونكره، ونقبل وندبر، ونصافح أو ندفع، ونضحك أو نبكى.. هى رباطنا وحزامنا يربطنا ويحملنا ويشـــدنا فنمســـك بالحـــياة، نمسك باللحظة، فلا نشعر بالوحدة والانفصال والاســـتغراب والاندهاش، بل نلمس الواقع. العواطف تقتل الغربة وتجعلك شديد الصلة بنفسك وبكل ما حولك من أشياء وبشر.

العواطـــف هى الغلاف الجوى وهى الجاذبية الأرضية بل هى كل الجاذبية الموجودة فى الكون منذ أن أوجدت الموجودات لتظل فى حركتها ولـــتظل على مسافات ثابتة من بعضها البعض ولتظل مشدودة إلى بعضها الـــبعض بيـــنها علاقة وبينها تفاهم وبينها اتصال ما: هكذا علاقة الأرض بالشمس وعلاقة الشمس بالقمر وعلاقة القمر بالأرض إلى آخر سلسلة من العلاقـــات اللانهائية التى تحكم حركة الكون. وذلك لأن العواطف ببساطة لغوية غير شعرية هى الميل.. ميل شئ إلى آخر.. ولولاها لما اتجه إنسان نحـــو إنسان. لولاها لولى كل إنسان ظهره للآخر ولما عرف أحد ما وجه الآخـــر. لولاها لما انزرعت فينا عيون لنرى بعضنا البعض ونعشق جمال الشكل. لولاها لما انغرست خلايا حسية على سطح جلودنا لنتلامس ونتبادل القـــبل فنشعر بلذة فائقة، ولولاها لما بثت خلايا تذوقية على ألسنتنا وخلايا

شميه فى أنوفنا، لنلعق ونمعن الشم وتلك لذات أخرى. ولولاها لما انتعشت الأذن بالصوت الرخيم والنغم الطروب الذى تهتز له الأجسام.

هـذه هى العواطف وإن ضلت. هذه هى العواطف وأن كان ثلاثة أرباعهـا زائفاً ولكن يظل لدينا ربع حقيقى يمنحنا السعادة حتى ولو كانت مؤقـتة.. وهـل كانـت السعادة أبداً دائمة؟ وإذا كانت دائمة فكيف تكون سعادة؟ ومن يدعى الدوام لشيء إلا الله..؟

ولهـذا لا نسـتطيع أن نلوم امرأة ورجلاً، قرر كل منهما أن يطلق زوجه ليتزوجا.

صـحا الحـب القديم إذ كانا قد التقيا منذ عشرين عاماً. قصة حب شـديدة الـرقة والعذوبة مجسدة رومانسية يطغى فيها الخيال على الحقيقة شـأن أى رومانسـية.. إعجـاب بـل انبهار، ولقاءات وحواديت وحدائق وأغنـيات وقـبلات وملامسـات جنسـية سطحية، كم هائل من الأحداث اسـتحالت إلى ذكريات ذات طعم جميل استمرت على مدى عامين.. كانت مخلصـة وكـان جاداً وقررا أن يتزوجا، صخرة الواقع التى تحطم عليها الحلم كانت إمكاناته المادية المحدودة التى لا تتيح على الإطلاق حتى الحد الأدنـى مـن حياة كريمة بالمعنى المادى. حمل حقائبه وشحن ألمه وكظم حـزنه وفر إلى بلد قريب يعمل ويجمع المال. وكانت الحياة شاقة فى ذلك المكـان لا لصـعوبة العمـل ولكن لقسوة المناخ وقسوة القلوب.. وأصبح كالـثور الـذى لا يرى إلا أمامه فقط وهو يجر الساقية. سقطت منه أشياء كثيرة حلوة من ضمنها صورة حبيبته.

أما هى حيث ظلت مكانها مرضت ثم حاولت الانتحار ثم أحاط بها الحكماء يؤكدون على زيف العواطف وخداعها ويثبتون دور العقل وأهميته

فــى اختــيار شــريك الحــياة.. ولجمالها لم تبق طويلاً على قيد العزوبية وجاءهــا مــن يخطبها وقد توافرت فيه الشروط التى يقرها العقل كأساس للحياة الزوجية.

ومضـــت سنوات وسنوات وجاء صبيان وبنات لكل منهما، وبالكاد كان يتذكر أحدهما الآخر لثوان عند سماع أغنيات معينة. وربما فى أحيان ضحك كل منهما من نفسه وتعجب كيف كان يظن أن الحياة مستحيلة بدون الآخر. ها هى الحياة قد استمرت وأثمرت.

انتقلت هى مع زوجها إلى بلد قريب لجمع مزيد من المال، ثم انتقلا إلى بلد آخر لتشاء الظروف أو لتشاء المقادير المحتومة أن يكون هو نفس الــبلد الــذى يعمــل فيه الحبيب السابق. وانصياعاً للحتمية القدرية يلتقيان والغــربة تشــجع على الصداقات بين الأسر التى جاءت من مكان واحد. وتــزاوروا عشــرات المــرات بل وأكثر من المعتاد أى أكثر مما تسمح به ظروف الحياة وكان ذلك بسبب دوافع لا شعورية لدى العاشقين السابقين إذ كــان كل منهما دون اتفاق بينهما يشجع أسرته على مزيد من التقارب مع الأسر؛ الأخرى.

ويســتطيع أى متتبع للأمر أن يتوقع الصحوة.. صحوة الحب القديم وقــد يكــون لــتلك الصحوة مبررات ليست لها علاقة بذات الحب القديم، فالحــب القديــم كــان هو المبرر المعلن لإقامة علاقة جديدة أو لاستئناف العلاقــة القديمة نتيجة للضجر والاختناق اللذين يشعر بها كل من يعمل أو يعــيش فى هذه البلاد، أو للملل الطبيعى الذى يعانيه كل منهما بسبب حياة زوجــية روتينــية شأن أى حياة زوجية. أو لأن المناخ العام فى هذا البلد يشــجع علــى الــزنا والخيانات الزوجية أو حتى العلاقات العاطفية عبر

التلـيفون وعـن طـريق مقابلات لإشباع حب الاستطلاع وحب المغامرة ورغبة فى الإثارة التى تقتل الرتابة وتفك حصار المحافظة الشديدة.

هكـذا عـادا لاسـتئناف علاقتهما التى ودعاها منذ عشرين عاماً وبالطبع كان المبرر الذى استحضراه فى العقل الواعى هو أن حبهما القديم لم يمت وأن العشرين عاماً الماضية أثبتت أن الحياة لا تكون إلا مع الآخر، عـادا كما كانا فى العشرين من عمريهما، وكأنما. أرادا إلغاء عشرين سنة كاملـة تقدمها العمر وكأنهما أرادا أن يهربا من فكرة أنهما كبرا ولم يعودا صـالحين للغرام. أغرقتهما الرومانسية فطفقا يتبادلان الخطابات والورود والأغنيات والأحاديث التليفونية واستبدت بهما الرغبات فنجحا فى استراق الوقـت للقـاء ولأنهما كانا قد نضجا فإن العلاقات الجنسية السطحية التى كانت منذ عشرين عاماً استحالت إلى علاقات أعمق.

وصـلا إلى نقطة اللاعودة. استحالة أن ينفصلا مرة ثانية. والحق يقال ان كلا منهما بذل جهداً فى التفكير الموضوعى، وأن كلاً منهما حاول أن يسـلم القـيادة للعقل دون العاطفة ليحكم ويقرر.. وجاء التقرير النهائى مطابقاً من كل منهما: لابد أن يتزوجا.

ولكى يتزوجا كان لابد من طلب الطلاق. وحصلا عليه.

وفـى ليلة الزفاف حلقا فى السماء بعد أن أصـرت على فرح كبير ورقصـت مثلما يرقص شباب هذه الأيام وطارت إلى منطقة جميلة لتنهل معه من العسل. ومضى شهر وعادا.

وربما يتصور المتابع لهذه الحكاية أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد وأن الـذروة الدرامـية كانت عند طلب الطلاق وصدمة الطرفين الآخرين وغضب الأبناء ورفض الأهل واستنكار الأصدقاء وإصرار العاشقين.

ولكــن الحقــيقة أن الذورة لم تأت بعد.. ولقد تأخرت شهراً واحداً بــنهاية شهر العسل وعودتهما إلى الوطن إذ كان من المستحيل أن يستمرا حيث كانا فى البلد القريب.

وكان كل شئ قد اختلف. حقيقة كانا يزوران الوطن فى إجازة مرة كــل عام إلا أن الحياة المستمرة أمر مختلف. الحياة المستمرة على أرض الوطــن تكتنفها صعوبات مختلفة. المعاناة خارج الوطن معاناة نفسية، أما داخل الوطن فهى معاناة مادية.

وأشــياء أخرى اختلفت عليهما وقت النوم ووقت الصحيان. التقلب علــى الفراش فى أثناء النوم رائحة العرق درجة ارتفاع الصوت فى أثناء الحديــث، المنطق الذى يحكم المناقشات فى بعض المواضيع، الزوايا التى يقــف عــندها كــل طرف فى أثناء رؤيته لأمر ما، طريقة الأكل، أسلوب الإنفــاق، مفهــوم الادخار، دور الزوج فى تأمين مستقبل زوجته المادى، تحويــل بعــض الأمــلاك باســمها، تنظــيم أسلوب الاتصال والتواصل مــع الأبــناء، الأغنــيات الجديدة التى ابتعدت فى شكلها ومضمونها عن قديمهمــا الذى ارتبطا به.. إلا أن كل ذلك مفهوم ولا يستعصى على فطنة أى متابع.

ولكــن الهزة الحقيقية التى أصابت كلا منهما أن كل شخص بدا فى عيــن الآخــر مختلفاً. ليس هو الشخص الذى عرفه منذ عشرين عاماً، إنه شــخص جديد تماماً.. ماذا أحدثت السنون فى الشخصية؟ وكيف غير البلد القريــب مــن مفاهــيم الإنسان ورؤيته للحياة؟ ثم ما الارتباطات الشرطية الجديدة التى تكونت وبعضها بالقطع مثير للذة والبعض الآخر مثير للألم أو الخوف أو حتى التقزز وحين تكونت هذه الارتباطات لم يكونا معاً.

وســرعان ما شعر كل منهما بالاغتراب.. بالانفصال.. بالتباعد.. بــالهوة.. لطمهــا.. اهانــته.. كادا يقتلان بعضهما البعض.. طردها من البيت.. شكته للشرطة.. ولتقليل حجم شماتة الناس اتفقا على الطلاق وعاد كل منهما أدراجه ولكن أين هذه الأدراج؟ أى بيت؟ أى ناس؟ وأى بلد؟

وعــند هــذه المــرحلة لا أتوقع أن أحداً يستطيع أن يتوقع الفصل الأخــير.. وآخر التوقعات استبعاداً أن تعود هذه المرأة المطلقة مرتين إلى زوجها وأن يعود هذا الرجل المطلق مرتين إلى زوجته.

ولكن هذا هو ما حدث فعلاً ولا تشغل نفسك كثيراً بالدوافع النفسية التى تجعل رجلاً خانته زوجته مع صديق الأسرة أن يعود إليها مرة أخرى ولا تشــغل نفسك بالدوافع النفسية التى تجعل امرأة ترضى أن تعود لزوج خانها مع صديقتها.

ربمــا هى الغربة والوحشة ربما هو الضياع ربما من أجل مصلحة الأبــناء.. ربما للشماتة والإحساس بالانتصار ربما لإذلال الطرف الآخر، ربمــا.. وربما.. وربما عشرات الاحتمالات ولكن هذه هى النفس البشرية بتعقــيداتها.. بــل هــذه هى العواطف الإنسانية التى تلعب بنا لعب الرياح العاتية بريشة ضعيفة تسبح فى الفضاء.

(٣٩)

البنت من بحري

إذا وقفت محاذياً لتمثال الزعيم وملاصقاً له، أو حتى فى دائرة ظلـه، فإنك تكون قد توسطت تماماً الميدان الشهير.. وبذلك يكون البحر على يمينك والمدينة على شمالك.. وإذا قررت أن تمضى إلى الأمام موازياً البحر، فإنك سوف تخترق الحى القديم لأقدم المدن. وأول ما سيقتحمك تلك الرائحة الشهيرة للمدن الساحلية. وإذا كان يستهويك النفاذ إلى أعماق الزمن، فما عليك إلا أن تغوص فى إحدى الحوارى المتفرغة مباشرة من الشارع الكبير، سيفاجئك وجه مختلف للمدينة، إلا أنه الوجه الأصيل الذى لا تملك إلا أن تحبه، بل تعشقه، لما يحمله فى طياته من أسرار تكشف عن العناصر الأولى التى يتكون منها البناء النفسى لأبناء الوطن، وأنت واحد منهم.

وفى أول هذه الحارة تحت أحد البيوت المتماسكة رغم قدمها يوجد دكان يحتله نجار متميز.. ورغم عمره الذى اقترب من الستين، فإنه كان مستقيم الظهر، حاد النظرات، مفرود الوجه، كثيف الشعر والحاجبين والشارب.. معتزاً بكرامته رغم قلة عمله، يعمل بدون مساعد، دقيقاً فى صنعته، فناناً فى إحساسه، له مزاج خاص فى شرب الشاى والتدخين وسماع أغانى عصره التى أبدعها بلدياته فنان الشعب.

يــنام بعــد صلاة العشاء ويستيقظ عند الفجر، يقضى حاجيات بيته مجنــباً زوجته الحبيبة زنقة الأسواق، ثم يبدأ عمله فى التاسعة وينتهى منه فى الخامسة.

وفى يوم راحته يصطحب زوجته إلى البحر صيف - شتاء، عشق فى حياته ثلاثة: زوجته والبحر وعمله، وأخلص لهم بنفس القدر.

أعطـــاه الله الصـــحة والزوجة الصالحة وراحة البال.. وحرمه من شيئين المال والبنون..

اســـتعاض بالستر عن المال ورضى بالقليل، لكن حنينه إلى الذرية كامــناً فى أعماقه دون أن يؤثر ذلك على حبه لزوجته التى لا مثيل لها فى إخلاصها وطاعتها وقربها من الله.

وأنزل به القدر ضربته الأولى.. مرضت الحبيبة.. شكت برأسها.. وكثيراً ما كانت تشكو من رأسها.. إلا أن الألم هذه المرة كان مختلفاً.. إنه ألم غريب عميق غامض، وأى غموض هو دليل خطورة.. وماتت فى أثناء جراحة لإزالة ورم فى المخ.. هده الحزن وحط بقدراته وامتص حيويته.. وفشلت محاولاته الذاتية لانتشال نفسه.. جرب المقهى ومجالسة الأصدقاء، لكــنه كان يعود أكثر إحباطاً.. لم يطرأ على خاطره ولو لحظة فكرة رفيقة أخــرى.. إلا أن شــيخه الذى اعتاد أن يصلى خلفه كل فجر همس بها فى أذنـــه، حين تكرر غيابه عن الصلاة معتذراً بانحطاط قواه.. لن تعود إليك حيويـــتك إلا بالزواج.. هكذا أوعز إليه شيخه.. وظل يكررها دون أن يجد اســـتجابة منه.. وفى صباح أول عيد بعد رحيلها وبعد الانتهاء من الصلاة دعـــاه الشـــيخ إلى إفطار فى بيته لإنقاذه من طوفان ذكريات لا يستدعيها إلا عيد.

وفـــى بيت الشيخ رأى شقيقته التى مات عنها زوجها حديثاً، وهى دون الأربعين، وليس لديها ولد. ولأن كل شئ كان مرتباً، فقد دفع دفعاً إلى الزواج منها.

لم يستطع.. لم يستطع فى كل شئ.. وبحسها الأنثوى الذكى أدركت أن زوجته الأولى مازالت قابعة داخل خلاياه، وأن استئصالها سيحتاج وقتاً وجهـــداً.. وأن الوسيلة الوحيدة لاحتلال مكانها أن تكون مختلفة وجديدة.. وأى بنـــت من بحرى تمتلك موهبة الاستئثار بالرجل.. تخضع له وتسليه. فجعلـــته شـــهريار، وحكت له كل ليلة حكاية ينام عليها، ويستيقظ متشوقاً لقـــدوم الليل لاستكمال الحكاية.. ومع الحكاية تطعمه الحب وتسقيه الهناء.. فاستسلم لها، وقدر – أى استطاع – وما هى إلا أشهر قليلة ومرات أقل من عدد الأشهر، وأخبرته بأنها تحمل منه جنيناً بين أحشائها.

وصرخ فى داخله الشك.. منى أنا!! ومن أين لى بهذه الموهبة؟ من أيـــن لى بإمكانات الشباب.. وطمأنه الطبيب أن قدرة الرجل على الإنجاب ليست لها علاقة بالسن. فالرجل يستطيع الإنجاب وهو فى الثمانين.. لكن يا طبيب لم أنجب من زواجى السابق، ولم تنجب هى من زوجها الذى مات؟

أجاب الطبيب: عيب زوجتك وعيب زوجها.

قال بعجب: مصادفة لا يصدقها إلا غافل.

واحـــتمل أشـــهر الحمل على مضض. لكنه لم يستطع أن يقلع عن إدمان حكايات كل ليلة، وإن كان يسمعها بنصف عقل.

وجـــاء الجنين ذكراً لا يشبهه فى شئ.. وجن جنونه.. وتحرك فيه الكبرياء القديم الذى يمنحه شجاعة الأسود، فاصطحبها ووليدها إلى الطبيب

الــذى أكــد مــن خلال تحليلات بالية أن الطفل قد يكون من صلبه.. إذن مازال الشك قائماً.. فالتحليلات تنجح فى إثبات عدم البنوة، لكنها تفشل فى تأكيد البنوة.

عــرف الجحــيم الحقيقى.. وأيقن أن الشك سيهلكه.. وفقد كل طعم للحــياة.. وسأم صحبتها.. وشاع فى الحارة سوء ظنه بزوجته. بل تطاير الــرذاذ إلـــى أجزاء أخرى من الحى، وما أسرع شيوع أخبار السوء بين الناس.. وطأطأ الرأس ولم يستطع أن يتخذ قراراً.. وصبر.

أمـــا هى فقد كانت باردة فى رد فعلها.. وجاءت أمها الأرملة لتقيم معهـــم لرعاية الابنة والطفل.. وتردد على البيت ابن خالتها الذى كان يقيم مع الأم.. شبابه الفائر يغيظ أى مسن، ويزرع فى حلقه غصة دائمة.. ولم يســتطع أن يمنعه من الإقامة شبه الدائمة فى بيته.. استثمر الجميع ضعفه إلى أقصى مدى. وحينما اشتكى همه لشيخه وشقيق زوجته صده بجفاء.

وجاءه الفرج حينما قرأ فى الصحف عن نوع جديد من الفحوصات المعملــية يُظهر الحقيقة.. ونهض فى داخله من جديد التحدى والتصميم.. واصطحبهما مرة أخرى إلى الطبيب.

وانــتظر الجمــيع النتــيجة بقلق وترقب. وجاء هو بالنتيجة مهنئاً ومعــتذراً.. وشاعت الأخبار السارة.. وتعرض للوم شديد تقبله بسرور.. واســتبدت زوجته وزادت سيطرتها.. وأمعنت حماته فى معاملته بقسوة.. وزاد شيخه من جفوته.. أما ابن خال زوجته فقد أقام إقامة دائمة فى بيته.. أما هو فقد أظهر رضاه التام بكل هذا التنكيل، بل سعادته الفائقة تأكيداً على أن ما كان يعنيه هو سلامة شرفه.. وأظهر ندمه على سوء ظنه.. وما هى إلا أشــهر قلــيلة حتى مرض.. فقد نصف وزنه بعد امتناعه عن الطعام،

وأصـــابه ذهـــول شـــبه دائـــم، أفقـــده القدرة على مقابلة الناس.. وأكدت الفحوصـــات الطبية سلامته العضوية.. فحملوه إلى الطبيب النفسي.. وبعد عـــدة لقاءات ومحاولات يائسة بالعقاقير النفسية، أصر الطبيب النفسى على أن يغوص فى أعماق مريضه أكثر.. وفى اللقاء الأخير اعترف النجار بأنه أخفى النتجة الحقيقية للفحوصات التى أثبتت أن طفله ليس من صلبه.

وحين امتنع عن زيارة العيادة النفسية، سأل عنه الطبيب، فعرف أنه قد مات.

(٤٠)
تبرير الخيانة

أنا أرفض اعتذارك. هكذا صرخت فى وجهه. وانهارت باكية. من حقى أن أرفض اعتذارك.. وهل هناك اعتذار عن جريمة قتل. لقد طعنتنى فى شرفى. والشرف ليس الإخلاص فقط ولكنه أيضاً الصدق والأمانة والاحترام. إنه كل القيم التى ترتكز عليها حياتى. طعنتك كانت سامه إلى الحد الذى أزهق روحى.. اعتذارك نوع من السذاجة يدل على أنك لا تعى المعانى الحقيقية المرتبطة بالشرف. سهولة الاتهام وسرعة الاعتذار عنه تعنى الخلل الشديد فى بنائك الأخلاقى وربما يخفى خلفه خللاً أخطر فى بنائك النفسى. وأشك حتى فى أنك تعى ما أقوله لك الآن. وياليت أن لديك دليلاً على خيانتى. دليل يقبله العقل وقابل لأن تثبته وقابل فى نفس الوقت أن أدحضه. إن دليلك هو أكبر دليل على الضلالات التى ارتكزت عليها فى توجيه الاتهام لى. إن دليلك هو أكبر دليل على الخواء الذى تتحرك داخله. إن قضيتك باطلة مثلما أن قواعد الارتكاز عندك كلها باطلة زائفة خاوية متهاوية ينخر فيها السوس وتقرضها الفئران السامة.

تتهمنى أنى خننتك مع صديقك. قلتها بهدوء فى جملة توسطت حوار بيننا لا يتعلق بموضوع الخيانة. هذه ياربى من علامات الساعة الكبرى.

أن يتهم الزوج زوجته بالخيانة وهو مبتسم يحتسى الشاى. ثم يتراجع بنفس البساطة وبنفس الجدية التى أكد بها اتهامه.

وما دليلك؟

دليلى هو النظرات المتبادلة بينكما.. اهتمامك بالسؤال عن أخباره. إعجابك بإنجازاته. انبهارك بشياكته.

يالسخافة ما تقول.. ولا أقول يالفظاعة ما تقول. فاتهامك غير جدير بكلمـــة فظاعـــة. فالفظاعة تنم عن جرم خطير أما السخافة فتنم عن جرم حقير وتافه. وإذا كنت تفهم فاتهامى لك بالسخافة والتفاهة والحقارة أضخم وأبشـــع مـــن اتهامك لى بالخيانة. ورغم ذلك تطلب منى أن أسامحك وأن أستمر فى الحياة معك.

واستمرت الحياة. ونسيت اتهامه لى بالخيانة ولكن لم أنسَ أنه إنسان ضـــئيل.. وفـــى نفس الموعد بعد عام عاود اتهامه وفى هذه المرة اختار زمـــيلى فى العمل كشريك لى فى الخيانة. ولكنه هذا العام كان أفضل من العـــام الماضـــى فقد انفعل وثار وهدد وتوعد. وتركت البيت. وبعد أربعة أشـــهر عدت بعد أن اجتمع علىّ كل الناس الذين وسطهم. عدت وقد خرج من قلبى تماماً. وعشت من أجل أولادى. ولكنى لاحظت تدهوراً قد أصابه. تلصصـــه علـــى تلـــيفوناتى. مراقبته لى. مفاجأتى بزيارته لى فى العمل. تفتيشه لحاجياتى.

وتحملـــت. وبذلـــت جهداً مضنياً لطمأنته. فيهدأ أحياناً ويقلق أحياناً أخـــرى. قلت لنفسى ربما سلوكى يستفزه ويقلقه. فتحفظت. وتركت العمل مؤقتاً. وأقللت خروجى من البيت إلا للضرورة القصوى. فعاد إلى طبيعته

وعـــاودنى صـــفائى النفســـى وشعرت بثمة أمل فى أن أستعيد مشاعرى كزوجة لهذا الرجل.

ومـــا إن إلـــتف العام حتى عاودته الشكوك والظنون. وثار وعنف وكسر زراعى. وخرجت من البيت إلى غير رجعه.

أمـــا هو فتأكيداته غير قابلة للنقاش ويقسم عليها.. هذؤه يثير الشك فـــى صـــحة تأكيداته. ورغبته فى استعادتها للبيت برغم يقينه من خيانتها تؤكد ضلالاته. إلا أنه يتألم مثل أى زوج تخونه زوجته. يرى أن هذه هى نهايـــة العالم وأن أى كارثة مهما كان حجمها تتضاءل أمام خيانة زوجه. وإنه لا معنى لأى حياة إذا كان هناك ولو زوجه واحده خائنة فى أى مكان فى ألعالم. وأن السعادة الحقيقية هى مع زوجة صالحة. وأن صلاح الزوجة يعادل كل كنوز العالم.

• وما دليلك..؟

– لا يستطيع أى رجل فى العالم أن يقدم الدليل الناصع على خيانة زوجـــته إلا إذا فاجاءهـــا فى الفراش مع عشيقها وهذا أمر صعب تحقيقة. ولكـــن هـــناك علامـــات أخرى يستطيع أن يكتشفها الزوج ولا يخطئها أو يتجاهلها إلا كل بليد الذهن والشعور.

• ما هى هذه العلامات ؟

– مـــا رأيك فى الملابس الفاضحة التى تكشف أول ما تكشف عن ســـاقيها وصـــدرها!! ما رأيك فى الضحكات المجلجلة وخاصة فى وجود الـــرجال!! ما رأيك فى تقبلها لأحاديث مكشوفة مع الرجال!! ما رأيك فى سهولة تعرفها بأى عابر سبيل!!

• هــذه ليســت علامات خيانة. ولكنها مظاهر سلوكية قد تدان فى وسط اجتماعى معين ولا تدان فى وسط آخر.

– فى رأى أن من تأتى بهذه الأفعال لابد أن تكون خائنة.

• وهــل حاولت نصحها لتعديل سلوكها بشأن ملابسها وضحكاتها وسهولة تآلفها مع الرجال.

– حاولت دون جدوى.

• إذن أنت لا تأثير لك عليها.

– بل رغبتها فى الخيانة أقوى.

• ولماذا تريد عودتها إليك رغم تأكدك من خيانتها.

– أريدهــا أن تعــود لتــتوب وإلا أنتقم.. ولكن لن أتركها تهرب بجريمتها.

وقد نصادف رجلاً قد خانته زوجته فعلاً ويملك الدليل القاطع وعقله سليم. والأمر هنا يختلف عن الحالة السابقة. فالحزن عميق. والحالة أقرب إلى الأسى. والأسى هو الحزن على شخص عزيز قد مات. إنه حزن الفقد. أو حزن الموت. وتتساوى الخيانة بالموت أو هى أفظع من الموت. ولذلك فالخــيانة قد تنتهى بالموت. أى أن عقابها يكون الموت. وإذا كان الشرك بــالله يفســد العلاقــة بين الإنسان والسماء فإن الخيانة هى كل الفساد فى الأرض ولا فســاد بعدهــا.وأصلها أى الخيانة فساد فى التركيبة الإنسانية. تماماً مثل الطعام الفاسد الذى تتحلل مكوناته وتصبح سامة. وكما لا تستمر حــياة مع طعام فاسد فلا تستقيم حياة فى ظل خيانة. فالخيانة إبطال فورى للحياة. ولذا فمن الصعب استمرار حياة بين طرفين بعد ثبوت خيانة أحدهما

ســـواء إذا كانا زوجان أو صديقان أو زميلا عمل.. قد يحاولان الاستمرار ولكـــنها تصبح علاقة يشوبها الشك والتوجس والقلق والغم والهم. علاقة لا تشـــبع. علاقـــة توجع القلب وترفع ضغط الدم. لا ينسيان ولكن يتناسيان. والتناســـى غير النسيان. التناسى معناه زحزحة المشكلة من بؤرة الشعور المباشـــر. ولكـــنها تظل قابعة فى الظل حية ولكن أقل تأججاً. وفى الوقت المناسب تقفز للمقدمة وتعود للظهور أكثر اشتعالاً وأكثر إحراقاً. ولذا يظل الطـــرفان فـــى حالة هروب مستمر كالذى ارتكب جريمة ويفلت من تنفيذ الحكـــم ولكنه يظل طوال حياته هارباً مشرداً. وهو فى الحقيقة هروب من الـــنفس. والهروب من النفس هو هروب مكشوف مثل لعب الأطفال. ولذا فقـــد يلجـــأن إلـــى الخمر أو الأقراص المهدئة أو المقامرة أو الدخول فى مغامـــرات جديـــدة أى مزيد من الانغماس فى الوحل أو السقوط صرعى المرض النفسى أو العقلى وهذا هو الحل الأسهل أو الأمثل.

وتكـــون النهاية عند الطبيب النفسى والذى قد ينصحهما بالانفصال ضـــد إرادتهما. أو قد يجد مبرراً مرضياً للخيانة التى حدثت وهذا قد يكون حقيقى فى بعض الحالات.

(٤١)

هـ + ح + ك + ف + س = قصة حب

حلمت به قبل أن تراه في الواقع، وهذا أمر عجيب، والأعجب أنها استطاعت أن ترسمه علي الورق دون أدني معرفة به. بل وأظهرت تفاصيل جسده القوي بدقة، رسمته وهو طائر في الهواء وكأنما رصدت اللحظة التي ترتفع فيها أرجله الأربع فوق الأرض وهو يعدو، أين لها بهذه المعرفة؟ أم هي معرفة الروح التي تسبق معرفة العقل والتي لا تحتاج إلي مشاهده مسبقة للواقع، أم كان مختزناً في أحد الجينات كنموذج للجمال والقوة معاً.

وبغتة رأته في الطريق، فانسلت من يد أمها واندفعت كسهم يتوق للوصول إلي هدفه ووقفت قبالته وتسمرت عيناها في عينيه، وخالته يبتسم فابتسمت بكل براءة السنوات الثلاث من عمرها، وانتزعتها أمها المذعورة من أمامه بقوة.

وافترشت صوره كل جدران حجرتها وما بين صفحات كتبها، وأهدرت كل صفحات كراساتها برسمه في شتي الأوضاع، وحين تمكن الفن من أصابعها رسمت له أبدع اللوحات، وحين تشبعت روحها بكل ما أبدعه الله من ألوان، كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تمزج ألواناً بعينها وبمقادير خاصة لتأتي باللون الذي خلقه الله عليه.

وحباها الله بوسيلة أخري للتعبير غير الرسم، ليس لأن الرسم ضاق بفـيض مشاعرها ولكن لأن الله أراد أن يمكنها من البدايات وهي الكلمة، فكتبت.. لم يكن شعراً خالصاً ولم يكن نثراً خالصاً ولكنه مزيجاً خاصاً مثل مـزيج الألـوان الذي برعت فيه، فكتبت رسماً، ورسمت كلاماً وأهدرت آلاف الصفحات ما بين رسم وكتابة.

وحيـن نضـج القلـب عاودتهـا موهبة الرؤية المسبقة للواقع في أحلامهـا، وفي هذه المرة حلمت بالفارس، وهو فارس عجيب لأنه لم يكن ممتطـياً حصـانه بـل كان قادراً علي أن يطير في الهواء، وكيف لها أن تهوي فارساً عادياً وهي ذاتها أعجوبة من أعاجيب الزمن، وظلت تلتقي به كثـيراً فـي أحلامها حين كان يشتد بقلبها الوجد، وحين تظمأ للحب وحين يعصـرها الجـوى، فكـان يزورها مهدئاً ملطفاً مطمئناً حنوناً ويرضعها قطرات من الأمل. إنني سألتقي بك يوماً في دنياك، وصدقته لأنه آمنت به ولأنه يعشق الألوان مثلها.

إلا أن شيئاً واحداً كان يؤرقها وهو أنه كان يبدو في أحلامها وكأنه من جنس آخر، إلا أنه كان يطمئنها عن ثقة.

وفي يوم كانت تقف أمام لوحتها لتختمها بتوقيعها، وصخب يتعالي مـن حولهـا يفـيض بـالألوان من كل جانب، شعرت به من خلفها، ولم يخطؤها ظنها، فالتفتت إليه وقالت له أهلاً، فتعانقا وظل الإشتباك حتى آخر لحظـات عمـره، وما بين العناق وفك الاشتباك سنوات من العشق والفن والألـم، أثمـر وأثمرت وأثمرا معاً ما لا يقدر علي خلقه إلا الله، واكتفيا بثمرة واحدة، ولكنها كانت تحمل داخلها كل عناصر الحب والجمال والقوة محملة علي جينات مزدوجة.

وحمــل كــل مــنهما الآخر صعوداً إلي سماء المجد، نجم ونجمة، اكتمل بها واكتملت به، أثرته وأثراها، تحقق امتزاج كامل، وأثبتا أننا جئنا من عنصر واحد لا عنصرين.

واحــتل كرسياً في الصفوف الأولى، واحتلت كرسياً في الصفوف الأولى، فن حقيقي واقتدار، كثير من الشهرة وقليل من المال وسعادة تفوق كــل كــنوز الأرض، وحياة الفن والحب لها مذاق خاص، صعود وهبوط، بــرد وهجــير، نشــوة وفــتور، عقل وجنون، واقع وخروج علي الواقع، إنـــه مــذاق لا يعــرفه إلا من يقفز بالمظلة حيث في البداية الهواء النقي والفضـــاء الفسيح والصمت المريب وحين يصل يصطدم بالأرض ويتمرغ فــوق التراب حيث الخطر المحدق ولكنه يعاود القفز مرات ومرات حتى النهاية.

عــاش ثلاثــتهم تحــت مظلة الحب والفن والأصدقاء، كانت لديهم القدرة علي جذب القلوب تهوي إليهم وتهيم من حولهم.

وتمضي الأيام وتشيخ الأعمار، وتضمحل الأجساد، وتتقلب الفصول بحــدة، فيأتــي شتاء شديد البرودة تفشل معه وسائل الحماية، ويأتي صيف شــديد الحرارة تفشل معه تكنولوجيا التبريد، ويأتي ربيع شديد الرياح يسد تــرابه الأنوف ويلهب العيون، ثم يأتي خريف فاتر وكأن الدنيا توقفت عن الحركة.

ولا شــئ مقلقاً مثل المرض، كل المصائب تهون إلا انحسار القوة، وتمرض هي، فيمرض من أجلها، فتشفي فيسترد بعض عافيته، ولكن شبح المــوت يظــل يطارد روحه ووساوس الفراق تظل ترهق عقله، وكأنما لم يعرف حقيقة الدنيا إلا أخيراً، فينطوي علي نفسه.

ويـــنعزل عن الحياة ويقبع منتظراً ولكنه لا يفصح، بتأملهما بحب، ويتمنـــي أن يظلـــوا جمـــيعا متلاصـــقين لـــيل نهار، ولكن عجلة الحياة لابـــد أن تســـير والناس لا يرحمون والوحوش متربصـة والأنياب مسنونة للانقضاض.

وعاودتهـــا أحـــلام المعـــرفة المسبقة، رأته يلملم حاجاته ويضمنها حقيبة السفر، ولكنه يمضي ناسياً الحقيبة.

ويرحل بهدوء شديد وكأنما كان يعد لرحيله، وكأنما كان يعلم موعد المغادرة. أما هما فالألم كان مهيباً لا يسمح بالصراخ.

وعادت وحيدة.

وفـــي مكـــان عملها زارتها مذيعة. كان كل شئ فيها متفسخاً عن بعضـــه، أسنانها متباعدة وفكاها منفرجان باستمرار دون أن ينغلقا لحظة، وزاويـــتا شفتيها تمتدان إلي أذنيها، وصوتها يكشف عن أن فأراً قد انحشر في حلقها، سألتها المذيعة وهي ممسكة بميكرفونها ومن خلفها الكاميرا: ما رأيـــك فـــي الخلـــع، فوجئت الأرملة الحزينة المتشحة بالسواد، لم يفاجئها السؤال بقدر ما أثارت دهشتها سخافة المذيعة، وفي دقيقة صمت استعادت شـــريط حـــياتها من النهاية إلي البداية، اللقطة الأخيرة حين خلعها الموت مـــنه، ثـــم رجوعاً إلي الوراء وهي تضمه إلي صدرها في أيامه الأخيرة، وعـــادت أكـــثر إلـــي الـــوراء وهو يضمها إلي صدره حين مرضها، ثم اســـترجعت شـــتاء قارصاً وهما ملتصقان تحت الغطاء، ثم عادت إلي يوم حصـــوله علي الجائزة، فتعانقا بشدة كادت ضلوعها تتكسر، ثم استرجعت صـــورة تحـــتل الصـــدارة في البيت تضمهما مع وليدهما بعد أسبوع من مجيئه.

ثـم اسـترجعت اللحظات الحاسمة معه في الليلة التي تخلقت فيها الخلـية الأولـي لوليدهما، وحين وصلت بالذاكرة إلي هذه اللحظات رانت علي وجهها ابتسامة وكان قد مضت عليها دقيقة منذ أن سألتها المذيعة عن الخُلع.

وانتبهت إلي تكرار المذيعة لسؤالها.

فأجابت بقولها: خُلع إيه.. بلا خيبة.

(٤٢)

حب منزوع الجنس

بعض الناس يهتم بالتفاصيل والتفصيص والتحليل والتنقيب والفرز والتدقــيق، ومــن شــدة الاســتغراق يغيب عنهم الجوهر والمعني الكلي والمضــمون الأساســي، تضيع منهم الفكرة الأساسية، ويفتقدون الإحساس بالكل. والإحساس بالكل المتكامل وملتحم الأجزاء، هو إحساس جمالي يفقد الشيء جماله إذا تم تفتيته إلي أجزاء، ويفقد روحه إذا قطعناه إلي وحدات، فلكل كل روحه وجماله، الجمال في كونه كل، والروح لا تنبعث إلا من كل مــتكامل، والإنسان فطر علي الإحساس بالجمال، وفطر إدراكه علي رؤية الكلــيات، ولــيس المفــردات، هكــذا صــيغ عقل الإنسان وهكذا صنعت أحاسيســه. لكن بعض الناس ولأسباب ما محرومون من هذه النعمة، ولهذا فالأشــياء تبدو لديهم دائما ميتة بلا روح، قبيحة بلا جمال، وتضيع عليهم فرصـــة الحــياة، فالحياة تتكون من عدة أساسيات، عدة كليات، عدة مبادئ ومعــان ومفاهيم، وعلي الإنسان أن يدركها بكلها المتكامل حتى يستخلص لنفسه الجوهر الذي يتعلق به ويعيش به ويتفاعل معه.

أحمد الله أنني لست من هذا النوع، أحمد الله أنني أعلو فوق مستوي التفاصــيل والجزئيات، ولذا لا أري العيوب الدقيقة والبسيطة، بل أحيانا لا أري العــيوب الكبيرة المتعلقة بجزء معين من الكل، لأنها تضيع في غمرة

حســنات الكــل، إذا دققــت في مفردات الشيء ستري العيوب، صغيرها وكبــيرها، أمــا إذا اتســعت عيناك باتساع قلبك، وعقلك، باتساع روحك ووجدانــك فإنك ستنفذ إلي داخل الشيء وليس سطحه، وفي الداخل تضيع الحــدود بين الأجزاء، فتذوب في بعضها البعض، وتتوحد وتتناغم كخليط ألــوان أفــرز لونــا جديدا لم تره عين من قبل، وكمزيج أنغام أفرز لحنا متجانســا لــم تســمعه أذن من قبل، وكأنما دخلت حديقة تعددت ورودها وزهورها، وذابت روائحها في الهواء، فصارت عطرا واحداً لم تشمه أنف من قبل.

هكــذا تكــون حالك وأنت تعلو فوق التفاصيل وتنفذ إلي الأعماق، بيــنما تحــرم مــن كل هذا إذا بقيت علي السطح مثبتا عينك فوق عدسة مجهر.

تزوجــت لأنــي كنت أريد ذلك، تزوجت لأنني كنت أريد زوجا، تزوجــت لأنني احب الزواج، و احب أن يكون لي زوج، وحين سئلت عن شــروطي قلــت: أن يكون رجلا يصلح أن يكون زوجا، ولم تفهمني أمي، فعــادت تسألني أن كان لي شروط أو طلبات خاصة تتعلق بشكله ووظيفته ومالــه، فأعدت القول إنني أريد رجلا يصلح لأن يكون زوجا. ولم تفهمني أمــي وتركتنــي لأبي الذي كان يحس بي، كان بيننا تفاهم مرئي وتجاوب وجدانــي يُحــس ولا يُري، وشعور فياض يغمرنا دون أن يحس بنا أحد، خاصة أمي التي كان يقلقها هذا التقارب ظناً منها أن أبي سيفسدني بأفكاره التقدمــية وأحلامه الرومانسية، ونفوره من المادة ورفضه للشكليات. لكنني كنــت مستنســخة من أبي، ورثت كل جيناته المتعلقة بالتفكير والإحساس والسلوك، وورثت من أمي شكلها المليح.

قـال أبـي: أفهم ما تقصدين، لكن قد يكون من الضروري في هذا العصر أن نسأل عن بعض التفاصيل ضماناً لحياة مستقرة.

قلت لأبي: الضمان الحقيقي للاستقرار هو وعي الإنسان بدوره في الحـياة، وهذا الوعي يتأكد ويتفتح إذا كان هناك إنسان آخر يحتاج إلي ما يصـدره هـذا الـدور، وأنا أريد من زوجي أن يصدر لي معني أن يكون زوجاً.

الزوج هو من يفهم أن الزواج اثنان في واحد، إنني أنا وهو أقرب الأقربيـن إلـي بعضـنا البعض، والزوج هو من يفهم أن الزواج ناموس طبيعي، واحتياج فطرى، وبه يكتمل المعني الحقيقي للحياة، والزوج هو من يشعر بأن زوجته تكمله هو، وأن الزوجة تكتمل بزوجها.

وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن الآخر، ولا يمكن الحياة بدونه، ولذا فالزواج هو تاج علي رأس الناس رجلاً أو امرأة يتيح لهما أن يجلسا علي عـرش آمن مستقر ويصيرا ملكين.الزواج قيمة مضافة إلي ذات الإنسان وكينونته.

تنهد أبي بارتياح ودعا لي أن يباركني الله ويوفقني.

واخـترت زوجـا اطمئن إليه قلبي، وقلت له منذ أول يوم أنا احب الـزواج، وأحب أن أكون زوجة، وأحب أن يكون لي زوج، أحب المعني ذاته.

لـم اهـتم ببعض نقائصه العصبية وسرعة نفاد صبره وحدته في التعامل مع الآخرين، بل كنت ألمح هذه النقائص وأنساها بسرعة إذ لم تكن تمـثل نقـائص بقدر ما كانت تمثل سمات موجودة في كل البشر بدرجات مختلفة، وتلهبها وتظهرها ظروف ومناسبات معينة.

لم أهتم أيضا بالجفاء الذي يظهره نحو والدي ونحو أسرتي عموماً، وقلــت إن القلب وما يهوى، وهذه إرادة الله، ألا يستلطف أحدا من أسرتي. ولــم اهــتم بــبعض ســلوكياته المريبة التي تفضح علاقات نسائية عابرة لأنني كنت أؤمن بأن مثل هذه النوعية من السلوكيات تم تكريسها وتأصيلها اجتماعــياً فــي عقلــية الرجل الشرقي، ولم تعد تخدش أساسيات العلاقة الزوجــية، وإنما هي علي هامش وجدانه ومرتبطة أساساً برغبات غريزية ملحــة تمــثل هــبوطاً مؤقــتاً ســرعان ما يعود الرجل بعدها إلي حدوده كزوج.

كــان المهــم عــندي أن يظل زوجاً لي، وأن أظل زوجة له. وأن تستمر الحياة الزوجية، وأن تستمر الأسرة ويكبر أفرادها، كنت أستمتع بكل هــذا، أستمتع بهذا الجو، وهذا الإطار وهذا الشكل، وهذا المضمون، وهذا المعــنى. لم أكن علي استعداد لان أفقد زوجي لأي سبب، كنت أتحمل كل هــذه الــنقائص، والحقــيقة أنــني لــم أكــن أراها نقائص، وكان ألمها ســريعاً،وعابراً لا يــترك أثراً، وكانت نفسي صافية راضية، وكنت أحبه فعلاً.

كــان الجمــيع من حولي يرونه زوجا غير مثالي، ويرونني أكثر كفــاءة مــنه، وأســتحق من هو أفضل منه. ولم أكن أري ذلك معهم،ولم يوافقهــم عقلــي، ولــم يطاوعهم قلبي، اختلفت معهم حول مفهوم المثالي، واختلفــت معهــم حــول مدي الكفاءة والتكافؤ، واختلفت معهم عن القيمة الحقيقية لاستمراري كزوجة، ولاحتفاظي بزوج ولاستقرار بيت له قواعده الثابــتة القائمــة علــي رجاحة عقل امرأة والكفاءة الزوجية لرجل، كانت عقيدتــي أنه لا يوجد بيت حقيقي بدون رجل، أنفاس الرجل لابد أن يتشبع

بها الأثاث، صوت الرجل لابد أن يجلجل في المكان، عرق الرجل لابد أن تفــوح رائحته في الهواء وعلي الفراش. وهذا الرجل لابد أن يكون زوجا وليس صديقاً أو عشيقاً أو شقيقاً أو أباً أو ابناً،لا أحد يغني عن الزوج.

أريــد أن أعترف اعترافاً آخر، وهو أنني كنت أسعد جداً بعلاقتي الجنســية بزوجي، ليس جنسا للجنس،لكن لأن الجنس كان يعبر عن رغبة الــزوج فيّ، عن حبه للاقتراب مني، كانت تسعدني يده التي يضعها تحت رقبتي ونحن معاً في الفراش، ثم يباغتني بحركة منه، فأجدني وقد استدرت علي جانبي في مواجهته.

وكــان معدل العلاقة الزوجية بيننا في حدود مرتين أسبوعياً إن لم يكن أكثر في الإجازات، ونادراً ما تصبح مرة واحدة حينما تمر بنا ظروف غير مواتية كمرض أو إرهاق عمل.

وإذا غاب عني أكثر من أسبوع يساورني قلق مصحوب بهبوط في المعنويات يرقي أحيانا إلي حزن إلي أن يطلبني، فتختفي كل آلامي النفسية والجسدية، وأعود إلي حيويتي واستمتاعي بالحياة التي أحبها.

وأعــود فــأوكد أن استمتاعي بالجنس مع زوجي كان يدخل ضمن اســتمتاعي بالــزواج نفســه، الزواج في حد ذاته، الزواج كزواج بكل ما يعنــيه، لم يكن الجنس موضوعاً منفرداً مستقلاً، بل لا جنس إلا في إطار زواج، مثلما لا حياة إلا في إطار زواج.

ولأن الزمن لا يصفو كل الوقت، ولأن الأقدار ترفع الإنسان وتهبط بــه وكأنه يجلس علي أرجوحة، ولأن أمواج البحر مثلما تحمل السفن علي راحتيها بحنان إلا أنها قد تدفع بها إلي الأعماق المجهولة في أحيان أخرى، لذا فلقد ألمت بي أو بحياتي الزوجية مصيبة، بل هي مصيبة المصائب. لم

يعـد زوجي قادراً علي الاقتراب مني، مضي أسبوع، أسبوعان، ثم ثلاثة، ثـم شـهر، شـهران، ثم ثلاثة، ثم عاماً، وها قد مضي من العام الثاني شـهران. تحطمت تماماً وأنا أراه عاجزا يحاول فيفشل، ثم امتنع تماماً عن المحاولة لتكرار فشله.

أصـابني حـزن ليس لحرماني من الجنس، ولكن لافتقادي اقتراب زوجي منى، افتقادي للالتصاق والالتحام وتشابك الأذرع، واختلاط الأنفاس وامـتزاج العـرق، لم تكن تعنيني النشوة الحسية بقدر ما كان يعنيني هذا الإحسـاس المدهـش بالاقـتراب، وحزنت لأجله لإحساسه بالعجز أمامي بالـرغم مـن أنني لم أكن مثل الزوجات المتمردات اللاتي يبدين تذمرهن وإحباطهـن وضجرهن لضعف الزوج، ثم يتندرن ويسخرن من عجزه، ثم يبدين شماتتهن انتقاماً لقسوته أو شحه في أوقات سابقة.

لقـد ازددت خضـوعاً وحناناً وطاعة وامتثالا حتى لا يشعر بشيء يثير حساسيته.

ثم غاب زوجي في سفر عمل طويل وعاد ممتلئا حيوية، متدفقا في حماســة، نابضاً بالحياة، يلوح البشر علي وجهه ويقفز السرور من عينيه وتتراقص الكلمات العذبة علي شفتيه متغنيا أحيانا ومرددا ألحانا تكشف عن حالة وجدانية متأججة بالحب.

وتوقعـت أن تلـك الحالة الطيبة ترتبط بشفائه من العجز الجنسي، لكنه لم يقترب منى.

ولأول مـرة ينتابنـي جزع شديد، أحسست بأنني أكاد أفقد زوجي، ويـنهار بيتـي. كانت لزوجي علاقات عابرة بعد زواجنا لم أحاول أعرف تفاصـيلها، ولم تمنعه أي من هذه العلاقات أن يقترب مني، لكن هذه المرة

الأمر مختلف، هذه المرة ليست علاقة عابرة، لكنها علاقة شفته من العجز الجنسـي الـذي اسـتمر معه أكثر من عام، إنه يستطيع معها ولا يستطيع معي، إذن المشكلة تتعلق بعلاقتنا وليست مشكلة جنسية.

واعترف زوجي اعترافاً تفصيلياً، وكان بين كل مقطع وآخر يؤكد علـي حـبه لي وتمسكه بحياتنا معاً، لكنه كان في نفس الوقت يؤكد علي عجزه معي فقط وكأنني شقيقته.

قـابل السـيدة الأخرى في أثناء سفره، جاءت من بلد عربي لتعمل بمفـردها في بلد عربي أكثر ثراء. اشتهر مسقط رأسها بإفرازه للجميلات القادرات علي إمتاع الرجل إلي حدود مجنونة والقدرة علي شفاء أي رجل من عجزه الجنسي.

يقول الزوج: عادت إلي قدرتي مرة أخري وعدت بحيوية المراحل المـبكرة من الشباب، بل لم أكن في حياتي بمثل هذه القوة الجنسية وأنا مع السيدة الجديدة. ارتبطت معها فقط بالقوة والثقة بالنفس وزوال العجز ورفع الرأس.

أحببـتها، لكنني مازلت أحبك أنت أيضاً يا زوجتي يا فاضلة يا كل عمـري يـا أم أولادي يا رمز الطهارة والنظافة والأمانة والنبل. لكنني لا أستطيع معك جنسياً.

نصـحتني أمي بأن أطلب الطلاق، ونصحني أبي أن أصبر، وطلب مني زوجي أن أرضي بقبول المرأة الأخرى في حياتي، وهي ستبقي بعيدة في البلد التي تعمل بها، وسأبقي أنا مع أولادي في بيتي وفي وطني. وكان الطبيـب النفسي حيادياً، قال لي: الأمر يتوقف عليك، قدرتك علي التحمل، صبرك، حبك لزوجك، حبك لبيتك، حرصك عليه.

قلت للطبيب : أنا أحب الزواج، أحب زوجي، أحب أن أظل زوجة، لا أريد أن أكون مطلقة، لكن ما تفسير حالته؟ يحبني ولا يقدر معي، ويحب أخـــري ويقدر معها، ما الفرق بيني وبينها؟ من زوجته الحقيقية؟ ما حقيقة أعماقه؟

قال الطبيب النفسي: إن زوجك يعاني أكثر منك، إنه يعيش صراعاً رهيــباً لا يقــوي علي حله، المرأة الأخرى استطاعت أن تثير لديه أقوي المشــاعر الجنســـية، إنهـــا امرأة مدربة، هذه هي صناعتها، أو هذه هي مهنتها. إنها تعرف كيف تمتع رجلاً، ولقد استطاعت أيضاً أن تثير مناطق معيـــنة للذة الجنسية في مخ زوجك تصادف أنها تتطابق مع نفس المثيرات التـــي مـــــر بهـــا في شبابه المبكر وارتبطت بأقصى وأقوي الأحاسيس الجنسية، علاقته الجديدة أطفأت تماماً إحساسه بك، بل أن علاقتك الجنسية بـــه تأثرت منذ زمن سابق علي العلاقة الجديدة. علاقتكما الجنسية أصابها الـــركود، وتحتاج إلي إعادة بعث، أنت تثيرين لديه مناطق إحساس أخرى، وهي الحب والمودة والاستقرار والأمان والأسرة.

وهـــو أيضاً يحترمك لأنك علي النقيض من السيدة الأخرى الماهرة في الحب.

عـــدت أسأل الطبيب النفسي: هل من الممكن أن يحب رجلاً امرأة دون أن يشعر بالرغبة الجنسية نحوها؟ هل يوجد حب منزوع الجنس؟

أجـــاب الطبيـــب النفســـي وقد بدا التردد عليه حين انتفضت جفون عينيه بتتابع أسرع: انطفاء الرغبة الجنسية لا يعني انطفاء الحب.

وفـــي النهاية أخذت قراري بطلب الطلاق والانفصال عن زوجي، أيدتنـــي أمي، واعترض أبي واتهمني أنني لأول مرة في حياتي أتبع رأي

أمي، واتهمني أيضاً بخيانة المبادئ والأفكار التي رباني عليها والتخلي عن فلسفتي في الحياة وهي كلية النظرة إلي الأمور والارتفاع فوق الجزئيات، والتناول الأشمل.

قــال أبي: ما أصاب زوجك لا يمثل انهياراً لجوهر العلاقة بينكما، ولا يمــس أساسيات مشاعركما، ولا ينقص من درجة الحب، بل هو مجرد ســلوك اندفاعي أحمق له مبرراته الوقتية،وسرعان ما سيعود إليك زوجك بالكامل.

قلــت لأبي بهدوء تعلمته منه: إنني أفكر بطريقة مختلفة عنك لأنني امــرأة، أرجــوك لا تظن أن الغيرة هي وراء طلبي بالانفصال، ولا تظن أنني أنتقم لخيانته، ولا تعتقد أنني أعاقبه علي فعلته.

وأرجــوك ألا تتصــور أنني تناسيت كلية العلاقة ونظرت إلي بعد واحد منها، وهو البعد الجنسي.

إن مــا فعله زوجي – رغماً عنه – هو انهيار لجوهر العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو ذلك الانجذاب القهري الفطري التلقائي بينهما ليحدث التلاقــي بشــوق بالغ متجدد، إنه أصل الوجود ليلتقي رجل وامرأة ولتعمر الأرض ولنعبد الله. وكيف لا تكون قوة الانجذاب هذه هي جوهر الحب إذا كانت هي جوهر العلاقة بين الرجل والمرأة، بل هي صميم العلاقة إذا كنا نتكلم في إطار الحب والزواج، أما في إطار الزمالة والصداقة والجيرة، بل حــتى فــي إطــار قرابة، كالعلاقة مع الأخت أو الأم، فهي غير موجودة بــالقطع. إننــي فقدت زوجي كزوج وكعاشق، إنه يشعر نحوي الآن مثلما يشعر نحو شقيقته أو أمه.

إنه يحمل لي الاحترام والتقدير، لكن هذا لا يكفي لحياة زوجية.

لـــو أن زوجـــي قـــد خانـنـــي لغفرت الله، لو أنه تزوج بأخرى مع احـــتفاظه بمشـــاعره الجنسية نحوي لظللت زوجة له، لو أن عجزاً جنسياً مرضـــياً أصـــاب زوجي لعشت تحت قدميه، أما أنه فقد مشاعره الجنسية نحوي فلا، ولسوف أعيش بقية أيامي بلا سعادة، لأن سعادتي الحقيقية هي أن أكون زوجة، وأن يكون معي زوج، يضمني إليه كل ليلة، لقد فقدت أهم شئ في حياة المرأة، وهو أن يرغبها رجل بشدة لأنه يحبها ولأنها زوجته، ومن تقول غير ذلك فهي ليست أنثى.

(٤٣)
امرأة متعددة المواهب

تتــنوع احتياجات الإنسان. ولكن جميعها تتمركز في المخ. يجتمع الجوع والعطش والنوم والجنس في بؤرة واحدة. ولا عجب أن يجتمعوا في نفــس الــبؤرة عند الحيوان. وهذه البؤرة أقرب في موقعها إلى قاع المخ وأبعُــد نســبيا عــن القشرة العليا والتي تحتوي علي الوظائف العليا عند البشــر..فالموسيقي والحب في الفص الأيمن وتحديدا في الفص الصدغي، والفكر واللغة في الجهة اليسرى. أما المنطق والحكمة والعقيدة ففي الفص الأمامـــي.. أما الذكاء فليس له مكان محدد وإنما هو مجموعة من القدرآت والمهارات في مجالات متعددة عملية ولفظية وعاطفية.

ليســت هذه محاضرة علمية عن المخ ولكنها مقدمة ضرورية لهذه القصة التي تكتسب بعض أهميتها من انتسابها لواقع حقيقي وأيضا تكتسب بعــض أهميتها من أنها تعبير عن الواقع الإنساني وخاصة في تناقضاته.. ومــا نــراه من تناقض إنما ينشأ عن عدم فهمنا لطبيعة الإنسان.. الإنسان وهو عريان. أي علي حقيقته. الإنسان بدون ورقة التوت.

وأنــا لا أري هــذه المقدمـــة خروجا وشذوذا عن الشكل التقليدي للقصة.. وحتى إذا كان ذلك مستغرباً أو مستهجناً أو حتى مرفوضاً فأنا لا يقلقني إهدار القيمة الفنية بقدر ما يعنيني الوصول للحقيقة.

وربمـــا يصبح ذلك فيما بعد شكلا مستحدثاً للقصة القصيرة بحيث تحتوي في البداية علي شرح علمي لفكرها يعقبها مقدمة أو تمهيد.

بطلـــة القصــــة تحمل في رأسها نفس المراكز التي تحدثنا عنها في المــخ مــثل أي إنسان علي كوكب الأرض ولكن.. ولكن في نظر الإنسان العادي استطاعت أن تجمع بين المتناقضات. وهي تجيد التذوق والاستمتاع بمـــا تتذوق. هي كالنحلة التي لا تكتفي بنوع واحد من الزهور بل مستعدة أن تجوب كل البساتين لترتشف من كل بستان زهرة شريطة أن تختلف كل زهرة عن الأخرى. وهذه هي متعتها.. التنوع.. ولكن بالنسبة لبطلتنا وهذا هــو مـــا يجعلهـــا تخـــتلف عن النحلة أن هناك خيط رفيع يجمع بين هذه المتـــنوعات. هذا الخيط هو الذي يلغي فكرة التناقض.. فهي عاشقة للجمال فـــي كـــل صورة. عاشقه للفن. عاشقه للحب. عاشقة للعشق. فإذا مارست جنســـا فليكـــن جنساً حقيقياً متكاملاً وجميلاً. جنس للجنس ولا داعي لان يكـــون جنساً منقوصاً تعوضه متعة أخرى. ولماذا يكون منقوصا طالما أنه في الإمكان الحصول عليه كاملاً وعفياً. والكمال جمال.. فإذا قلبت صفحة الجـــنس فأنهـــا تعطـــي وجدانها بالكامل للموسيقى. وتصل فيها إلي أعلي درجـــات الإبـــداع في التذوق وفي ذلك جمال يهز الروح. فإذا انتقلت إلي الفكـــر فهـــناك مجـــال لمـــتعة أخري مختلفة شكلاً وإن وصلتها إلى نفس أحاســـيس اللذة. لذة الفكر.. إذن الجسد يستطيع أن يتلذذ إلى أقصي مدى. والـــروح تســـتطيع أن تـــتلذذ إلي أقص مدي والفكر يستطيع أن يتلذذ إلي أقصي مدى. .. ولنبدأ القصة بالشكل التقليدي.

هـــي ســـيدة جميلة قبل الأربعين بقليل وإن بدت أقل من الثلاثين.. تمـــتلك مالاً كثيراً ورثته عن زوجها أتاح لها بداية أن ترسل طفليها للتعلم

في أفضل مدارس العالم خارج حدود الوطن. وأتاح لها المال أيضا الحصول علي شتي المتع في أرقي و أكمل صورها. إلا أن أخطر ما كانت تتميز به هو الذكاء. وربما لا توجد امرأة تضاهيها في ذكاءها. ذكاءها كان في القدرة علي الدق علي الأوتار المناسبة في الوقت المناسب ليخرج لحنا منسجماً متكاملاً ومؤثراً. وتستطيع أن تجمع بين الدق علي أكثر من وتر في آن واحد وهي نفس براعة من يجيدون العزف علي البيانو وليس عجيباً أن نتصور أنها كانت بارعة أيضا في العزف علي البيانو كما يشهد لها أستاذها العجوز في الموسيقى. وهي نفس موهبة استخدام الألوان لإخراج أشكال وإن بدت مجردة إلا أنها توحي بمعني وفكرة.. أشكال تحرك شيئا في داخلك.. تثير لديك إحساساً أو تبعث في رأسك فكرة.. وبنفس المقدرة أجادت حفظ الشعر أصعبه وأعذبه ولها محاولات لقيت تقديراً في نظم الشعر. كان مجلسها خليط من أهل الفكر والفن من شعر وأدب وموسيقي ورسم. ولجمالها ورقتها وحسن تذوقها وأيضا لقدرتها علي الإبداع فإنها كانت ملهمة لكثير من هؤلاء.. وحتى يظلوا مرتبطين بها، وحتى يظلوا يدورون في فلكها، وحتى تستمر استفادتها منهم فأنها أعطت لكل واحد منهم انطباعا أن لديه مكانه خاصة عندها. ولذا فإنه كثيرا من إبداعات هؤلاء كانت هي محورها.

ورغم هذا التحليق فأنها لم تهمل أيضاً التذوق الجسدي وهو تذوق بالمعني الفني الباحث عن الجمال. الجمال المحسوس، الجمال المادي. ولهذا كان لها اشتراطات خاصة في الرجل الذي تعرفه.. وهو أن يكون جميلا. وهي لا تقصد جمال شكله فقط وليس جمال جسده فقط أي قوته وتناسقه ولكن جمال رجولي وهو يشمل علي خشونة الطباع مع عدم العنف

والجـــرأة مـــع عـــدم التهور والحزم مع عدم العناد والثقة بالنفس مع عدم الغرور والاعتداد بالذات مع عدم التكبر. وفوق ذلك يكون ناجحا في عمله مهمـــا تواضع هذا العمل. وفوق هذا وذاك أن يكون نظيفا يستحم في اليوم الواحـــد أكـــثر من مرتين وتفوح منه رائحة طيبة وأخيرا أن يكون منسقا ومرتـــبا في هندامه ولا يشترط أن تكون ثيابه غالية ولا يشترط أن يكون مـــثقفا ثقافـــة الكتـــب ولكن أن يكون له رأي في الحياة. أن يكون هو ذاته وليس مدعيا. ولا يشترط أن يحب الفن. ولا يشترط أن يكون فنانا.. إنسان عـــادى. ولكن رجل جميل. رجل يتمتع برجولة حقيقية. ولذا لم يكن غريبا أن تصـــادق جرســـونا في يوم من الأيام وأن تستمر علاقتهما عامان حتى ســـئمها وتركها ليبدأ حياته مع فتاة أحبها.. ولم يكن غريبا هذه المرة وهذا هو موضوع قصتنا أن تصطاد شابا يعمل حارسا في أحد المعارض الفنية لمحـــته أكـــثر مـــن مرة أثناء ترددها علي المعرض. كان يصغرها بعشر ســـنوات ذو وجه مقبول وذكاء فوق المتوسط أتاح له شهادة متوسطة وبعد الانـــتهاء من الخدمة العسكرية والتردد علي عدة أعمال استقر كحارس في هذا المتحف بمرتب يكفيه بالكاد. هوايته الوحيدة مشاهدة مباريات كرة القدم وحضور المباريات إذا سمح وقته بذلك وممارستها إذا كانت هناك فرصة.. ولكن ما شدها إليه عيناه التي توحيان بالثقة بالنفس واعتداده بذاته مع أدبه الجـــم في التحدث مع الناس. وربما أثارهما أكثر عدم بحلقته فيها وإمعان الـــنظر كلمـــا عبرت من أمامه هذا بالإضافة إلي نجاحه في كشف الهيئة الرجولي من الناحية الظاهرية.

ولـــم يكن صعبا عليها وهي الخبيرة في فن الصيد أن تأتي به إلي بيـــتها ولـــنقل إذا أردنـــا الدقة قصرها.. وبدأت العلاقة وتأكد لها حدسها

وتوقعهـــا أنـــه رجـــل جميل حقا.. وعلمته ألا يحضر إلي القصر إلا حين تســـتدعيه. وأن ينصرف عنها حينما تريد.. ولكنه كان مختلفا عن الرجل الـــذي قـــبله والـــذي هجرها. كان يرفض أن يأكل عندها. وكان يرفض هداياهـــا.. ولـــم تسترح لذلك إذ كانت تملك نزعه السيطرة وحب العطاء للاستحواذ والأسر. ولابد أن نتركها هي بعض الوقت لنتحدث عنه.. كانت هـــي أول امرأة في حياته.لم يذق من قبل طعم الحب أو طعم الجنس. وفي الفـــراش كانت تعطيه من المتعة العاطفية والمتعة الجسدية بحكم خبرتها ما أسر قلبه وعقله وروحه وجسده تماما. وأصبحت هي محور حياته وأحبها.. وبفطـــرته أدرك أن الحب لابد أن يكون متبادلا وبنفس الدرجة وأن يكون أساسه الإخلاص وأن يهدف في النهاية إلي شئ.

يـــبدأ التصـــعيد الدرامي عند هذه النقطة.. الآن أختلف منظور كل مـــنهما للعلاقـــة..والمنظور لا ينطوي علي الهدف فقط وإنما المنظور هو رؤية كلية من الزاوية الخاصـــة.. أين تقف وكيف تري الشيء الذي تتوجه نحـــوه.. قدر الإحاطة.. وقدر ما يوحي به الشيء إليك وقدر ما يحرك من فكرك ووجدانك وأيضا وهذا هو المهم قدر تحركك. نحوه وهنا نستطيع أن نقول أن المنظور مرتبط بالمستقبل وأن المنظور شئ ديناميكي وليس شيئا ثابتا معدوم الحركة.

بـــدأ البطل يتحرك للأمام. أصبح له هدف من خلال منظور معين للعلاقة.. ألا وهو منظور الحب. إذن لابد أن يكون هناك مستقبل.

بدأ يسأل عن بعض التفاصيل باستحياء وبأدبه المعروف عنه. كيف تقضي وقتها.. اهتماماتها الأخرى؟ معارفها وأصدقائها كيف تري المستقبل وماذا ستفعل بحياتها.

وبذكائهــا الخــارق أدركت التغير الذي حدث في داخله.. أدركت اخــتلاف المــنظور.. وبــنفس الذكــاء الخارق أدركت أنهما وصلا إلي المــنعطف الخطر.. وبنفس ذكائها أدركت أنه إذا اختلف منظور شخصان نحو شئ ما لابد إذن من انفصالهما إذ من المستحيل أن يلتقيان. ولكن لكل جواد كبوة.. وهنا خانها ذكائها في أنها تصورت أن زمام الأمور في يدها وأن علــيها أن تضع خطة الانفصال بدون خسائر للطرفين.. ولقد سبق أن مــرت بنفس التجربة ونجحت ولكن الظروف كانت مختلفة والشخص غير الشخص.. هذا الشخص الذي سبق وأن تخلصت منه لم يكن قد أحبها، كما أنــه يخــتلف عن بطل قصتنا في أن كان له أطماع مادية من العلاقة ولذا رضي بتسوية مادية وانصرف لحال سبيله.

تــباعدت اللقاءات عن عمد.. قل المجهود الجسدي والعاطفي الذي كانــت تبذلــه أثناء ممارسة العلاقة.. زادت مساحات الصمت عند اللقاء.. أطلقت الهواء البارد من مصادر هي تعرفها فأشاعت جو من البرودة أزال مــا كــان من دفئ. وتقبل صاحبنا كل ذلك بصمت وأدب.. لم يعترض.. وإنمــا كــان يتحرك حسب الإيقاع الذي تحدده هي.. وخانها ذكائها للمرة الثانية حين لم تندهش لاستجابته السهلة لخطتها.

وفــي مرة ضربت له موعدا فأخلفه فحينما وصلته سياراتها لتحمله إلــيها اعتذر بأن لديه عمل مفاجئ. واستراحت هي لهذه النهاية وتصورت أن الســتار قــد نزل علي تلك العلاقة.. ولأنها لا تستطيع أن تعيش بدون رجل فإنها كانت متشوقة لصيد جديد.

ونعــود إلــي البطل المهجور الذي تمزق قلبه بسكين الغدر. أدرك اللعــبة وعــرف أنه كان جوادا امتطته بعض الوقت. عرف أنه كان رجل

للفراش فقط مسموح له أن يلمس جسدها دون قلبها. وأصدر حكما أنها سيدة بلا قلب ولا تستحق الحياة.. وصدق توقعه أن رجلا جديدا سيحل محله ليؤدي نفس الوظيفة التي كان يؤديها. كان قد حفظ السيناريو عن ظهر قلب.. وكان يعرف الطريق الذي يصل به إلي فراشها.. وكان يعرف أن البيت يكون في أعلي درجات هدوئه وقت عزف سيمفونية الفراش.

وبعد مراقبة دقيقة لم تدم طويلا قرر وعزم وحدد الميقات. وبدون عناء في التخفي والوصول وقف أمامها في حجرة نومها. لم يتكلم ولم ينظر إليها ولم يمهلها لحظة لتمتلئ رعبا وتتذلل وأفرغ رصاصه واحدة في مقدمة رأسها أطاحت بالقطع بالفص الأمامي للمخ مركز التفكير والتدبير والحكمة.. أما الرجل الآخر فقد انخرس لسانه من الرعب وربما فقد وعيه.. وعلي غير المتوقع في مثل هذه الأحوال فأنه تركه حيا لأنه أعتبره ضحية مثله.

وانصرف بنفس الطريقة الهادئة التي جاء بها وكان البيت كله مازال ينعم بنفس الهدوء.

(٤٤)
السقوط

المرأة الأولي:

لــم تكــن النشوة عارمة هذه المرة..شيء ما أطفأ الجذوة فأظلمت روحهــا التي اعتادت أن تتوهج بتمام النهاية، شيء ما أمات وجدانها الذي اعتاد أن يهتز بسلام الختام، شيء ما أصاب أصابعها بالتراخي وهي تقبض علـــي أتعابها لتدسها بين ثنايا صدرها الذي احتوي قلباً لا يدق إلا لمرآي المال.. وأي مال.

ورغم أن المال كثير هذه المرة إلا أن القلب لم يدق وعم الفتور.

انتهت من ارتداء ملابسها.أصلحت من شأن مكياجها.. دست النقود في حقيبتها.. بينما تمدد هو في الفراش يراقبها باندهاش إذ لم تنطق بكلمة مــنذ أن التقيا.. تجاهلت نظراته ولم تعن بإلقاء تحية الوداع وتحديد موعد اللقاء القادم. صفعت الباب خلفها وصوت داخلي يردد لن أري هذا الرجل مرة أخرى.. اشترت أشياء كثيرة وهي عائدة إلي البيت.. أستقبلها زوجها بنضــف حماسه، وأنقض الأبناء علي ما اشترت. رفضت معاشرة زوجها هــذه اللــيلة.. ولم تنم طوال الليل وظلت تسأل ماذا أصابني.. في الصباح طلب منها زوجها نقودا فأعطته ما أراد.طلبت من سائقها أن يذهب بها إلى

شـاطئ الـنهر.. مشيت بمحاذاة الشاطئ مباشرة لعل عضلاتها المتراخية تتماسـك وتتنفسـت بصـوت مسـموع ليتسـع صـدرها لأكبر قدر من الهـواء.وجدت نفسها بدون قصد مقابل عوامة رجل آخر اعتادت زيارته. خطـر لهـا أن تجـرب نفسها مره أخري لعل ما حدث بالأمس كان شيئا عارضا.. اندهش لزيارتها المفاجئة ولكنه ابدي استعدادا وترحيبا. ذهبا إلي الفـراش. أسـتمتع هـو بينما لم تشعر هي بأدنى شئ.. ثم جاءت اللحظة الحاسـمة التـي تحقق لها أكبر درجات اللذة.لحظة النشوة الحقيقية.لحظة الذروة والاكتمال والتحقق من الذات.. اللحظة الإمبراطورية التي تعلو فيها وتحلـق إلـي أعلـي فيـبدو الـناس مـن تحـتها أقزاماً.. لحظة القوة والسـيطرة.لحظة الانتقام والتشفي.. لحظة احتساء الدماء وكأنها تبتلع نهرا من الخمر.. أنها لحظة تقاضي الأتعاب.

مـدت يـداً مرتعشة للنقود. صعقت إذ لم يتحقق لها ما أرادت. لم يـتحرك داخلهـا شـئ وكأنهـا جثة قتيل.قذفت بالنقود في وجهه وعادت أدراجهـا ودموعها تبلل وجنتيها. أصابتها الحسرة لأنها فقدت اللذة الوحيدة في حياتها.. لذة بيع جسدها وليست لذة جسدها..قالت لنفسها لعلي مكتئبة.. وعـادت وسـألت لماذا أنا مكتئبة ؟ وفجأة لمع في عقلها السبب.إنه موت أبـي. ولكنها عادت وقالت أنا لم أشعر بأي حزن لفراقه.. وفجأة أضاءت كل مصابيح عقلها كاشفة وفاضحة للسر الأعظم.

مات أبي وماتت معه رغبتي في الانتقام منه..لقد فضل أمي على.. انحاز إليها بالكامل وطعنني.. كانا يغلقان حجرة النوم وراءهما بالمفتاح.لم يكونا يسمحان لي بالنوم في وسطهما. كنت أتلصص خارج الحجرة المغلقة وأتسـمع ضحكاتهما ثم أسمع صرختها ثم يهدأ كل شئ فاذهب إلى فراشي

باكـية.فاســتبدلته بـألف رجـل. والجسد الذي رفضه تشتهيه كل الرجال ويدفعـون من أجل الحصول علي لحظات معي. وكان المال الذي أتقاضاه تأكـيداً حقيقياً لقيمة هذا الجسد.. وكأني كنت أطعنك يا أبي في كل مرة.. أما وقد مت فمن أطعن ؟وهكذا أضعت كل أمل في أي لذة في هذه الحياة.. لقد أمتني مرتين يا أبي.

المرأة الثانية:

كـان أكثر ما يثيرها في متابعة مباريات كرة القدم هي تلك اللحظة التـي يحـرز فـيها لاعب ما هدفاً، فيقفز في الهواء إلي أعلي ما يستطيع ويجـري كالمجـنون كأنـه يفـر من موت محقق وتجتمع في وجهه كل العلامات الدالة علي اختلاط كل المشاعر التي عرفها الإنسان علي الأرض مـن فـرح ولـذة وزهو وعنف وعدوانية.كل شئ.. كل شئ.. ويتكالب زمـلاؤه عليه يغطونه بأجسامهم فتتحقق له الارتعاشة الأخيرة ثم تسترخي روحه تماماً.

لـم يكن يحركها إلا كل مثير وغير متوقع ومفاجئ ومباغت.. تلك اللحظـات الفخمـة التـي تهز الداخل هزاً فتخرج الإنسان من حالة السأم وتنتشله من الموت وتدفعه مرة أخري للحياة حتى وإن ألقت به وسط نيران متأججة.. المهم أنه حي.

وحيـن كانـت فـي السادسة من عمرها أغتصبها رجل.. ومرت سنوات طويلة نسيت فيها الألم والخوف اللذين أحاطا بالحادثة ولكنها أبداً لم تـنسَ نظـرات عيني الرجل. لم تر مثل هذه النظرة في حياتها بعد ذلك.. نظـرة التصـميم في الاستمرار حتى النهاية مدفوعا برغبة طاغية قهرية مستعد أن يدفع حياته ثمناً لإرضائها.. إنها أقصي درجات رغبة الرجل في

امــرأة تعكسها نظرات عينيه. وكان مجرد تذكر هذه النظرات يبعث فيها الرغــبة.. وحلمت وهي نائمة بأنها تغتصب مرة ثانية. ولم يفزعها الحلم.. بل وتمنت أن يعاودها لتتمعن أكثر في عيني مغتصبها.

وتزوجت.. وكان اللقاء الأول مخيباً لكل الآمال ولم تشعر بشيء.. واستمر إحساسها الميت بالرجل. واكتشفت أنها لا تستمتع بجسد الرجل إنما تســتمتع بنظرات عينيه المنتفخة بالرغبة إلي حد الانفجار.. إن ذلك يبعث لذة روحها وهو ما تشتهيه حقاً.. وعرفت أنها مختلفة عن كل النساء.

وكان أن تبعها شخص ما في الطريق. وحين التقت عيناهما اشتعلت النــيران فــي كل كيانها.. إنها نفس النظرات.. وذهبت معه. وأثناء اللقاء ثبتــت عينيها علي عينيه. كان كأسد جائع منع عنه الطعام أياماً.. وبعد أن أفترســـها مد إليها يده ببعض المال مظهراً امتنانه مردداً أنه لم يستمتع في حــياته مــثل هذه المرة.. تناولت المال عن غير قصد ومن شدة اندهاشها دسته في صدرها فاجتاحتها موجة أخري من اللذة.

وندمـــت وعاقبــت نفســـها بالاكتئاب. وحين شفيت عاودتها نفس الأحلام.. وحينما خرجت إلي الطريق تعمدت اصطياد النظرات وأن تختار أكثرها تحرقاً والتهابا. ثم لا تكتمل اللذة إلا بتقاضي الأتعاب في النهاية.

ورفضـــت الاحتراف الذي عرضه عليها بعض السماسرة وفضلت أن تظل هاوية لتتحقق لها حرية الاصطياد والاختيار.

وسألت نفسها ذات مرة: هل أنا منحرفة.. وجاءها صوت من بعيد لا تعرف مصدره.

قائلا : بل أنت مريضة.

عادت وسألت: وما سر مرضي.

أجابهـــا: نظرات الرجل الفاضحة بالرغبة تشعرك بالثقة في النفس ومن ثم الأمان.

سألت باستحياء: ولماذا عن طريق الجنس.

قـــال : لان الرغبة الجنسية تتأجج بشكل مادي ملموس. وأنت من شدة ضعفك النفسي تريدين التأكد بيديك وعينيك وكل حواسك.

المرأة الثالثة:

لـــم تعـــبر بحراً أو نهراً في حياتها رغم إغراءات المتعة المتوقعة فأكـــثر ما كان يفزعها هو فكرة الموت غرقاً. بل ليس الموت في حد ذاته وإنما لحظات ما قبل الموت حيث يستحيل التنفس. وإذا داهمها كابوس أثناء النوم فدائماً ما يكون علي هيئة شخص يكتم أنفاسها. ومره حلمت أن الهواء ســـينفد وأن الـــناس سيموتون خنقاً بل وكانت تأتيها هذه الفكرة الوسواسية أثناء اليقظة وتسأل ماذا يفعل الناس إذا نفذ الهواء!! وإذا أصابها برد وانسد أنفها تفتح فمها علي آخره حتى لا يضيق صدرها من قلة الهواء.

ولـــذا شـــعرت بالضيق وهي تستلم عملها الجديد وأتوا لها بمكتب صـــغير ليضعوه في حجرة تضيق بالمكاتب وجالسيها وليس بها إلا شباك واحـــد صـــغير.. والعمـــل ضرورة في ظل زوج مرتبه ضئيل.. والحياة أصبحت صعبة للغاية بعد مجيء طفلين. والديون تتراكم ولا أمل في ردها وخاصة أن الاقتراض كان من الأهل. والزوج كسول وخامل ولا يريد أن يعمل أكثر. وهي جميلة وصغيرة والضغوط عليها كثيرة ولكن القلب عامر بالإيمان من أثر نشأتها في أسرة متدينة حفرت قيمها في العقل قبل القلب.

وتـتعاظم الضـغوط مثل تعاظم صعوبة الحياة وتدفعها زميلة إلي جلسة مؤانسة.. مجرد كلام وضحك.. وتتقاضى ثمن الضحكات.. والضمير لـم يثر كثيراً لأنه لم يحدث ما يعد من الكبائر.. وسد المال القادم ثغرات ملحـه.. وعاودت الكرة.. ولكن في المرة الثالثة، كان مطلوباً ما هو أكثر مـن الضحكات.. وشعرت بضيق في التنفس. وجثمت آلاف الأطنان فوق صدرها. وشعرت أنها علي وشك الموت.. وصرخت ففزع الجالسون خوفاً من الفضيحة.. وتركوها بل دفعوها لتخرج من المكان.. ولم تستعد هدوءها إلا وهـي في أحضان زوجها ولسانها يتحرك في صمت بالاستغفار.. وفي هذه الليلة زارها أبوها في الحلم مطبطباً مهدئاً ومباركاً.

(٤٥)

شاب من الجنوب

.. تلين المعادن لحرارة الجو إلا عقل الإنسان فيزداد صلابة. وكلما توغلــت فــي الجنوب كلما التهب الهواء فتزداد معه سرعة اشتعال النفس بالغضــب لأبسط الأسباب وكأن الأعصاب تحمل متفجرات ما أن تلمسها حــتّى تنفجر فلا تبقي ولا تذر. وقسوة الشمس وصعوبة الحياة وقلة الرزق تدفــع الإنسان إلي أمرين أن يمشي في خطوط مستقيمة وأن يؤمن بالقدر ولذا فأهل الجنوب يلتزمون بقيم راسخة يزودون عنها بالموت فلا يسمحون للباغي أن يعتدي وإلا أرتد السيف إلي نحره ولا يسمحون لفاسق أن يلوث شرفا وإلا لقي حتفه. ومن لا يثأر لاعتداء أو ينتقم لشرف ينبذ كأجرب ولا يصلح لشيء في الحياة إلا أن يكون طعاما لذباب.

..اجتمعــت لديه بالذات كل صفات أهل الجنوب مصحوبة بطبيعة الحــال بــاللون الداكن والملامح التي تجمع بين الطيبة والصرامة والبنية الصلبة التي تكشف عن مدي ما تحمله صاحبها من أحمال وأعباء.

هاجر إلي العاصمة لشق طريق مستقيم للرزق الحلال إلا أن طبيعة الأعمــال المــتاحة بالعاصمة وبالذات في هذه الأيام تحتاج إلي من يتحلى بعكس صفاته كالمرونة التي تتيح الانحناء دون الانكسار، والتساهل الذي يتــيح التــنازل دون خســارة، وكذلك الدراية بجزافية الطرق التي تتلوى

كثعبان ولكن توصل في النهاية إلي الهدف دون الانشغال كثيراً بمشروعية الوسائل.

كان من السهل اكتشاف عدم تمتعه بهذه المواهب، وطرق العديد من الأبــواب دون أن يســتجيب لــه أحد. إلا جهة وحيدة قبلته تحت الاختبار مرافقا ومصاحبا لمسؤول كبير يجوب البلاد للتفاوض والتعاقد. وعرف أن من أهم السمات المطلوبة والتي ترفع من شأن صاحبها وتتيح له مزيداً من الترقــي ألا يســأل عــن شئ. وقبل تحت ضغط الحاجة طالما أن العمل شــريف ومــن أجل أسرة تقبع في أقاصــي الجنوب تتكون من زوجة شابه وطفلين. ولكي نصل إلي لب الأحداث فإن المسؤول الكبير ومعه تابعه نزلا بــأحد الفنادق في إحدى المحافظات الكبرى في رحله عمل. ولعله فهم من السياق أن بطلنا هو ذلك التابع الذي أتي من الجنوب.

تلقي التابع محادثة تليفونية من المسؤول أن يجيئه في حجرته لإتمام عمــل. ودهــش التابع أن يري الرجل الكبير علي غير ما تعود أن يراه. تبســط معــه فــي الحديث وترقق في مشاعره وخرج عن كل الحدود في عباراته التي كانت تحمل إشارات وتلميحات غير مباشرة لأمر ما يضمره ويبغــيه المســؤول الكبير.. واستنادا إلي ما سبق من صفات عن أسلوب التفكــير الذي لا يمضي إلا في خطوط مستقيمة فإن بطلنا لم يفهم شيئاً من تلميحات رئيسه فما كان من الأخير إلا أن قالها صراحة وبعبارات تخدش الحــياء ساعده علي نطقها ما ابتلعه من خمر لا تخطئ رائحتها أنف قريبة منه.

ولا يمكن تصور السرعة التي تلاحقت بها مشاعر تابعنا ولا يمكن تصــور بعد ذلك السرعة التي تلاحقت بها الأحداث.. لم تأخذ الصدمة إلا

ثانيتيـــن. كانت صدمه ولم يكن اندهاشاً أعقبها شعور بالتقزز والنفور وبعد خمســـة ثوانـــي غلت الدماء بالغضب والكراهية ثم أعقبها رغبة شديدة في الانتقام، والسبب في هذه الرغبة هو أن التابع غضب لان المسؤول ظن به السوء وتصوره شاذاً أو أنه قابل للشذوذ وبالتالي فيجب أن ينال عقابه. إلا أنه استطاع حتى هذه اللحظة أن يسيطر بصعوبة علي أعصابه. ثم تداعت الأحـــداث بعـــد ذلك بسرعة تفوق سرعة البرق وذلك حينما حاول الرجل الكبير أن يقترب من الشاب الصغير ويحتضنه.

تلاحقت الصور بسرعة تفوق قدرتنا علي تتبعها ولكن ما يهمنا هو المـــنظر الأخـــر حينما رفع الشاب الصغير فازه ضخمه وثقيلة وهوي بها علي رأس الرجل الكبير فمات في لحظتها.

بعـــد ذلك تباطأت الأحداث نسبياً لان ما حدث يوحي حتماً بعواقب وخيمة تصل بنا إلي حبل المشنقة فكان لابد من التريث فانتقلنا من حساب الثواني إلي حساب الدقائق وخاصة بعد أن أفرغ البركان كل ما يختزنه من حمم. أستوعب الموقف. وأدرك أن أحداً لن يصدق محاولات الرجل الكبير والـــذي راوده عـــن نفســـه. ولن يقدر أحد أن الدفاع عن الشرف هو مثل الدفـــاع عن الحياة.. ولذا فلابد أن يحمي نفسه بنفسه. فأزال كل البصمات المـــتعلقة به وأنسحب بهدوء إلي حجرته دون أن يراه أحد ودون أن يشك فـــيه المحققـــون أنفسهم والذين استبقوه أيام ثلاث بلياليها للتحقيق المضني وعرضوه لشتى الاجتهادات والحيل ولكنهم لم يخرجوا بشيء نافع منه وفي النهاية حذفوه من قائمة المشكوك في أمرهم.

انتهت علاقته الرسمية بالمحققين سواء من الشرطة أو النيابة وبدأت علاقـــة أخـــري غريبة ومتوقعة في نفس الوقت وهي أنهم وضعوه تحت

المراقــبة لــيل نهــار ... هكذا قال هو بعد ذلك، ولنتركه هو يتحدث عن نفسه :

قــبل أن أغــادر حجرتــي فــي الصباح أسمع أقدامهم علي السلم فأضــطرب ولكنــي أعود فأتماسك.. فإذا خطوت إلى الشارع ألمح أحدهم علــي ناصية تقاطع ممسكاً بجريدة ومتظاهراً بالقراءة فأمشي في الطريق فإذا بسيارة تاكسي تمشي بمحاذاتي ويترجل منها اثنان فاهرب منهما بالقفز فــي أتوبــيس فــإذا بســيارة تقتفي أثر الأتوبيس. وحين أصل إلي العمل ويحضر لي الساعي فنجانا من القهوة يضعه أمامي وهو يحرجني بنظرات ذات معنــي أفتح أدراج مكتبي فاكتشف أن هناك يد عابثة استعرضت كل الأوراق وفشــلت في أن تعيدها إلى ترتيبها السابق. أشعر بالاختناق وليس الخوف أذهب إلي البلدة يومين أو ثلاثة لا غلف أعصابي بدعاء الأم وحنان الزوجة وفرح الطفلين فأكتشف أنهم جندوا أحد أقاربي لتولي مهمة المتابعة والمراقبة. أني أختنق.. أنهم في كل مكان. هذا معناه أنني محط لشك وانهم مــا أفــرجوا عنــي إلا لمزيد من التدقيق وإحكام الاتهام.. أين اختبئ من عــيونهم. أينما توجهت أجدهم من أمامي ومن ورائي. أني اختنق.. ولكني لســت خائفاً لأنني مؤمن ولأنني كنت أدافع عن شرفي. أن موقفي أمام الله سليم وهذا يكفي.

ضــاقت الحلقة.. لم أعد أحتمل.. سأذهب إليهم وأعترف.. السجن أهون مما يفعلون بي.

ذات صــباح قمت وقد بلغ بي الضيق مداه. وأشتد بي الغضب حين سمعتهم يتحدثون مع بعضهم البعض من خلف الباب.اتخذت القرار وتوكلت علــي الله وذهبــت إلي المحقق واعترفت له بكل شئ.. انطلقت من عيني

المحقــق حمم من نار وليست مجرد شرارة. سألني بصوت غاضب: لماذا تــريد أن تحمـــي المجرم الحقيقي. لعله هو الذي دفعك إلي هذا الاعتراف الكاذب لينجو من العقاب اذهب بعيداً وإلا اتهمناك بتضليل العدالة.

عرفــت مـــن المحقق أن رجلاً قد زار المسؤول الكبير في حجرته وتشـــاجر معه فاقتتلا أو أن هذا الرجل الزائر تعمد قتله وفر بحقيبة مليئة بالمخدرات وأنه تم القبض علي هذا الرجل واعترف بزيارته لحجرة القتيل وفراره بالحقيبة ولكنه قال أن المسؤول كان مقتولا حينما دفع بالباب الغير مغلق ودخل عليه حجرته.

أنـــا الوحـــيد الآن الـــذي أستطيع أن أرتب الأحداث واري القصة كاملـــة.. هـــذا الرجل الذي كنت اعمل معه كان يعمل بالمخدرات.. وكان شاذا فاستدعاني لحجرته وهم بي وقتلته ومحوت كل آثار الجريمة وخرجت من عنده وجاء من بعدي ذلك الرجل الآخر ولعله شريكه أو أحد المتعاملين معه فوجده مقتولاً فانتهز الفرصة وهرب بحقيبة المخدرات.

شـــرحت هـــذا الســـيناريو الحقيقـــي للمحقق فنهرني وطردني من حجرته.

عـــدت لا عيش في بلدتي الصغيرة فهذا هو المكان الوحيد الذي ما زالت أرضه تتمتع بالطهر وما زالت القلوب راضية والنفوس صافية.

انطلـــق مـــن داخلـــي مـــا رد رهيب يمسك بسيخ من نار يدبه في ضميري. سيعدم رجل برئ ولا أحد يريد أن يصدقني.. وتدريجياً انتشرت الإشـــاعات فـــي بلدتـــي الصغيرة.. وليت الأمر اقتصر علي أنني القاتل الحقيقـــي بـــل انهم يتهمونني بالشذوذ ولقد عكسوا الحكاية فقالوا لأنني أنا الذي راودت الرجل الكبير عن نفسه وأردته أن يفعل بي فأبي فقتلته.

لـــم اعـــد احتمل الحياة.. أنا قاتل في نظر نفسي وفي نظر الناس.. وشـــاذ أيضاً في نظر الناس.. إن عقاب السماء قد حل بي. ومن قتل يقتل ولو بعد حين فلأسرع أنا بالأمر انهي هذه المهزلة.

في صباح يوم غير طيب وجدوا الشاب الفقير معلقاً من رقبته بحبل يتدلى من فرع شجرة غليظ وكأنما نما خصيصاً لهذا الغرض.

(٤٦)
أزواج وزوجات

يجتمع شر الأرض كله في قلب امرأة حين تغير، الغيرة هي أصل الشـر، والغيرة هي مدعاة لكل شر، ولا يعتصر قلب امرأة إلا بفعل امرأة أخـرى، والخنجر الذي تتلقاه امرأة في قلبها تنتزعه بيدها لتغرزه في قلب امرأةٍ أخرى، ولا تـحسد امرأة علي عملها أو مالها أو حسبها، وإنما تحسد علي جمالها خاصة إذا حلت في أعين الرجال، والسباق يكون من أجل قلب الـرجل، من أجل علاقة حب، وفي علاقة الحب يكون المحبوب هو أجمل مـن خلق الله في عين حبيبه، إلا أنه حتى الآن لم تكتمل ثقة إنسان بنفسه، يظل هناك خاطر ما وإن كان واهياً باهتاً أن هذا المرأة الأخرى قد تحرك إحســاس ومشاعر الرجل الذي أحبه ويحبني، حتى وإن لم يحبها يكفي أنها أثارتـه، يكفـي أنهـا حركته، يكفي أنها زحزحتني عن مكانتي عنده، أنا أعـرف أننـي لست أجمل نساء الأرض، بل ربما أكون عادية أو أقل من العادية، ولكنني لا أطيق امرأة أخري جميلة تظهر علي المسرح، إنها تثبت لدي كل الأحاسيس غير السارة، إنها تفقدني توازني بهاء تذهب بعقلي، إنها توغـر صــدري، إنهـا تملأنـي شراً، إن الصراع الأزلي في الحياة هو الصـراع الجنسـي رضينا أم لم نرضَ، صعدنا برعوسنا فوق الرمال أم أخفيناها تحتها. الصراع بين امرأة وامرأة يكفي لحرق الأرض كلها.

.. حكاية:

.. بـــدت القاعة في غاية الوجوم ولاحت منها جدية لم تعهدها فمنذ ساعات قليلة مضت كانت تفيض بالمرح إن لم يكن بالمجون بفعل الشراب ومن أجل المناسبة، فاليوم عيد، انتقل المحققون إلي مسرح الجريمة، حمام النســاء الملحــق بالقاعــة، كانــت الجثة ممددة في أحد أركانه، لم تمس المجوهرات التي ترتديها ولم تفتح حقيبة يدها، كاملة الهيئة إلا من إيشارب غريب التف بإحكام حول عنقها مما أدي إلي اختناق أودي بحياتها.

شــمل التحقــيق كــل العاملين في قاعة الاحتفالات. تعرف عليها الجمــيع إذ كانــت غريــبة علــي المكان الذي لا يرتاده عادة إلا زبائنه الدائمون، كانت هذه هي زيارتها الأولي والأخيرة طبعاً.

تقدمت إحدى النادلات واعترفت للمحققين بأنها راقبت كل تحركاتها منذ دخولها القاعة.

.. قالــت: بيــنما كانت القاعة تصدح بالموسيقي التي تتلوى عليها الراقصـــة، والرجال ثملون بالجسد العاري وعبث الخمر برءوسهم والنساء يتنقلــن بعيونهــن بين الراقصة وبين نظرات أزواجهن وأصدقائهن دخلت السيدة القتيلة القاعة يصحبها رجل يظن أنه زوجها. باب القاعة في مواجهة المســرح، فكـــان الموسيقيون هم أول من لاحظ قدومها. حدث اختلال في اللحــن لحظـــة أن هلت، اضطربت أصابعهم، وكادت الراقصة أن تتوقف حيــن تابعــتها وهي تأخذ مكانها علي المائدة المحجوزة سلفاً، وما هي إلا لحظـــة حتى التفت كل العيون حولها، رجالاً ونساءً. يا سبحان المبدع لهذا الجمـــال، شـــهق مـــن شـــهق، وتحسس قلبه من تحسس، وزفر من زفر، وانمحــت الراقصـــة من دائرة الاهتمام، واضطربت القاعة وإن بدت أقل

حـــركة، وتســـمرت عـــيون الزوجات علي وجوه أزواجهن لمتابعة حركة رءوسهم فإذا اتجهت ناحية السيدة الجميلة تم وكزهم بعنف، وجري تواصل خفـــي بين الرجال دون تبادل الكلمات، إجماع علي أن العيد أصبح عيدين، بينما اجتمعت النساء علي بغض هذه السيدة.

أطرقـــت الـــنادلة لحظات فاستحثها المحققون علي متابعة الحديث فقالت: حتى أنا نفسي اضطربت، لم أقوَ علي مغالبة النظر إليها بحسد، بل أعـــترف بأنني تمنيت زوالها من المكان، بل من كل الحياة حتى لا يقاس إلـــيها جمال أي امرأة أخرى، إن مجرد وجودها في أي مكان علي الكرة الأرضية يعد مصيبة إذ ستصبح مرجعاً للجمال.

أكلـــت النيران قلبي، وشعرت بقدر الجحيم الذي تعانيه بقية النساء اللاتي كن يتبادلن نظرات ذات معنى، وكانت السيدة الجميلة تتابع الراقصة باهتمام بينما تشابكت أصابع يدها مع أصابع زوجها الذي لم يشعر أحد بأنه موجود أصلاً.

كانـــت تبدو ذات كبرياء وثقة بالنفس مما زادها حسناً. وبينما أناول أحـــد الرجال مشروبه سمعته يقول: إن مجرد وجود هذه المرأة في الحياة هـــو آيـــة من آيات القدرة، وهي نعمة يحمد الخالق عليها، فرد عليه آخر: وهـــي أيضـــاً ترســـخ الإيمان وتؤكد الخضوع وتدعونا للسجود لمبدعها، فانـــبري ثالث يشاركهم المائدة: النظر إليها ينقي الروح ويصفي النفس من الغم ويرقق الوجدان فيعم السلام.

اســـتدرج المحققون نادلاً آخر للاعتراف فقال: لاحظت تغييراً في المكـــان حال دخولها وكأن القمر قد اكتمل نموه علي غير موعد لينير ليلة ظلماء فبهتت النجوم وتوارت أمام النور الذي ملأ السماء والأرض.

وقـــال نادل ثالث: كنت أراقب أعين النسوة في القاعة، كن يتبادلن الــنظرات، كـــل واحـــدة تمســـح القاعة بعينيها وتركز نظراتها في أعين الأخـــريات، وكأنهـــن يتبادلن حديثاً مشتركاً، كان منظراً عجيباً، كل امرأة تنظر إلي الأخرى.

ثم تنظر إلي التي بعدها، لم يستغرق تبادل النظرات أكثر من دقائق معـــدودة، ثم توقفن وكأنهن توصلن إلي اتفاق فعاودن التطلع إلي الراقصة التي أساءها انصراف الاهتمام عنها.

ثـــم قامـــت السيدة الجميلة في اتجاه الحمام وفي أقل من جزء من الثانية تبادلت جميع نساء القاعة النظرات في آن واحد، بل يمكن القول بأن كـــل سيدة التقت بأعين جميع السيدات الأخريات في هذا الجزء من الثانية، ثـــم شـــاهدت خمـــس أو ست سيدات ينهضن من أماكنهن ويتجهن صوب الحمـــام، ولأن الموقف كان مثيراً فلقد تابعت حركتهن بدقة، اختفين داخل الحمـــام حوالـــي الربع ساعة، ثم عدن إلي أماكنهن ولم تعد معهن السيدة الجميلة، وما ندري إلا والجميع ينصرفون إلا الزوج الذي أخذ ينتظر عودة زوجته من الحمام.

ومضـــي وقـــت يفوق أي وقت لقضاء أي حاجة بحمام، فطلب من إحدى النادلات أن تستطلع الأمر ن وما أن دخلت الفتاة الحمام حتى سمعنا صـــراخها فاندفعـــنا نحوهـــا فطالعتـــنا السيدة الجميلة ملقاة علي الأرض فتصورنا بها مكروهاً ولكنها كانت قد غادرت الحياة.

وعبـــثاً حاول المحققون معرفة السيدات التي لحقن بالسيدة الجميلة في الحمام دون جدوى، فقيد الحادث ضد جميع السيدات اللاتي كن بالقاعة حين دخلتها السيدة الجميلة.

.. حكاية أخرى:

.. لا تفهم امرأة إلا امرأة أخرى، نظرات عين امرأة تفصح عن كل مكنونها، بل صوتها يكشف عن كل حالها، وذلك يستعصي علي فهم الرجل أو إحساســه مهما كان خبيراً بالنساء، والأمر ليس من الصعب أن نجربه لنختبر قدرة امرأة علي كشف أسرار امرأة أخري بمجرد النظر إلي عينيها وســماع صــوتها، ستســمع من المرأة الفاحصة تعبيرات مثل: هذه امرأة عاشقة، أو هذه امرأة مهجورة، أو هذه امرأة محرومة جنسياً، أو هذه امرأة نامت لتوها مع زوجها، وهكذا....

أي أن الأمــر يــدور كله في نطاق علاقتها بالرجل، علاقة امرأة برجل لا تخفي علي امرأة أخرى. والمدهش في الأمر أن أي امرأة ليست بحاجــة إلي خبرة لتتقن هذا الأمر، إنها تولد بهذه المقدرة علي فهم الحالة العاطفــية التي تكون عليها امرأة أخرى، صغيرة كانت أو كبيرة، عالمه أم جاهلة، عاشت خبرة العلاقة برجل أم لم تعشها، حتى وإن كانت امرأة فاقدة البصر فإنها تستطيع أن تستبين الحالة العاطفية لامرأة أخري بمجرد سماع صــوتها. تغير ما في الصوت يصور حال المرأة في علاقتها بالرجل، فإذا اجــتمع الصــوت مــع الصورة بان كل شئ من هذا المزيج العجيب من نظــرات عين وتعبيرات وجه ونبرات صوت، ولهذا فأي امرأة مفضوحة أمام أي امرأة أخرى، ويبدو أن علاقة المرأة بالرجل تحدث فيها هذا التأثير القــوي الذي لا يمكن إخفائه، وربما تكون البداية عند غددها الصماء التي تفــرز هــرمونات معينة أو تمتنع عن إفراز هورمونات معينة لها علاقة مباشــرة بوجدان المرأة في إطار علاقتها بالرجل، تماماً مثل الروائح التي تصدر من إناث بعض الحيوانات لتجذب الذكر إليها في موسم التناسل، إذن

هـــذه الـــرائحة والناشـــئة عن إفراز هرموني معين تكشف عن الاحتياج الجنسي لأنثي هذا الحيوان.

ويستطيع كل زوج أن يسترجع بعض المواقف التي مرت به والتي تؤكد هذا المعنى، تذكر يوم أن ثارت زوجتك لأنك تحدثت مع امرأة معينة، أو وهـــي تصر علي ألا تتحدث مع امرأة بعينها، إن زوجتك قد قرأت شيئاً معيناً في أعين هذه السيدة أو لمحت في صوتها ميلاً جعلها تتأكد من رغبة هـــذه المرأة وميلها نحوك، هذه ليست حاسة سادسة بقدر ما هي قدرة عامة بين جميع نساء الأرض.

.. والحكاية تبدأ من الوقت الذي استلم فيه البواب الجديد العمل في عمـــارة نصـــف أرستقراطية في أحد الأحياء المتوسطة التي لم تتدنى إلي مستوي الأحياء الشعبية ولم ترتفع إلي مستوي الأحياء البرجوازية، إلا أن أغلـــب ســـكان العمارة من المثقفين المهنيين والذين ينعمون بحياة زوجية هادئـــة بعـــيداً عـــن صخب الطبقات الاجتماعية المرتفعة، وهم وزوجاتهم العـــاملات أيضـــاً مـــتفرغون لتربية أبنائهم وتعليمهم وهي طبقة متوسطة الدخل منهكة بالعمل.

وبعـــد أيام ظهرت زوجة البواب والتي لم تثر اهتمام أي رجل من ســـكان العمـــارة حتى الذين تثيرهم جنسياً النساء من الطبقات المتواضعة، وكان البواب ذاته عادياً في مظهره وأسلوبه ولا يختلف عن أي بواب آخر، هكذا كان رأي الرجال في البواب وزوجته، إلا أن سيدات العمارة كان لهن رأي آخـــر. إن زوجة البواب يبدو عليها أمور غريبة، ثمة نظرة ما، وثمة نبرة صوت ما ينبئان عن حالة شديدة من الإشباع الجنسي، بل أن كل شئ فـــي هـــذه المرأة يشير إلي ذلك. واستطاعت إحدى الساكنات أن تستدرج

زوجـة الـبواب ولبساطتها أطلعتها علي الحقيقة، وهي أن زوجها البواب فحـل حقيقي وأن له قدرات جنسية خارقة تفوق الخيال. انتشر الخبر بين بقـية السـيدات من ساكنات العمارة، وكل واحدة منهن سعت بنفسها إلي معـرفة مـزيد مـن الحقائق باجتهاداتها الشخصية، ووصلن جميعهن إلي معلومـات أبعـد من كل تصور، إن هذا البواب رغم مظهره البسيط رجل غير عادي، ربما هو أقوي رجل في العالم، إنه شئ لم يسمعن به من قبل.

وسـرعان مـا تسرب الخبر إلي الأزواج، أو أن الزوجات تعمدن إثـارة أو إغاظة أو حث أزواجهن بهذه المعلومات، وحاول بعض الرجال أن يصـلوا إلـي الحقـيقة بطريقتهم الخاصة وتأكدوا فعلاً من صحة هذه المعلومات، وبات مؤكداً أن هذا البواب رجل غير عادي، وأن المسافة بينه وبيـن أي رجل آخر وعلي الأخص سكان العمارة التي يقوم علي خدمتها شاسـعة، وأنه - أي البواب - بهذه المقدرة قد كشف عن الضعف الشديد الذي يعانيه بقية الرجال. ولم تكن هناك أي صلات تربط بين الرجال الذين يقطـنون العمـارة فكـانوا لا يلـتقون إلا مصادفة خاصة في المدخل أو بالمصـعد، لكن في الفترة الأخيرة كان معظمهم يتعمد أن يلتقي بالآخرين، لكـن أحـداً مـنهم لـم يفاتح أي أحد آخر بما يدور في رأسه، فقط كانوا يتبادلون النظرات، ولكنها كانت أبلغ من أي حديث منطوق.

لقـد عاني الأزواج في الفترة الأخيرة من معاملة الزوجات الجافة والنظرات ذات المعني التي تتهمهم بالخيبة.

وذات صباح علا صراخ من حجرة البواب حين عادت زوجته بعد قضـاء حاجة فوجدته مقتولاً، لقد ذبح ذبحاً، وتم التمثيل بالجثة بعد ذبحها كأن فقأت عيناه وقطع لسانه وأزيلت أعضاؤه التناسلية من موضعها.

وحـــار المحققون في القضية، فالرجل بسيط وفقير وجاء حديثاً إلي المدينة وليس له أعداء ولا ثأر بينه وبين أحد آخر وزوجته بسيطة إلا أنها أثـــارت شـــكوك المحققيـــن وهذا أمر بديهي في كل حالة يقتل فيها الزوج ويـــتجه الظن إلي احتمال علاقة آثمة بين الزوجة وبين رجل آخر، فظلوا فـــي اســـتجوابها ساعات طويلة ومتعمدين إرهاقها نفسياً. وعن غير قصد أمســـك المحققـــون بأول خيط حين أخبرتهم الزوجة أن سيدات العمارة كن يسألنها دائماً عن علاقتها الجنسية بزوجها وأنها لاحظت دهشتهن بما تقصه عليهن من حقيقة العلاقة وعن حال زوجها.

ومـــن خـــلال ذلـــك اســـتطاع المحققون النابهون أن يتوصلوا إلي المســـتفيد مـــن قتل هذا الرجل البسيط صاحب القدرات الجنسية الخارقة، وعبـــثاً حاولوا أن يستدرجوا أياً من سكان العمارة والإيقاع به، ولكنهم لم يـــنجحوا، ورغم ذلك فقد تم توجيه الاتهام إلي جميع الرجال بالمبني دون استثناء واحد.

(٤٧)

الحب المحرم

مـــن الممكـــن أن تظل بعض الرغبات المحرمة مكبوتة في العقل الباطن عشرات السنين دون أن يدري عنها صاحبها شيئاً. تبقي حية نابضة وترسل من وقت إلي آخر إشارات مبهمة "تلسع" الضمير، وتؤرق الجفون، وتؤلـــم الـــرأس، وتوجـــع البطـــن، وتبعث علي الكآبة والقلق والوساوس والخـــوف. ولا ندري سبباً لهذه الأعراض التي تنتابنا من وقت إلي آخر، كمـــا يصـــدر عنا أحياناً سلوك غريب غير قابل للتفسير. وآه من الأحلام المحرفة التي تشير من قريب أو بعيد إلي مكنونات العقل الباطن المكبوتة، وتحيل الليل إلي جحيم ويصبح النوم عذاباً.

والإنســـان لا يتـــنازل عن رغباته أبداً حتى وإن كانت محرمة ولا ينساها، وإنما يحتفظ بها بعيداً عن وعيه الشخصي. العقل الباطن لا يعترف بالحـــرام والحـــلال. بل يتعامل مع الحرام ويحنو عليه ويغلفه ويخفيه عن الأنظـــار، ويبقيه حياً إلي أن تحين الفرصة. وآه من هذه الفرصة التي قد تتأخر طويلاً. سنوات وسنوات. لكن أبداً لا تموت الرغبة ولا ننساها. وآه مـــن قلقـــنا أن نموت قبل أن يتحقق الحلم. إن الحرمان يعذبنا. والمستحيل يذلـــنا. إنـــه ذل عـــدم إرضاء الرغبة وإطفاء نار الصدر، وإشباع القلب، وإسعاد النفس، هيهات أن تتحقق بعض الأحلام. ويصبح دور العقل الباطن

أن يصـــبرنا. أن يعطيـــنا الأمل الكاذب. لكنه أمل. ضوء خافت من بعيد يقول: إن هناك شاطئاً سنرسو عليه، ورغم نشاط العقل الباطن الذي لا يهدأ لـــيل نهـــار، فـــإن جزءاً من العقل الباطن يدرك أن ثمة أحلاماً لا تتحقق، وبذلـــك يشترك مع العقل الواعي في إقرار هذه الحقيقة المؤلمة، ولا توجد حقـــيقة لا تؤلـــم. كل الحقائق مؤلمة لأنها تواجهنا بأنفسنا وتعرينا وتجعلنا نتـــنازل عن أحلامنا. تجعلنا نتنازل عن الحرام. وفي مقابل هذا الجزء من العقـــل الباطن والواعي يوجد جزء آخر يؤمن بالمعجزات، والمعجزة هي تحقـــق مـــا كنا نظن أنه غير قابل للتحقق من خلال قوانين وحسابات غير التـــي نعـــرفها، كأن يفيق إنسان من موته، أو ينتقل الإنسان بروحه عبر الـــزمان الســـحيق والمكـــان البعـــيد. والإيمان بأن المعجزة قائمة وقابلة للحـــدوث، يهـــدئ من الاشتعال الداخلي، ويجعلنا ننتظر وندعو، ولذا فإن بعـــض دعـــوات الإنسان تكون بأشياء مستحيلة، أشياء تحتاج إلي معجزة لتتحقق كأن يحلم الإنسان بأن يكون ملك الملوك..

هـــذا هو الحلم الأعظم. ومن يدعي أنه لا يرغب في أن يكون ملك الملوك، فإنه غير صادق، لكنه أيضاً غير كاذب، فهو حلم كائن هناك بعيداً في الظلمات، في أحد الدهاليز السرية.

وبعض الناس لا ينكرون حلم ملك الملوك لأنهم يرون أنهم جديرون بذلـــك أو هـــم فعلاً قد وصلوا إلي هذه المرتبة. إن ثمة خللاً ما في العقل الواعي يتيح للإنسان أن يعيش حلمه علي أنه حقيقة. أي أن ينتقل الحلم من الظلمـــات إلـــي النور. لكنه نور كاذب. نور غير حقيقي. إنه الوهم، لكنه الوهـــم الجميل، الوهم الذي يبعث علي السعادة حتى وإن كان علي حساب جزء قد تعطل من العقل الواعي.

وكـل طفل يحلم بأن يكون ملك الملوك. لكن تدريجياً ينكسر الحلم. الواقـع أقـوي من الحلم. الواقع يذبح الحلم. والهروب من المجزرة يكون بالاستعانة بالعقل الباطن ليظل حلم ملك الملوك حياً. وهناك ملك للملوك في كـل شئ: في السلطان، وفي المال، وفي العلم، وفي الشهرة، وفي الجمال، وفـي القـوة، ولكي يرد الإنسان نفسه إلي الواقع، فإنه أحياناً يضحك من نفسـه، فـيردد نكتة مثلاً عن شحاذ يريد أن يكون حاكماً. والحقيقة أنه هو الشحاذ الذي يريد أن يكون حاكماً. إنه يقوم بعملية إسقاط وإن بدت فكاهة. وكل الأحلام قابلة للتفكه إلا الحلم بالفوز بقلب الأميرة.

إنـه دائمـاً أكثر الأحلام صعوبة وأكثر الأحلام استحالة. إنه الحلم الـذي يتوزع مناصفة بين العقل الواعي والعقل الباطن. يأبى العقل الواعي أن يتـنازل تماماً عن حلمه. لكن العقل الباطن يتدخل كثيراً لإنقاذ صاحب الحلـم حتى لا ينفصل تماماً عن الواقع. يقوم العقل الباطن باستدراج الحلم فـترة من الزمن، حتى تستقيم حياة هذا الإنسان العاشق. حتى يعيش الواقع والحقـيقة. لكـن الشوق غلاب فيستعيد العقل الواعي حلمه ليجتره ويحوله إلي حلم يقظة قابل للتحقق عن طريق المعجزة.

يوماً ما سأظفر بك يا أميرتي. ستعيشين بين أحضاني. سأنجب منك حتى ولو كنت في الثمانين من عمرك، أنت بوصلتي في الحياة، فلن أفقدك أبداً. أنت لست بين يدي، لكنني سأظل ماداً يدي كغريق واثق من النجاة.

كانوا شلة من الأصدقاء، جمع بينهم التساوي في الميزان، فاستقامت مشاعرهم تجاه بعضهم البعض وطال عمر صداقتهم. وإذا تميز أحدهم في أمـر ما سرعان ما لحق به الآخرون، لأنهم يملكون نفس القدرات التي لا تخلـق تنافساً دموياً بينهم، ولا تقسمهم إلي طبقات تتسع المسافة فيما بينها.

إنهم سواسية في كل شئ. حققوا مقادير متساوية من النجاح، وحان الوقت للزواج، تزوج الجميع إلا اثنان، ترددا وماطلا، واستمرت عزوبيتهما التي قربت بينهما أكثر وأكثر، فكانا لا يفترقان.

وفـــي يـــوم مـــا فاجـــأ أحدهما الآخر بأنه وقع فجأة في غرام فتاة رشحتها له شقيقته ذات حسن وجمال واستقامة وذكاء وثقافة، لكنه لن يتقدم إلي الزواج منها إلا بعد موافقة صديقة وتوءم روحه.

وما أن رأي الصديق الفتاة المرشحة للزواج من صديقه حتى خفق قلـــبه بشدة دون أن يفهم سرا لذلك أو هو لم يحاول أن يفهم ووافق صديقه علي زواجه منها، وبقي هو أعزب، ولم يتحمل العزوبية وقتاً طويلاً فتقدم للزواج من شقيقة صديقه، وكانت فتاة عادية في كل شئ لا يخفق لها القلب ســـريعاً ولا تســـتطيع أن تحبها إلا بعد عشرتها لتكتشف طيبة قلبها ورقة طـــباعها وميلها الفطري لطاعة زوجها والتفاني في إسعاده. لكنه لم يسعد. لم ينس اللحظة خفقان قلبه حين رأي المرأة التي تزوجها صديقه.

وحلـــم فـــي نومـــه أكثر من مرة بأن صديقه مات وأنه تزوج من أرملـــته. وكـــم كان هذا الحلم يسعده دون أي وخز في ضميره، لأنه كان مجـــرد حلـــم لـــم يكن مسئولاً عنه. وكان ينفي لنفسه بشدة أنه يحمل أي عاطفة لزوجة صديقه، وكان يؤكد لنفسه دائماً أن جمالها من النوع الفائق، الـــذي يطفـــئ أي رغبة جنسية عند الرجل. وحاول أن يحب زوجته، لكنه فشل.

وتفرقت الشلة إلا منهما، فظلا متلاصقين، خاصة أن أحدهما تزوج شـــقيقة الآخـــر. امـــتزج الأربعـــة إلـــي الحد الذي تحولوا فيه إلي أشقاء وشقيقات، وساعد علي ذلك أنه لم يكن بين الرجلين أي مجال للمنافسة في

أي شئ، فهما متساويان متقاربان. أما المرأتان فكانتا صديقتين منذ الطفولة والجمال الفائق لإحداهما، كانت تعوضه الطيبة والرضا عند الأخرى. إلا أن صاحبنا لم ينس أبداً ضربات قلبه العنيفة حين رأي زوجة صديقه لأول مرة. كما ظلت أحلام زواجه منها بعد موت صديقه تلاحقه علي فترات متباعدة. إلا أنه لم يشعر بقلق تجاه هذه الأحلام التي بدت غريبة رغم أنها قد تحمل معني مباشراً وهو أنه يرغب هذه المرأة.

لكنه أكد لنفسه عشرات المرات أنه ليست به أية رغبة نحو هذه السيدة، خاصة أنها زوجة أعز صديق، وهي أيضاً الصديقة الحميمة لزوجته. ورغم المزيج العاطفي الذي ذابوا فيه جميعاً، فقد نجح في أن يجعل هناك مسافة بينه وبينها فلا يتصل بها في غياب صديقه، ولا يحدثها منفردة، ولا يفضي إليها بأشياء شخصية. ولا يدري هو لماذا فرض هذا الحصار علي نفسه في علاقته بها، فعل ذلك دون افتعال وبدون قصد مباشر، ودون تفسير منه. ولم يلحظ أحد هذه المسافة، كانت مسافة غير مرئية. مسافة موجودة في الداخل. موجودة في داخله هو فقط. وإذا خطرت له علي بال في أي وقت أو لأي سبب، كان يبعدها برفق عن دائرة وعيه. نجح في أن يوقف زياراتها إلي خاطره، إلا فيما ندر. لكنه لم ينجح في نسيان خفقان قلبه العنيف السريع حين رآها لأول مرة ولم ينجح إطلاقاً في أن يوقف أحلام زواجه منها. ما كان يقلقه حقاً هو أنه لم تكن تضايقه هذه الأحلام، ربما لأنه لم يضع لها أي تفسير، فهي مجرد أحلام لا معني لها ولا أهمية.

ومضت الأيام. كبروا. شاب من شاب، وترهل من ترهل، وكبر الأطفال وصاروا شباباً وشابات. وتزوج بعضهم، بل أنجب بعضهم، فصار

أبطال قصتنا الأربعة أجداداً وجدات. لكن أبداً لم ينس خفقان قلبه ولم تمتنع عنه أحلامه الغريبة. ومرض الصديق مرضاً أجهز علي حياته في غضون أشهر، وأصبح الأربعة ثلاثة.

عاشت الأرملة مع إحدى بناتها، وانشغلت مع أحفادها، فحدث تباعد بينها وبين صديقتها وزوجها. إنها حال الدنيا التي لا تبقي شيئاً علي حاله.

وجد أمر، وهو أن الصديق الباقي علي قيد الحياة، الذي تعدي الستين أصبح أكثر صراحة ووضوحاً مع نفسه، في البداية اعترف بأنه لم يحزن بالقدر الكافي لموت صديقه الوحيد.

ثم أخذ يردد لنفسه أن صديقه قد عاش حياته وتمتع بزوجة فائقة الجمال، ينافس ذكاؤها جمالها. ثم أخذ يستدعي هذه السيدة إلي خاطره، ويمعن التفكير والتذكر، وكان أكثر ما يسعده استرجاع ذكري اللقاء الأول، حين دق قلبه بشدة.

ثم أصبح لا يفكر أنه يشتاق إلي رؤيتها إذا غابت عنهم، فكان يحث زوجته علي الاتصال بها، وتدريجياً أخذ يزيل الحواجز التي فرضها بدون وعي بينه وبينها في أثناء حياة زوجها، وتجرأ أكثر من مرة، واتصل بها ليسأل عنها. لم يخبر زوجته بشأن هذه الاتصالات. وعجب لأنها هي ذاتها لم تخبر صديقتها.

فشجعه ذلك علي مزيد من الاتصالات، وتدريجياً زاد وقت الاتصال، فكان كل اتصال يستغرق الساعة أو أكثر. حتى ذلك الوقت كان لا يفهم، وكان لا يوجه لنفسه أي سؤال. ولم يقدم أي تبرير لسلوكه. إلي أن تجرأ يوماً وطلب أن يقابلها منفردة فلم تمانع.

وحيـــن هلـــت علـــيه خفق قلبه بعنف واستعاد ذكري اللقاء الأول. وكـــان مضطرباً. شعر بأن شيئاً داخله يضغط ليخرج من صدره، ويفصح عـــن نفســـه، وشـــعر بالضـــغط يتزايد. اهتز كله. تصبب العرق في عز الشتاء.

مـــال علي المائدة فاقترب وجهه من وجهها. اشتم العطر الذي فاح منها في اللقاء الأول، لم يصدق، قال لنفسه: ربما أتوهم. ثم اتقدت ذاكرته وتصور أنها ترتدي نفس الفستان. هذا غير معقول. لقد تضاعف وزنها منذ أن رآها أول مرة. قال لنفسه: أنا أحلم بدون شك، وتناهت إلي سمعه أغنية قديمـــة عمرها من عمر اللقاء الأول، وتذكر أنه سمعها فعلاً يوم أن رآها، هذه أمور غير معقولة. يبدو أنني جُننت، الهلاوس تغزو كل حواسي. أشتم وأري وأسمع أشياء غير موجودة. ربما أتخيلها، لكنها تخيلات حية، شديدة الحياة، تردد في أن يسألها عن حقيقة الأمر. قال لها: أتذكرين هذه الأغنية. قالـــت: نعـــم لقد سمعتها أول مرة رأيتك فيها. كاد قلبه ينخلع. سألها عن عطـــرها، فقالـــت: تعطـــرت به مرة واحدة حين رأيتك، وهذه هي المرة الثانية.

ســـألها عن فستانها، فقالت: إنه نفس الفستان الذي رأيته أول مرة، لكن مع بعض التعديلات.

وأخيراً خرج الشيء المخفي من صدره، وسألها: لماذا تذكرين كل ما يتعلق باللقاء الأول.

أجابت بكل أنوثتها، وبأنوثة كل امرأة في العالم: لكي أحتفظ بذكري نظـــرتك الأولـــي لـــي التي أشعرتني بالحب الجارف الذي تفجر في قلبك نحوي.

ولأول مـــرة يلتقي عقله الباطن مع عقله الواعي، فنطق دون تردد: أحبك..

وحين آوي إلي فراشه في هذه الليلة ونام، حلم بأنه يرقد أمام طبيب نفســـي ويعترف: لقد أحببت هذه السيدة منذ أن رأيتها. ولأنها زوجة أعز صديق، فقد وأدت هذا الحب لحظة ميلاده. عاش هذا الحب في وعيي ثانية واحدة. بل واحد علي مائة من الثانية. بل واحد علي مليون من الثانية. بل واحـــد علي ألف مليون من الثانية. إنه أعجب حب في الوجود. حب يعيش فـــي الوعـــي واحد علي ألف مليون من الثانية، ثم يُكبت لمدة ثلاثين عاماً ليعود بعدها حياً، قوياً، نابضاً من جديد.

سألها: هل تتزوجينني؟

قالت بهدوء: نعم.

وتحقق الحلم الذي بدا مستحيلاً في يوم من الأيام.

(٤٨)

الحب والجمال

الإدراك معـــنى، والمعنـــي هو مزيج من الفكر والعاطفة، فأنت لا تري بعينك وإنما بقلبك وعقلك، إن الاتجاه الصحيح للرؤية ليس من العين إلي المخ، وإنما من المخ إلي العين، العين وسيلة نقل، العين تنقل الشعاع، والشُـــعاع يتشـــكل فـــي المخ ويتحول إلي صورة، صورة مجردة ملساء مسطحة، صورة بلا معنى، صورة بلا مضمون، صورة باردة جداً، صورة خرســـاء لا تقـــول شيئاً، فأنت مثلاً إذا نظرت إلي ملكة جمال الكون فإن الضـــوء الذي ينعكس علي وجهها ينقل صورتها إلي مركز الرؤية بالمخ، أما أن هذا الوجه جميل فهذا معني يسبغه قلبك وفكرك علي الصورة، وهذا معـــناه أنك تراها بقلبك وعقلك، إذن الجمال لا ينتقل عبر الحواس، ولكنه ينتقل إلي الحواس.

ولذا فنحن نري أحياناً بآذاننا ونسمع بأعيننا، فالصوت نترجمه إلي صورة، والصورة نترجمها إلي صوت، وأيدينا من الممكن أن تشتم عطراً، كما أن العطر الذي يمر عبر الأنف يثير أحاسيس جسدية شتى، ولهذا فأنت لا تعرف ماذا ينقل ماذا، إذن الإدراك ليس مجرد نقل للأحاسيس وإنما هو تفســـير الإحســـاس، أي هو معني الإحساس. وهذا المعني ينبثق من وعاء الذكـــريات، مـــن التاريخ، من الخبرات الأولى، من الثقافة، من الحضارة،

ولــذا فأنــت حيــن ينشرح صدرك لوجه جميل وتهتف سبحان مبدع هذا الجمــال فأنــت تكون في حالة سرور بالغ وطمأنينة نفسية وقناعة فكرية ومــتعة جســدية، إنهــا استجابة كلية بكل كيانك، ويكون هذا النموذج في تقديــرك أقــرب إلي المطلق، المثل الأعلى، القيمة العليا، أي الجمال الذي ليس بعده جمال، ولكنك تعجب إذ أن هذا الجمال الذي أدركته مطلقاً إذ هو يعمق ويعمق ويزداد أكثر وأكثر، وتدرك له آفاقاً جديدة لم تكن تشعرها من قــبل وذلك كلما اقتربت منه، استمعت إليه وتحاورت معه، كلما تواصلت معــه، تشاركت معه في شئ؛ أي حين تنشأ علاقة ويزداد إدراكك لجماله كلما اقتربت أكثر حتى تنفذ إلي داخله فتبهر بجمال أخاذ ما رأته عينك من قــبل، فإذا كل ما فيه جميل، وكل ما تقع عليه عينه جميل، وكل ما يلمسه جمــيل، وكل ما يفوح منه جميل، وكل ما ينضح منه جميل، وإذا بك تحب كل شئ يتعلق به وينتسب إليه.

إذن فأنت لا تراه جميلاً فقط من خلال وجهه ولكن تداخلت حواس أخــري ناقلــة لصــوته ورائحته وملمسه، وتداخلت رؤياه وفكره وأسلوبه وفلســفته، ومشاعره، إنه كل متكامل، كل لا يتجزأ، معني شامل، أي هكذا يتحول الجمال إلي معنى، إذن الجمال معنى، معني يصل إلي عقلك وقلبك فــي آن واحد، أو بعبارة أدق فإن الجمال معني يطلقه عقلك وقلبك، وهذا معناه أن عينك تري فقط وأن أذنك تسمع فقط ولكن قلبك وعقلك هما اللذان يخلعان الجمال علي ما تراه أو تسمعه.

ولدي قصة تؤكد حرفية ما قلت، تؤكد كل ما ذهبت إليه من تعريف للجمــال وكيفية إدراكه وتوضح الفرق بين الإحساس والإدراك أي توضح الفرق بين ما يصل إلي الحواس وما يدركه العقل والقلب.

والحكايـــة تبدأ حين تحادث شخصان عن طريق الإنترنت، ودوافع الـــتحاور عن طريق الإنترنت كثيرة مثل الوحدة والفراغ وعدم القدرة علي الـــتحاور المباشر مع إنسان آخر وجهاً لوجه أو حب الاستطلاع أو الرغبة الفعلية في الثقافة والمعرفة عن طريق البشر.

والشخصـــان بطلاً هذه القصة هما شاب وفتاة دون الثلاثين وفوق الخامســة والعشــرين، فلــنقل إن عمر كل منهما حوالي ٢٧ أو ٢٨ سنة، كلاهمـــا تخـــرج مـــن الجامعـــة، كلاهمـــا يعمل، كلاهما متواضع مادياً واجتماعياً، ولكن علي درجة لا بأس بها من الثقافة إذ في مكتبة كل منهما مجموعـــة لا بـــأس بها من الكتب في مجالات متعددة إلا أن السمة الغالبة علي اهتماماته هي العلم، أما هي فاهتماماتها تنحصر في الأدب والفن.

الـــبداية كانت تعارفاً علي الشبكة عن طريق المصادفة، ومن خلال الكلمـــات المكـــتوبة التي تظهر علي الشاشة، ثم حوارات أخذت تتصاعد تدريجـــياً مـــن العام إلي الخاص، والخاص يعني أن يتحدث كل إنسان عن نفســـه ويبـــيح مساحة لا تستباح لأي طارق، أي درجة أعلي من التقارب، ودرجـــة أعمق من الترابط ودرجة أنضج من التفاهم، ولنقل إنهما أصبحا صديقين عن طريق الكلمات المكتوبة والناقلة فقط لأفكار كل منهما.

وحيـــن يصبح إنسان قريباً من إنسان آخر ولا يراه فإنه يطلب منه أن يصف نفسه، أي أنه يريد أن ينتقل من التخيل إلي الحقيقة أو شئ قريب من الحقيقة، وفي ذلك تخط لوظيفة العين ولكن ما باليد حيلة حيث أن ذلك هو المتاح في الوقت الحالي، ولأن كل منهما يعيش في بلد بعيد عن الآخر، ولســـبب ما خفي لدي كل منهما كانا يؤجلان الحوار الصوتي والذي يعقبه منطقياً اللقاء المباشر.

ونســتطيع أن نقــول إن حوارهما عن طريق الإنترنت أخذ منحنى غــير معتاد إذ حقق تقارباً ودياً إنسانياً يلمس برقة القلب ويهز دون عنف الوجــدان، إنه شئ أعلي من الصداقة وأقل من الحب، وكيف يكون حباً بلا صورة وبلا صوت، كيف يكون حباً عن طريق كلمات مكتوبة علي شاشة صــماء، حقــيقة أن هــذه الكلمــات منقوشة بحروف تفوح وداً وائتناساً، ومزخرفة بمشاعر مغلفة بالحياء، بل هي كلمات تكاد تهمس وتصدر صوتاً يقــول أنــا أحــبك. ولهــذا تجرأت هي وقالت له صف لي نفسك، بوغت بالســؤال، فصــمت، فأدركت صعوبة أن يجيب، فأرادت أن تسهل الأمر فقالت: أنت تشبه من ممن نعرفهم من المشهورين؟

ولكن لم يرد، دقيقة الصمت في مثل هذه الأحوال كأنها دهر كامل، ولكــن كان لابد من قطع الصمت من جانبه هذه المرة فقال: بل صفي لي نفســك أنــت، مــن تشبهين من جميلات السينما أم تتفوقين عليهن جميعاً جمالاً؟

صــمتت، لم تنطق، بل ربما توقف تنفسها بعض الوقت حتى ضاق صدرها. وقرر كل منهما أن يؤجل مرحلة التعرف علي الشكل عن طريق الوصــف واتخــذا خطوة أكثر تقدماً وهي أن يتحادثا تليفونياً فيتعرف كل مــنهما علي صوت الآخر لعل يستشف منه بعض الملامح، أحب صوتها، وأحبــت صوته، أدركا مستوي أعلي من الجمال فرقت مشاعر كل منهما أكــثر وأكثر. ومرة أخري عاودتها الرغبة في أن يتعرف كل منهما علي شــكل الآخر، مجرد أن يصف كل منهما شكله للآخر أو يدل علي شبيهه مــن الوجــوه المعــروفة دون أن يجرؤا علي تبادل الصور، أو أن يتخذا الخطوة الكبرى بالالتقاء المباشر.

ولســـبب ســـنعرفه بعد بضع سطور قليلة قرر كل منهما أن يرسم للآخر عن نفسه صورة باهرة تفيض حسناً وجمالاً، وفي نفس الوقت اتخذ كــل منهما قراراً منفرداً أبقاه لنفسه سراً بأنه لن يلتقي بالآخر، العجيب في الأمـــر أن القـــرار كان واحداً لدي كل منهما، ونستطيع بسهولة أن نتوقع السبب في هذا القرار وهو أن كل منهما سيرسم للآخر صورة غير حقيقية عن نفسه.

قالــت لـــه بحياء مصطنع في هذه المرة: يقولون عني إنني جميلة جمـــيلات دفعتـــي، قريبة الشبه من ممثلة الأوسكار هذا العام، حاول أحد المخرجين أن يقنعني بالعمل في أحد الأفلام ولكنني رفضت، شعري أسود طويل مثل الليل، بشرتي ناعمة تحسدني عليها صديقاتي، متوسطة القامة، لســـت ممتلـــئة، عيـــناي زرقاوان، مما يوحي بأن دمائي مختلطة بعنصر أجنبي، رغم عشقي للسباحة، فإنني امتنعت أخيراً عن ارتداء ملابس البحر تجنباً لمضايقات الشباب المهووس بجسدي.

بعـــد أن انتهت من وصف نفسها شعرت بغصة تتوسط حلقها، شئ ما يعوقها عن البلع، شئ يتضخم بسرعة ليضغط علي قصبتها الهوائية، فلا تقـــدر أيضاً علي التنفس، هرعت إلي المرآة حيث كان كل شئ مناقضاً لما وصفته له، فالوجه أقرب إلي الدمامة، والشعر قصير وخشن باهت السواد فشلت كل المحاولات لإثرائه، والجسد بدين لا تتناسق بين أجزائه وكأنما تم تجميعه من أشخاص مختلفين في الحجم.

وبكـــت، كيف أصل إلي هذا المستوي المتدني من الكذب رغم أنني أمـــتلك أشـــياء أخـــري أزدهي بها، فأنا أتذوق الجمال بكل صوره أعشق الموســـيقي وأحب السينما وأقتني الكتب القيمة وأهوي الرسم وأتفانى هياماً

بالوطن، ولي رأي ووجهة نظر، ولي موقف، وأحب الناس وأود من أساء إلـي وأتسامح، وفوق ذلك فأنا مؤمنة بالله قلباً وعقلاً، أؤدي كل العبادات بانتظام وعن قناعة، فلماذا إذن أصل إلي هذه الدرجة من التفاهة التي تنم عن عدم ثقة بالنفس وأصف شكلي بعكس الحقيقة.

وبدون أن تسأله تطوع هو لوصف شكله لها: قال إنه طويل وعريض مفتول العضلات حاد النظر شعره غزير ملامحه فرعونية، وجلده أسمر مشفوع بخلفية تؤكد أنه في الأصل أبيض اللون دمغته الشمس بالسمار لكثرة وجوده بالملاعب.

وبعد أن انتهي من وصف شكله لها انتابته نفس الغصة التي توقفت في منتصف حلقه وضغطت علي القصبة الهوائية فشعر بضيق في تنفسه وهرع إلي المرآة ليري شخصاً آخر غير الذي وصفه منذ لحظات، رأي رأساً صلعاء ونظارة سميكة تستكين منذ زمن طويل أمام عينيه وملامح وجهه أقرب إلي الدمامة وجسداً نحيلاً وظهراً مقوساً من طول ما جلس منكباً أو محنياً علي كتبه، وتساءل لماذا كذبت وأنا العالم المتفرد المشهود له بالذكاء والباحث الدءوب والمطلع علي الجديد في العلم والمحظى بالاحترام والتقدير من كل الناس، والودود اللطيف المحظي بالحب من كل الناس، إلي هذا الحد لا أثق بنفسي، هل شكل الإنسان هو الذي يحدد قيمته وأهميته، هل الإعجاب مرهون بجمال الجسد!!

انقطع كل منهما عن الاتصال بالآخر بعض الوقت وكأن كل منهما يعاقب نفسه علي كذبه، أو هو الشعور بالخجل والعار، ولكن الشوق استبد بهما فعاودا الحوار، وبدرجة ألصق تعني رغبة في الذوبان مع سقوط بعض الكلمات في أثناء الحوار عن عمد حتى لا تفصح بالكامل عن

مشـــاعر الحـــب التــي يكنها كل منهما نحو الآخر، واختصاراً لكثير من التفاصـــيل نستطيع أن نقول إن الاعتراف المتبادل قد تم ولم يعد هناك أي مبرر يعوق اللقاء المباشر.

وبشـــجاعة منقطعة النظير قررا التلاقي، هل هي شجاعة المخاطر والمنـــتحر أم هي شجاعة الواثق بأن الحب سيتغلب علي صعوبات الشكل، هــل اللقـــاء سيبعد كلا منهما عن الآخر، ويجهز علي هذا الحب الذي نشأ بـــدون عـــيون تـــري الآخر؟ أم أن العيون التي رأي بها كل منهما الآخر تختلف عن العيون المثبتة في الوجه.

أخيراً تحدد موعد اللقاء ومكانه، استعد كل منهما بأحلى ما عنده من ملابـــس فهـــذا هـــو الشيء الوحيد الذي يملكان التحكم فيه، تعطراً بأشهر العطـــور، تســـمرا أمـــام المرآة ساعات بمزيد من الوجل الذي اقترب إلي الهلع.

ثـــم حان الوقت، تحرك كل منهما صوب المكان، تصور كل منهما أنـــه سيكون القادر علي التعرف إلي الطرف الآخر بينما الطرف الآخر لن يســـتطيع الـــتعرف إلـــيه، تصور كل منهما انه هو الوحيد الذي كذب وأن الطرف الآخر كان صادقاً في وصفه لنفسه.

وصـــلا إلـــي المكان قبل الوقت المحدد بدون أدني عناء تعرف كل منهما علي الآخر، اقتربا بثقة، ابتسما قبل أن يتصافحا، انفكت يد كل منهما من الآخر بعد عناء، ازدادت الابتسامة اتساعاً، ود كل منهما لو استطاع أن يحتضن الآخر ولكن المكان لا يسمح فأعادا التصافح مرة أخرى، وفي هذه المرة تشابكت الأصابع بطريقة لا تسمح بالانفلات فمضيا شبه متلاحمين.

قال لها: كم أنت جميلة.

قالت له: كم أنت جميل.

قال لها: لم أكن أتصور أنك جميلة إلي هذا الحد.

قالت له: لم أكن أتصور أنك جميل إلي هذا الحد.

وكــان كــل مــنهما صادقاً في الإحساس بالجمال المطلق للطرف الأخر.

(٤٩)
الجيل الرابع

.. أي رابع وأي أول!! وهل هناك فرق؟ ولماذا يكون هناك فرق؟

بهذه التساؤلات المعترضة نكون قد بدأنا الحكاية من منتصفها وليس مـن أولها وهذا ليس معقول، فالحكاية لابد أن نعرف بدايتها قبل منتصفها. إلا أن هـذه الحكاية علي وجه التحديد لابد أن تبدأ من منتصفها.. فالمعني كلـه تحقـق عـند المنتصـف.. وليس مهماً بعد ذلك كيف بدأنا ولا كيف انتهينا.. وربما تتساوى البداية مع النهاية أو ربما تختلطان أو ربما تلتقيان عـند نقطـة مـثلما يحدث عندما تبدأ في رسم دائرة عند نقطة معينة فإذا النهاية أي النقطة الأخيرة من الدائرة لابد أن تلتقي بنقطة البداية أو تركب علـيها. وفـي هذه الحكاية بالذات فالجزء الأول منها ممل وبطئ ويحكيه البطل وهو رجل عجوز أحتفل لتوه بعيد ميلاده الثمانين ولن يتعاطف معه إلا مـن هم في مثل عمره وهم قليلون، وهو يحكي عن صراعه مع نفسه وصـراعه مع الحياة فرغم أعوامه الثمانين إلا أن قامته ما زالت ممشوقة وذهنه متوقداً والأهم أنه ما زال يتذوق الحياة ويجد لها طعماً.

أمـا النصـف الثانـي من الحكاية فترويه البطلة وهي طفلة أو قل مـراهقة فـي الخامسـة عشـر من عمرها وقعت في غرام هذا العجوز وتجـاوزت ذلـك إلى حد إقامة علاقة معه هي التي سعت إليها واستمتعت

بهـــا.. وبـــالقطع سيرفضها الجميع ولن يتعاطف أحد معها بل وسيدينونها بالانحـــراف ولن يصدق أحد أنها أحبت بصدق وهذا كله متوقع ولن يكون فـــيه إثـــارة أو معـــنى.ولذا تصبح البداية والنهاية واحدة أي رفض وعدم تصديق.

أمـــا الإثـــارة كلها والمعني كله هو في المنتصف.لحظة المكاشفة. لحظـــة الاعـــتراف.. لحظـــة تكســـير القوانين والقواعد والحدود والتقاليد والعـــادات والموروثـــات.. لحظة إعلان التحدي والاستجابة للنداء الداخلي والاهم أو أهم الأهم لحظة إلغاء الزمن وعدم الاعتراف به البتة فليست هي حكاية شهوة القلب أو شهوة الجسد وإنما هي حكاية التقاء عقل بعقل لم يكن من المتصور أن يلتقيان فالفرق الزمني بينهما خمسة وستون عاماً بل ربما هو ضعف ذلك. فالزمن في السنوات الأخيرة قد ضاعف من سرعته أكثر مـــن عشرة مرات، أي السنة الواحدة من أيامنا هذه تساوي عشرة سنوات مـــن الأيـــام التي ولد فيه العجوز بطل هذه الحكاية الحقيقية، والتي تجسد النموذج الجديد للوليتا العصر الحديث.

ولا نستطيع أن نقول مثلما يُقال دائماً في مثل هذه المواقف أن فتاتنا تملك عقلاً أنضج من عقول من هن في عمرها، وأنها لا تنتمي إلي فتيات هـــذا الجـــيل السطحي بمقاييس الأجيال القديمة.. بل هي فتاة بسيطة عادية تهـــتم بكـــل أمور جيلها، ولم تسمع عن مطربي العهد القديم ولم تقرأ في حياتها كتاباً واحداً لا قديم ولا حديث.

نضـــوجها كـــان في أنوثتها فإذا نظرت إلي وجهها الجميل فكأنما تـــنظر إلـــي أنثـــي اكتملت لها كل المقومات التي تتيح لها أن تحب رجلا ناضـــجاً وأن تعاشـــره وأن تجعلـــه يشعر بالاكتمال الذكري إزاء اكتمالها

الأنثوي. وإذا استمعت إلي صوتها فستجد أنه اكتسب خبرة توصيل المعاني بشـــكل محدد وقاطع وأنه منسجم تماماً مع الكلمات التي يشكلها عقلها حتى وإن كانت ذات عمق محدود. والحقيقة أن كلماتها عن طريق هذا الصوت تصبح عميقة وداله لأنها تعبير حقيقي وصادق عن صاحبته.

هـــذه هي عبقرية صوتها وكأنه مدرب وذو خبرة.إنه يجيد توصيل الكلمـــة.إنه يجيد التعبير الدقيق عن معني الكلمة. أي أنه الصدق الحقيقي. ولذلك لا يحدث لك إلتباس وأنت تستمع إليهاولا تصلك رسالة مختلفة عن تلـــك التي تريد أن توصلها هي إليك. إذا أضفت ذلك إلي أنوثتها المكتملة فـــإن الأمـــر يصـــبح جـــد خطير لأنها ستستطيع بسهولة أن توصل إليك مشـــاعرها وأحاسيســـها وستدرك حينها الفرق بين المشاعر والأحاسيس، فالمشـــاعر هـــي تعبـــير عن استجابات الوجدان والأحاسيس هي استجابة الجسد.

.. أمـــا ما يدهشك هو حركاتها والتفاتاتها وإيماءتها.. كل ذلك يعبر عن كيان واثق بنفسه.. لا إدعاء ولا مبالغة ولا تعمد ولا كلفه.وإنما بساطة وانسيابية وصدق.. وهذا في حد ذاته جمال أو هو المعني الحقيقي للجمال.. وهـــو لـــيس جمـــالاً ساكناً أو جامداً بل هو جمال الحركة.. والحركة هي الحـــياة.. إذن هـــو جمـــال الحـــياة. فإذا أضفت ذلك إلي أنوثتها المكتملة وصوتها المعبر فإنك بذلك تكون أمام أحسن تكوين للمرأة.

ولابـــد أن تعجب بهذا التكوين إذا كنت تملك حسا فنياً يري الجمال فـــي الاكتمال وربما أيضاً تذهل حين رؤيته ولكن ليس بالضرورة أن تحبه وأن تقع في غرامه. فالحب شئ آخر الحب هو القدرة علي رؤية مثل هذا الاكـــتمال الداخلـــي. أي أن تـــري جمال البناء النفسي لهذا الإنسان. بناء

مـــتكامل ومتـــناغم كالهرمونيا الموسيقية. إذا استطاعت أذنك أن تلتقط هذا اللحن الذي يصدره لك الداخل فأنك تقع في غرام هذا الإنسان. وهكذا وقع العجـــوز فـــي غـــرام هذه الفتاة.. ثم أن العشاق والمحبين يتميزون بميزة أخري وهي القدرة علي الربط بين جمال الداخل وجمال الخارج من خلال رؤيـــة شفافة تحتاج إلي إنسان مؤهل أو الحقيقة إنسان موهوب مثل الفنان وتلك هبة من عند الله ولذا لا يقع في الحب الحقيقي إلا قليلون.

.. والعجـــوز امـــتلك هذه القدرة فرأي فتاته علي هذا النحو الرائع الجمال..

.. أما هي فماذا رأت فيه ؟ الحقيقة أنه لا يوجد اختلاف أو فرق.. فهـــي أيضـــاً شـــدتها نظرة عينيه إلا إنها تختلف عن نظرة أي رجل آخر طالعها،فهـــي ليست نظرة الثعلب المفترس التي أفزعتها من جميع الرجال الذيـــن قابلتهم.. إنه كان الرجل الأول الذي لم يشعرها بالفزع. وما أروع من إحساس ألا تفزع من إنسان آخر. فأطمئن قلبها. فانطلقت تسأله وتسأله في كثير من أمور الحياة. وبالرغم أنها لم تكن تفهم بعض ما يقوله إلا إنها شعرت بمتعة عقلية ولم تكن من قبل جربت هذه المتعة. شعرت أن أفكاره مـــثل بحيرة صافية ينساب فيها الماء بهدوء لم يفقده حماسه ولمعانه تحت الشمس حين يتحدث عن أمور جادة ولمعانه أيضاً تحت القمر حين يتحدث عـــن أمور يفوح منها الشعر أي الكلام الموزون دون قافية والمغني دون موسيقى. وما أروعه حين كان يتردد صوته بمثل هذه الكلمات والتي كانت تثير فيها نشوة الفؤاد.

وبعـــد عـــدة لقاءات سعت هي إليها وسمح هو بها أحست بجسدها ينجذب ناحيته طمعاً في شئ معين لم تكن تدرك كنهه.

ورغـم محاولاتهـا للاقـتراب إلا أنــه كان يأبى.أبي في البداية بعينيه.وكان هذا الأباء يشدها أكثر إليه.. ثم أبي بعد ذلك بدفعات رقيقة من يديــه حيــنما كانت تحاول الاقتراب منه. استمر هذا الصراع الخفي حتى وصــل هــو إلــي قمة الإحساس بها فهويا معاً. ولا يمكن في هذه اللحظة وصــف مــا حــدث وخاصة في اللقاء الأول لأنه كان خارجا عن حدود المــألوف والموصوف والمعروف في مثل هذه الحالات.لقد سبحا معا إلي عــالم غامض مجهول مسحور لم يصل إليه أحد قبلهما ثم حملتهما وسيلة غير معروفة وطارت بهما إلي أعلي مكان في الكون استطاعا من عنده أن يــريا العلاقــات واضحة بين مكونات هذا الكون. إلا أن ثمة اختلاف في المعنــي عــند كــل منهما. وكانت هذه اللحظات بالنسبة لها كالميلاد.. أما بالنسبة له فقد كانت الفناء.. ولم يكن هذا بسبب الفرق الزمني بينهما وإنما بســبب أن هذه كانت الخبرة الأولي بالنسبة لها التي جعلتها تكتشف ذاتها.. أما بالنسبة له ونظراً لخبراته السابقة فقد شعر بأنه قد وصل للذروة. ذروة الحــياة التي يجب أن ينتهي عندها كل شئ ويفني ليعاد بعثه من جديد يوم القــيامة. وعجب لماذا تضعف القدرة الجنسية عند الإنسان حينما يتقدم في العمر. بل يجب أن تقوي وتقوى. أي يولد الإنسان ضعيفاً ثم تقوي لديه مع التقدم في العمر. وفي آخر أيام حياته يصل إلي ذروة القوة التي تتيح له أن يعيش تجربة لا يريد أن يعيش بعدها.

ونكــون بذلــك قد وصلنا إلي منتصف الحكاية. أما ما بعدها فهو اســتمرارهما فــي العلاقة مع مزيد من الاكتشافات للذات والحياة وما بعد الحــياة فعلمهــا الحكمة والغوص إلي الأعماق وعلمته التحليق في السماء والاستنشاق بسهوله.

واســتمرا كذلك حتى أكتشف أمرهما.وقبل أن نختم الحكاية نعود إلي البداية. فهو رجل كان ينتظر النهاية رغم حبه للحياة بل فلنقل احترامه للحــياة فهــو يــري أن لحياة الإنسان معني وقيمة وهناك حكمة من خلق الإنســان أن علي الإنسان أن يجتهد ليحيي حياة طيبة تحقق له متعة العقل والــروح والجســد. وكان مؤمناً في البداية بقلبه ثم بفكره.. وماتت زوجته وهــو في الخامسة والستين ولم يقرب الحرام من بعدها مثلما لم يقربه من بعد زواجه وهو في العشرين. ومات كل أصدقائه الذين من جيله بل ومات بعض أبناء أصدقائه من الجيل الثاني.

تقاعد عن مهنة المحاماة وهو في السبعين وتفرغ للقراءة وممارسة الرياضــة والمشــي علي شاطئ البحر ومراقبة الناس ومودة ما تبقي من أقاربه وأحفاد أصدقائه..

أمــا هــي فقــد كانــت من الجيل الرابع بالنسبة له أي حفيدة لابن صديقه.. جاءته مع أمها في استشارة قانونية بعد وفاة أبيها.. كانت أمها في الأربعين وتراه جداً لها، وكان هو يهتم بأمور هذه الأسرة لان جدها -أي جــد الأم- كان من أعز أصدقائه وكان يماثله في العمر ولذا فحين اكتملت العلاقــة مع فتاته الصغيرة ظل يتساءل باندهاش ثم بعد ذلك بدون اندهاش عن إمكانية أن تقوم علاقة عاطفية بين رجل عجوز وفتاة تنتمي إلي الجيل الرابع من بعده.

.. ثــم نأتــي إلي الختام وكنا قد توقفنا عند افتضاح أمر العلاقة.. وكان هناك فتي صغير في السادسة عشر من عمره يحب هذه الفتاة.. وجن جنونه حينما عرف أن الرجل العجوز قد أغوي فتاته وأخذها منه.. فأجتمع هــو وأصدقائه قرب بيت العجوز وكل منهم يحمل حجراً في يده.. وحينما

رأوا العجــوز قادمــاً انهالوا عليه بالحجارة فوقع على الأرض وقد سبقته بحــيرة من الدماء استقرت من تحته. وحين سألهم لماذا تضربونني أنبري الفتـــي الحانق وقال له لأنك سرقت حبيبتي.. أعتذر العجوز للفتي الصغير ثم أبتسم وفارق الحياة.

